



قواعد في العَصَمَةِ

تقريرا لبحاث

سماحة المرجع الديني الشيخ محمد السندي

الجزء السادس



تأليف

الشيخ محمد بن عبد الوهاب





الإقامة الألفية

الإمامة واللاهية

قواعد في العصمة

تقريرات

سماحة الشيخ محمد بن عبد الله السند

الجزء السادس

تأليف

الشيخ محمد الربيعي

الشيخ عباس الالامي



سرشناسه	:	سند ، محمد ، ١٣٤٠
عنوان	:	الامامة الالهية قواعد في العصمة الجزء السادس
تكرار نام پديد آور	:	تقرير محمد السندي؛ بقلم عباس اللامي ، محمد الربيعي
مشخصات نشر	:	تهران : نشر صادق، ١٤٣٨ هـ = ٢٠١٧ م = ١٣٩٥ ش
مشخصات ظاهري	:	٣٢٨ ص .
بهاء	:	٢٠٠٠٠٠ ريال
وضعت فهرست نویسی	:	فيا
يادداشت	:	کتابنامه
يادداشت	:	مندرجات: ج ١ ، منهج المعرفة الدينيه ، ج ٢ . نظريه الحكم ، ج ٣ ، المقام الغيبي في الامام ج ٤ . نظريه التوسل، ج ٥ . الشفاعة و التوسل . ج ٦ . عصمت امامت
موضوع	:	امامت
موضوع	:	ولایت
موضوع	:	عصمت
موضوع	:	اصول فقه شيعه
شناسه افزوده	:	اللامی ، عباس / ربيعی ، محمد
رده کنگره	:	١٣٩٥ ، ٨٦ الف ٩ س / BP ٢٢٣
رده ديویی	:	٢٩٧/٤٥
شماره مدرک	:	٣٩٢٣٤٥٣

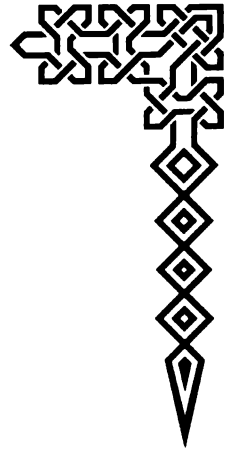
الإمامة والاهلية وقواعد في العصمة (المجلد السادس)

تقريرات من إعداد محمد الربيعي الذي أشرف عليه محمد السندي

تأليف: الشيخ عباس اللامي - الشيخ محمد الربيعي
الطبعة: الأولى - ١٣٩٥ هـ - ش - ٢٠١٧ م - ١٤٣٨ هـ . ق.
المطبعة: طاهر
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة
عدد الصفحات: ٣٢٨ صفحة
قطع: وزيري
ردمك: ٩٧٨-٦٠٠-٥٢١٥-٥٠-٢
الناشر: مؤسسة الصادق

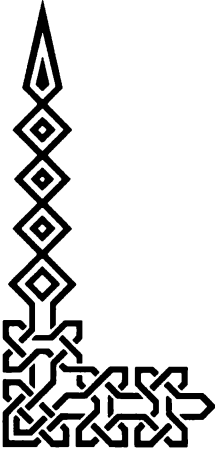
مراكز التوزيع:

- ١ . العراق ، النجف الاشرف ، المعرض الدائم للعتبة العلوية المقدسة
- ٢ . العراق ، النجف الاشرف ، شارع الرسول ﷺ ، قرب مدرسة النضال مكتبة دار البذرة
- ٣ . العراق ، النجف الاشرف ، شارع الرسول ﷺ ، سوق الحويش مكتبة سيد علي البصري
- ٤ . العراق ، كربلاء المقدسة ، المعرض الدائم للعتبة العباسية المقدسة
- ٥ . العراق ، بغداد ، الكاظمية المقدسة المعرض الدائم للعتبة الكاظمية المقدسة
- ٦ . ايران ، طهران ، شارع ناصر خسرو ، زقاق حاج نايب ، سوق الميدي ، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر (+٩٨ ٢١) ٣٣٩٣٤٦٤٤
- ٧ . ايران ، قم ، شارع معلم ، مجمع ناشران رقم B٤٠ ، مؤسسة الصادق (+٩٨ ٢٥) ٣٧٨٤٢٥٧٤-٧٥ / ٠٩١٢٤١٠٢٠٩٦
- ٨ . ايران ، قم ، ابتداء شارع صفائيه ، سوق الامام المهدي ﷺ ، مكتبة فدك (+٩٨ ٢٥) ٣٧٧٤٥٧٠٥



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾



المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في معنى العصمة لغة واصطلاحاً:

أَمَّا لُغَةً فَهِيَ الْمَنْعُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَقِينَ﴾ (٤٣) ﴿١﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (٢). وغيرها مِنْ الْآيَاتِ.

كما نجد المفسرين يفسرون مادة العصمة في تلك الآيات بالتمسك.

قَالَ الرَّاعِبُ، الْعَصْمُ هُوَ الْإِمْسَاكُ، وَالْإِعْتَصَامُ الْإِسْتِمْسَاكُ (٣).

والذي يبدو أنَّ بين المسك والتمسك والاستمسك وبين المنع فرقاً دقيقاً ربما لا يلتفت إليه، كما هو الحال بين الألفاظ التي يحسب أنها

(١) سورة هود: الآية ٤٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

(٣) مفردات الراغب: ص ٥٦٩.

مترادفة أو متقاربة.

فإنَّ بين الحفظ والمنع والحجر وأمثال هذه الألفاظ المتقاربة في المعنى فوارق مؤثرة في فهم المطلب فإن لكلّ لفظة من هذه الألفاظ معنى أو حيثية غير موجودة في غيرها.

فالمعصوم قد جعل الله فيه قوة وتلك القوة تمنعه عن الخطايا وتمسكه عنها، كما عن الراغب، ففرق بين أن تُفسّر العصمة بالمنع وأن تُفسّر بالاستمساك، فلو أن أحداً أراد أن يسقط من مكان عالٍ ومنعه شخص عن الوقوع فهذا منع عن الوقوع ولكن إذا مدّ يده ومسكه كان هذا المنع أخصّ من المنع الأوّل الذي لا يمسك فيه.

أما اصطلاحاً:

فالعصمة لطفٌ خفي يمتنع من أفيض عليه معه عن فعل القبائح والإخلال بالواجبات لا على جهة الوجوب الراجع للقدرّة كما توهمه من لا تحقيق له.

بل بمعنى أنّه إذا فعل الله سبحانه بالملكف اختار الطاعات واجتنب المعاصي البتة.

وعرّف بتعريف آخر وهو أنّ العصمة قوة تكوينية في العقل والعلم، يهبها الله لمن يشاء من عباده تمنعهم من اقتراف المعاصي مع قدرتهم عليها. فإنهم لو لم يقدرُوا عليها لم يكن لهم فخر ولا فضل في

اجتنابها، كما هو واضح.

فالمعصوم لا يترك واجباً أبداً ولا يفعل محرماً قط مع قدرته على
الترك والفعل وإلا لم يستحق ثواباً ولا مدحاً.

الشواهد التي توهم نفي العصمة

الشاهد الأول:

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقَوْتُمْ فَأدْبَارُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسَعَى﴾ (٦٦) (١) والإشكالية هنا في كيفية تسلط السحر على النبي موسى ﷺ وتأثيره عليه بحيث يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى والحال أنه نبي معصوم.

الشاهد الثاني:

قوله تعالى: ﴿وَأذْكَرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (٤١) (٢)، وهذه الآية تتحدث عن تسليط الله للشيطان على بدن أيوب ﷺ حتى أصيب بالقروح والبثور وما شابه ذلك.

(١) سورة طه: الآية ٦٦.

(٢) سورة ص: الآية ٤١.

الشاهد الثالث:

ما روي في مرض النبي ﷺ بسحر بعض اليهود، والسحر يرتبط ابتداءً بالأعصاب وهي جنبه نازلة روحية ثم بالبدن، وليس السحر مرتبطاً بالبدن مباشرة.

روى ابن شهر آشوب أن النبي ﷺ مرض من سحر لبيد بن أعصم وقال ابن شهر آشوب: « إِنْ صَحَّ هَذَا الْخَبْرُ فَلْيَتَأَوَّلْ وَإِلَّا فليطرح »^(١).

وفي الجعفریات عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ « أَنْ ابْنَ أَعْصَمٍ سَحَرَ النَّبِيَّ فَقْتَلَهُ »^(٢).

وأخرج النسائي عَنْ يَزِيدِ بْنِ حَيَّانَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ قَالَ « سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ فَاشْتَكَى لَذَلِكَ أَيَّاماً فَأَتَاهُ جَبْرَائِيلُ فَقَالَ أَنْ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ عَقْدًا فِي بئر كذا وكذا فَأَرْسَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَخْرَجُوهَا فَجِئَءَ بِهَا فِقَامَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَأَنَّمَا نَشِطَ مِنْ عَقَالٍ »^(٣).

الشاهد الرابع:

مَا وَرَدَ مِنْ أَنَّ أَحَدَ الشَّيَاطِينِ صَوَّرَ مَنَامًا لِلزَّهْرَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِتصوير ما. فَقَدْ رَوَى عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ فِي تَفْسِيرِهِ فِي سَبَبِ نَزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى:

(١) مناقب آل أبي طالب ص ٣٩١، وعنه في البحار ٦٠/ ص ١٣.

(٢) مستدرک الوسائل: ج ١٨ ص ١٩ ب ١ من أبواب بقية الحدود والتعزيرات ح ٢.

(٣) سنن النسائي: ٧/ ص ١١٢ - ١١٣ باب سحرة أهل الكتاب.

﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١) في صحيحة أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام، قَالَ: «كَانَ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ فَاطِمَةَ عليها السلام رَأَتْ فِي مَنَامِهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله هَمَّ أَنْ يُخْرِجَ هُوَ وَفَاطِمَةُ وَعَلِيٌّ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنَ عليهم السلام مِنَ الْمَدِينَةِ فَخَرَجُوا حَتَّى جَاوَزُوا مِنْ حَيْطَانِ الْمَدِينَةِ، فَتَعَرَّضَ لَهُمْ طَرِيقَانِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى انْتَهَى بِهِمْ إِلَى مَوْضِعٍ فِيهِ نَخْلٌ وَجَاءَ فَاشْتَرَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله شَاةَ كِبْرَاءٍ - وَهِيَ الَّتِي فِي إِحْدَى أُذُنَيْهَا نَقْطٌ بَيْضٌ - فَأَمَرَ بِذَبْحِهَا فَلَمَّا أَكَلُوا مَاتُوا فِي مَكَانِهِمْ فَانْتَبَهَتْ فَاطِمَةُ بِأَكْيَةِ ذَعْرَةٍ وَلَمْ تَخْبُرْ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله بِذَلِكَ، فَلَمَّا أَصْبَحَتْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله بِحِمَارٍ، فَأَرْكَبَ عَلَيْهِ فَاطِمَةَ عليها السلام وَأَمَرَ أَنْ يُخْرِجَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عليهم السلام مِنَ الْمَدِينَةِ كَمَا رَأَتْ فَاطِمَةُ فِي نَوْمِهَا فَلَمَّا خَرَجُوا مِنْ حَيْطَانِ الْمَدِينَةِ عَرَضَ لَهُ طَرِيقَانِ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله ذَاتَ الْيَمِينِ كَمَا رَأَتْ فَاطِمَةُ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى مَوْضِعٍ فِيهِ نَخْلٌ وَمَاءٌ. فَاشْتَرَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله شَاةً كَمَا رَأَتْ فَاطِمَةَ عليها السلام فَأَمَرَ بِذَبْحِهَا فَذَبَحَتْ وَشَوِيَتْ، فَلَمَّا أَرَادُوا أَكْلِهَا قَامَتْ فَاطِمَةُ وَتَنَحَّتْ نَاحِيَةَ مِنْهُمْ تَبْكِي مَخَافَةَ أَنْ يَمُوتُوا فَطَلَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا وَهِيَ تَبْكِي فَقَالَ مَا شَأْنُكَ يَا بِنْتِي؟ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّي رَأَيْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا فِي نَوْمِي وَقَدْ فَعَلْتَ أَنْتَ كَمَا رَأَيْتَهُ فَتَنَحَيْتَ عَنْكُمْ فَلَا أَرَاكُمْ

تموتون.

فقام رسول الله ﷺ فصلى ركعتين ثم ناجى ربه فنزل عليه جبرائيل فقال: يا محمد هذا شيطان يُقال له: الدهار وهو الذي أرى فاطمة هذه الرؤيا ويؤدي المؤمنين في نومهم ما يغمون به، فأمر جبرائيل فجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال له: أنت أريت فاطمة هذه الرؤيا؟ فقال: نعم فبزق عليه ثلاث بزقات فشجّه في ثلاث مواضع. ثم قال جبرائيل لمحمد ﷺ قل يا محمد إذا رأيت في منامك شيئاً تكرهه أو رأيت أحد المؤمنين فليقل: أعوذ بما عادت به ملائكة الله المقربون وأنبياءه المرسلون وعباده الصالحون من شر ما رأيت ومن رؤياي وقرأ الحمد والمعوذتين، وقل هو الله أحد ويتفل عن يساره ثلاث تفلات فإنه لا يضره ما رأي وأنزل الله على رسوله ﴿إِنَّمَا التَّجْوِي مِنَ الشَّيْطَانِ﴾^(١).

شدة عصمتهم ومناعتها قلباً وعقلاً

من مكايده الشيطان

فعصمتهم عقلاً وقلباً وفي مرتبة العقل والقلب، أشدّ وامنع عن أن يكايدهم الشيطان فضلاً عن أن يؤثر أو يُسيطر عليهم.

فالشواهد المتقدمة لا تنافي العصمة في النبي حيث أنها لا تحدث عن أي تأثير في تلك المراتب (العقل والقلب والروح) وهذا غير ما يدعيه الآخرون من تسلط الشيطان على روح النبي وقلبه وأن النبي ﷺ يوحى إليه الشيطان كما يوحى إليه ﷺ جبرائيل عليه السلام وقد فسروا بذلك قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(١) وما ذكروه ممتنع بحق الأنبياء والمعصومين إذ الوحي على ضربين:

(١) وحي رحماني.

(٢) ووحى شيطاني ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَىٰ أُولِيَٰهَا﴾ (١).

وَلَقَدْ فَسَّرَتِ المذاهب الإسلاميَّة الأخرى هذه الآية بأنَّ الشيطان يلقي في قلب النَّبِيِّ ﷺ وروعه حاله حال جبرائيل وحال الوحي الإلهي - والعياذ بالله - فيوحي إليه الرحمن والشيطان معاً؛ ولذا حاكوا الروايات في تسلُّط الشيطان على النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ آيات الغرائيق «وَأَنَّهُنَّ مِنْ الغرائيق العلى، وَأَنَّ شفاعتهم لترجي» فلما سمع به مشركو قريش قالوا قَدْ صالحنا محمداً ﷺ (٢).

واستفاد سلمان رشدي مِنْ هذه الخزعبلات وصاغ تلك الروايات الموجودة في صحاحهم ومصادرهم بصياغته الخاصة وأسماها «الآيات الشيطانية» والحال أَنَّ ما هُوَ موجود في كتب القوم أعظم مما ذكره سلمان رشدي. وَمِنْ ثَمَّ لَمْ تصدر مِنْ قبلهم أي فتوى ضده.

أَمَّا المُفسِّرون المتأخرون منهم فاستنكفوا عَنْ كتابة هذه الروايات. وقالوا أَنَّ هذه الروايات لا تصدق ولا يعبأ بها.

وعموماً تعدَّ هذه الآية وآيات أخرى مِنْ سورة الحج وباقي السور ملحمة معرفية عظيمة في معرفة النبوة؛ وفي نفي سيطرة وسلطة او تأثير الابالسة والشياطين على النَّبِيِّ ﷺ.

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢١.

(٢) راجع مجمع الزوائد: ج ٦ ص ٣٣ و ج ٧ ص ٧١؛ وفتح الباري لابن حجر ج ٨ ص ٣٣٣؛ والمعجم الكبير للطبراني ج ٩ ص ٣٥ و ج ٦٢ ص ٤٢؛ والكشاف ج ٣ ص ١٩.

تفسير أهل البيت لأمنية النبي:

وَرَدَتْ طائفة من الروايات^(١) عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ تفسر الآية المذكورة من سورة الحج ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾.

ويتركز بيانهم عليه السلام على (الأمنية) وبيان المراد منها، وأن عدم فهم العامة لها هو الذي أوجب وقوعهم في هذا الانحراف الواضح والخطأ الفادح.

فالأمنية والغاية والهدف لها تقرران:

(١) تقرر ووجود ذهني وفي أفق النفس.

(٢) تقرر عيني خارجي.

والخطأ الذي وقع فيه العامة هو أنهم توهموا أن المراد من الأمنية هو التقرر الذهني لها والحال أن الغاية تستعمل بمعنى العينية الخارجية.

وقد قرر في العلوم المختلفة كالفلسفة والمنطق، وكذا الفقه والأصول أن الغاية والأمنية يطلقان على الوجود الخارجي للغاية وإلا فالوجود الذهني للغاية ليس غاية وإنما هو علة فاعلية، أما حقيقة الغاية والأمنية فهي ما يتحقق في الخارج من معلول ووجود خارجي؛ ولذا ليس إطلاق الأمنية والغاية والنص على الوجود الخارجي إطلاقاً مجازياً. ولذا لو قال شخص أن مقصودي هو بناء عشرة طوابق أو خمسة فإن مقصوده

(١) راجع تفسير البرهان: ج ١١ ص ٧٤١١ ص ٩٠٤ عن الاحتجاج في حديث أمير المؤمنين ٢٣.

لَيْسَ فِي أَفْقِ الذَّهْنِ بَلٌّ فِي الْخَارِجِ وَالْعَيْنِيَّةِ الْخَارِجِيَّةِ.

فالغاية والأمنية والقصد تطلق عَلَى الوجود الخارجي أيضاً لا عَلَى الوجود الذهني فَقَطْ.

فإذا تبين هذا سيتضح أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْأُمْنِيَّةِ فِي الْآيَةِ لَيْسَ الْأُمْنِيَّةُ فِي أَفْقِ ذَهْنِ النَّبِيِّ وَقَلْبِهِ وَرُوحِهِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنَ الْأُمْنِيَّةِ مَا يَتَقَرَّرُ خَارِجاً وَعَيْناً مِنْ هِدَايَةِ مَجْتَمَعِهِ الَّذِي حَرَصَ وَجَاهَدَ مِنْ أَجْلِ هِدَايَتِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ. فَلِلنَّبِيِّ غَايَةٌ وَأُمْنِيَّةٌ وَهِيَ هِدَايَةُ قَوْمِهِ وَمَجْتَمَعِهِ، وَإِلْقَاءُ الشَّيْطَانِ فِي أُمْنِيَّتِهِ هُوَ فَتْنَتُهُ لَهُمْ وَمَكَايِدَتُهُ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَحْرِفَهُمْ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى وَالِاسْتِقَامَةِ، وَيُضِلُّهُمْ عَنْ مَنْهَاجِ الْحَقِّ فَالْفِتْنَةُ فَتْنَةٌ خَارِجِيَّةٌ وَالِإِلْقَاءُ الشَّيْطَانِيَّ إِلْقَاءٌ فِي مَجْتَمَعِ النَّبِيِّ لَا فِي نَفْسِ النَّبِيِّ ﷺ.

والقرينة عَلَى هذا الحملِ مِنَ نَفْسِ الْآيَةِ هُوَ مَا وَرَدَ فِي ذَيْلِهَا مِنْ تَغْلِيْبِ اللَّهِ لِلْهُدَى وَالنُّورِ عَلَى الضَّلَالِ وَالظُّلَامِ مِمَّا يَشْهَدُ لَكُنُوعِ النَّزَاعِ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالشَّيْطَانِ إِنَّهَا هُوَ فِي الْمَجْتَمَعِ الْخَارِجِيِّ الَّذِي هُوَ مِيدَانُ لِلنَّزَاعِ وَالْحَرْبِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، لَا نَفْسِ النَّبِيِّ وَرُوحِهِ وَقَلْبِهِ مِمَّا عَصَمَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ بَاطِلٍ وَضَلَالٍ.

عجز الشياطين عن الوصول إلى قناة النبوة:

أَمَّا مَا ذَكَرُوهُ مِنْ تَسَلُّطِ الشَّيْطَانِ أَوْ إِبْلِيسَ عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ فَتَنْفِيهِ عِدَّةُ آيَاتٍ مِنْهَا:

قوله تَعَالَى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ
لِئْتَهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُؤُونُ﴾^(١).

فلا يمكن للشياطين أن يدخلوا قناة الوحي ولا يستطيعون الوصول إليها. وكفي يتضح الأمر فلا بأس بشيء من التفصيل.

إِنَّ هُنَاكَ قَنَوَاتٍ مَا وَرَائِيَةِ غَيْبِيَّةٍ يُمْكِنُ أَنْ يَدْخُلَ إِلَيْهَا الشَّيَاطِينُ وَهُوَ مَا عَبَّرَتْ عَنْهَا الْآيَةُ ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾^(٢). لكنَّ قَنَوَاتِ الْإِتِّصَالِ بِالْغَيْبِ الَّتِي يَرْتَبِطُ مِنْ خِلَالِهَا الْأَنْبِيَاءُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَيَتَنَزَّلُ بِهَا الْوَحْيُ فَتلك قَنَوَاتٍ تَعْجِزُ الشَّيَاطِينَ مِنَ التَّقَرُّبِ مِنْهَا فَضلاً عَنْ أَنْ تَدْخُلَ فِيهَا وَتُحْتَرِقَهَا، بَلْ يَعْجِزُ عَنْ الدَّخُولِ إِلَيْهَا مَوْجُودَاتٌ عَظِيمَةٌ مُقَدَّسَةٌ كَبَعْضِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ فَتَكْلِيمُ اللَّهِ تَعَالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا حَوْلَ مُوسَى بَلْ وَلَمْ تَسْمَعْهُ الْمَلَائِكَةُ الْكُرُوبِيِّينَ، كَمَا وَرَدَ فِي دَعَاءِ السَّمَاتِ «وَأَسْأَلُكَ بِمَجْدِكَ الَّذِي كَلَّمْتَ بِهِ عَبْدَكَ وَرَسُولَكَ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْمَقْدِسِينَ فَوْقَ إِحْسَاسِ الْكُرُوبِيِّينَ فَوْقَ غَمَائِمِ النُّورِ فَوْقَ تَابُوتِ الشَّهَادَةِ»^(٣) فَتلك القناتة الَّتِي كَلَّمَ اللَّهُ بِهَا مُوسَى لَمْ يَكُنْ لِقُدْرَةِ الْكُرُوبِيِّينَ وَإِحْسَاسِهِمْ أَنْ يَرْتَبِطَ بِهَا. وَهَذِهِ الْقَنَاتَةُ الْوَحْيَانِيَّةُ يَفْتَرِقُ الْمَعْصُومَ عَنْ غَيْرِهِ، كَمَا يَسْتَفَادُ ذَلِكَ مِنْ

(١) سورة الشعراء: الآية ٢١٠-٢١٢.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢١.

(٣) مصباح التهجد: ص ٤١٧.

عِدَّة آيات وروايات وأدلة عقلية، فقناة المعصوم قناة معصومة وآمنة من الخرق، أمَّا غَيْرُ المعصوم فقناة تلقيه القلبية الماورائية مِنْ الغيب ليست قناة معصومة فيمكن للشيطان أن يدخل ويؤثر فيها.

فَقَدْ وَرَدَ فِي بَعْضِ الروايات أَنَّ بَعْضَ أصحاب الأئمة عليهم السلام مِنْ أهل الأسرار والمعارف الَّذِينَ وصلوا إلى مقامات عالية وَلَمْ يكونوا تلاميذاً عاديين قَدْ تسلَّط عليهم الشيطان وتراءى لهم وأضلَّهم نظير أبي الخطاب مُحَمَّد بن أبي زينب ومغيرة بن سعيد وغيرهما^(١) فمثلهم مثل بلعم بن باعورا الذي كَانَ مِنْ أصحاب اليقين والمقامات والأسرار ولكن لَمْ يستقم فانزلت وأخلد إلى الأرض، وهذه محنة وابتلاء كبير يواجهه أهل اليقين والتقوى وأهل الإخلاص وهم عَلَى خطر عظيم.

عدم حجية المكاشفات لدى غير المعصوم:

وَهَذَا يُفسَّر لنا أحد أسباب عدم حجية ما يراه البعض مِنْ مكاشفات ورؤى ونحوها، فَإِنَّ قناة غَيْرُ المعصوم غَيْرُ مصونة عَنْ تسرُّب الشيطان وتصرفه فيها أو تكوُّن تلك المكاشفات مِنْ أحاديث نفسه، فللشيطان بثُّ أثري إبليسي وعفريتي ما وراء بثِّ الأشعات والرادارات مِنْ خلاله يكتب القدرة للسمع إلى الملأ الأعلى ﴿لَا

(١) راجع الكشي ح ٥٤٥ بسنده عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: قال تراءى والله إبليس لأبي الخطاب على سور المدينة أو المسجد فكأني أنظر إليه وهو يقول إياها نظفر الآن نظفر الآن؛ وراجع أيضاً الكشي ح ٥٣٧ وح ٥٤٧ وح ٤٠٣ وغيرها.

شدة عصمتهم ومناعتها قلبا وعقلا..... ٢١

يَسْمَعُونَ إِلَى آلِمِلَا الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا
مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١﴾ فلهم خطفات لمحاولة السماع
وموجات أثرية ولطائف عجيبة وليسوا من الجن العادي بل من
العفاريت من نمط كبير كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ
أَنَا أَنَا نِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ (٢).

فالشياطين قدرة على اختراق قنوات تلقي غير المعصومين
والتشويش عليهم كما دلت عليه من عدة الآيات والروايات.

قناة الوحي فوق قدرة الأبالسة:

ولكن قناة الوحي أعظم من ذلك ولا تقاس بقناة تلقي غير المعصوم
أبدأ.

فالشياطين قد يحاولون أن يسمعوا أو ينصتوا ويركزوا ولكن لا
يستطيعون أن يقتربوا من تلك القناة فضلا عن أن يسمعوا أو يخترقوها
﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيمُونَ﴾. وغيرها من
الآيات دالة على ذلك، بل الاطلاع على الوحي ليس من شأن قدرة كل
الملائكة وليس كل الملائكة أمناء للوحي كجبرائيل وميكائيل بل في بعض
الأخبار أن عزرائيل ومالكاً ورضوان وإسماعيل مالك السماء الدنيا لا

(١) سورة الصافات: الآية ٨ - ١٠.

(٢) سورة النمل: الآية ٣٩.

يدخلون عَلَى خط الوحي فَهُمْ مَعَ كُونِهِمْ مِنَ الملائكة العظام وَلَكِنَّهُمْ لَا يسمعون بَعْض أنواع الوحي، ناهيك عَنِ الشياطين والأبالسة. نعم هُنَاكَ فتات تنزل فِي بحث القضاء والقدر التحتاني قَدْ يسمعون منها شيءٌ قليلاً ولكن ﴿وَيَقْدُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ﴾.

بَلْ هُنَاكَ درجاتٍ مِنَ الوحي أعلى وأعظمٍ مِنْ قدرة جبرائيل عليه السلام

نفسه:

(١) كَمَا فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الملعونةَ فِي القُرْآنِ﴾ (١) وهذه الرؤيا ليست محجوبة عَنْ إبليس والشياطين فَقَطْ بَلْ حَتَّى عَنْ أمين الوحي جبرائيل عليه السلام حَيْثُ لَمْ يفظن لها ونزل عَلَى رسول الله صلى الله عليه وآله فرآه مغتماً كثيراً فسأله عَنْ كآبته فأجاب بالرؤيا الَّتِي رآها فصعد جبرائيل ثُمَّ نزل بِالآية الآنفة الذكر. فهذا نوعٌ مِنَ الوحي أو درجة وقسمٍ مِنْهُ مِنْ مراتبه العالوية يشير إليه القرآن الكريم:

والمستفيض والمتواتر مِنَ الروايات أَنَّ هُنَاكَ نمطٌ مِنَ الوحي بين الله تَعَالَى ورسوله لا يكون بواسطة أو بملك. فتلك الذبذبات (وهذا تعبير تقريبي) الَّتِي تَتَضَمَّنُ ذَلِكَ الوحي أعلى مِنْ قدرة جبرائيل والملائكة المقربين.

(٢) إِنَّ عِدَّةَ مِنْ الْآيَاتِ تَتَحَدَّثُ عَنْ وُجُودِ أَقْسَامٍ وَمَرَاتِبٍ لِلْوَحْيِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى. ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾^(١).

وأحد تفاسير قوله تَعَالَى ﴿مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ أيَّ محبوب هذا الوحي عَنْ كُلِّ مَا يَحِيطُ بِذَلِكَ النَّبِيِّ أَوْ الْبَشَرِ و«وراء الحجاب» لا يراد به أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَحْبُوبٌ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ بِجَسَمٍ أَوْ غَلْظٍ حَتَّى يَحْجِبَهُ شَيْءٌ عَنِ شَيْءٍ، وَأَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ وَهُوَ ﴿يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ فذاك نمط أعظم مِنْ مَرَاتِبِ الْوَحْيِ وَهُوَ الْوَحْيُ بِالْمَعْنَى الْأَخْصِ بِلَا حِجَابٍ وَهُوَ الْوَحْيُ الَّذِي كَانَ يَغْشَى عَلَى النَّبِيِّ حِينَ نَزُولِهِ كَمَا وَرَدَ عَنْهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَذَلِكَ عِنْدَمَا يَتَجَلَّى اللَّهُ تَعَالَى لَهُ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ. وَقَدْ وَرَدَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ «لِي مَعَ اللَّهِ وَقْتُ لَا يَسَعُهُ مَلِكٌ مُقْرَبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا عَبْدٌ امْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ»^(٢).

فللوحي أقسام كما في الآية؛ وأحد تلك الأقسام والأنماط هو «يكلمه» كما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في عِدَّةٍ مِنَ الرِّوَايَاتِ.

ونمط مِنْ أَنْمَاطِ الْوَحْيِ هُوَ مَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

(١) سورة الشورى: الآية ٥١.

(٢) البحار ج ١٨ ص ٣٦٠.

رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا^(١) ونمط آخر منه التأييد بروح القدس ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ
الْقُدُسِ﴾^(٢). عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي رِوَايَاتِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْوَارِدَةِ فِي
أَصُولِ الْكَافِي وَغَيْرِهِ جِهَاتٍ عَدِيدَةٍ لِلْبَحْثِ عَنْ أَقْسَامِ الْوَحْيِ.

الجواب عن شبهة تأثير السحر عليهم ﷺ:

تَقَدَّمَ أَنَّ جَمَلَةً كَبِيرَةً مِنْ مَدْرَسَةِ أَهْلِ سَنَةِ الْخِلاَفَةِ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ
إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ يَتَسَلَّطُ عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ رُوحِهِ اسْتِنَادًا إِلَى الْآيَةِ
٥٢ مِنْ سُورَةِ الْحَجِّ ﴿الْقَى الشَّيْطَانُ فِي أَمْنِيَّتِهِ﴾ وَهَذَا مَا لَا تَقْرَهُ
مَدْرَسَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَنْفِيهِ كَمَا فِي عِدَّةٍ مِنَ الْآيَاتِ وَالرِّوَايَاتِ.

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ابْتِلَاءُ أَيُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا
أَيُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكَضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ
بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾^(٣) فَقَدْ وَرَدَ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْمَاضِي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ إِبْلِيسَ أَرَادَ
مِنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَسَلِّطَهُ عَلَى أَيُوبَ فَقِيلَ لَهُ أَنِّي قَدْ سَلَّطْتُكَ عَلَى بَدَنِهِ مَا
خَلَا قَلْبَهُ وَلسانَهُ وَعَيْنَهُ وَسَمِعَهُ»^(٤).

وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حَدِيثٍ أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ لِإِبْلِيسَ فِي
شَأْنِ أَيُوبَ: «فَقَدْ سَلَّطْتُكَ عَلَى بَدَنِهِ مَا خَلَا عَيْنِي وَعَقْلَهُ وَلسانَهُ الَّذِي

(١) سورة الشورى: الآية ٥٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ٨٧.

(٣) سورة ص: الآية ٤١ - ٤٢.

(٤) علل الشرائع: ج ١ ص ٩٦ ب ٦٥ ح ٥.

لا يفتر عن ذكرى وأذنيه»^(١).

فهاتان الروايتان دالتان على عدم تسلط الشيطان على عقل النبي وقلبه، وما في الآية الأخرى من تحيّل موسى عليه السلام من سحرهم، إنّما تحمل على تصرّف وتأثير منه في البدن أو الحسّ المشترك؛ لأنّ السحر يتصرّف في الحسّ المشترك الذي هو دون التخيّل وعبارة عن مجمع الحواس الخمس بحيث ربما يتصرّف الشيطان أو الساحر فيه، فترى في هذا الجدار باباً فتريد أن تدخل وإذا به جدار، فالسحر يتصرّف في الحسّ المشترك والتخيّل وهذا لم يُنفِ تصرّف الشيطان فيه وإنّما المنفي هو سيطرته وسلطته على عقل النبي صلى الله عليه وآله أو قلبه الذي هو مهبط الوحي فقلبه لا يتنزل عليه الشيطان ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ﴾.

وكذلك الأمر في بقية المعصومين عليهم السلام في قناة عقلهم وقلوبهم فإنّ الشيطان محجوب عنهم، فقلوبهم وعقولهم والأرواح الكلية والأنوار الكلية العظيمة المرتبطة بها أبدانهم عليهم السلام درجات من وجودهم يمتنع على الشياطين نفوذهم إليها وتأثيرهم عليها، ويبقى حيثئذ تحيّل النفس الجزئية في المعصوم عليه السلام التي هي الحسّ المشترك في معرض حرب الشيطان.

وكذلك الأمر في ما روي من مرض النبي ﷺ بالسحر، فالسحر هو من عالم الأثيريات ويؤثر على النفس الجزئية والنازلة للإنسان، وهذا التأثير غير السيطرة بل هو تأثير على مستوى المكابدة فكما أن السيف قد يجرح بدن المعصوم، كذلك بعض التأثيرات على مستوى الحس المشترك والنفس النازلة، فأصل التأذي شيء والسيطرة شيء آخر. والتأذي لا يستلزم السيطرة والسيطرة منفية نفيًا باتًا. أمّا أصل الأذية ف «ما أؤذي نبي مثلما أؤذيت» و «أشدُّ الناس بلاءَ الأنبياء ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل».

ثم أن الأذية ليست بمعنى المكابدة بمعنى الهيجان الطاغي عليه فهذا لا يصح في شأنه ولا كلام في عدم السيطرة بهذا المعنى ومن المهم جداً عدم الخلط بين المعاني فإن الخلط بين المعاني في غاية الخطورة والتحرّز عنه في غاية الأهمية.

ولا يخفى أن هناك شواهد روائية مستفيضة مقتضاها نفي تأثير السحر على بدن رسول الله ﷺ، وأن الشياطين ليس بإمكانهم التأثير على بدنه ولا على نفسه الجزئية وأن ذلك من خواص سيد الأنبياء ﷺ دون بقية المعصومين.

عصمة بدن المعصوم وقواه النازلة:

إن ما تقدم لا يعني أن المعصوم لا يعصم في بدنه وحسه وخياله بل المعصوم معصوم حتى في بدنه وفعل خياله وحسه المشترك فإن هذه

المراتب النازلة تستعصم بالمراتب العالية، ولكن ذلك لا يعني أنه بمعزل عن حرب الشيطان في تلك المراتب، نعم الشيطان لا يتسلط عليه فيها، ولكن بدن المعصوم ونفس المعصوم تصاب بأذى وتعب وجهد، ولا ينافي ذلك العصمة.

فالمعصوم يحتز رأسه ويصاب بألوان التعب والأذى من دون منافاة ذلك للعصمة، وكذلك النفس الجزئية للمعصوم عليه السلام تتأثر وتعطش وتجويع لأنها تدرك العطش والجوع وتستشعر المرارة؛ ولذا نجد أمير المؤمنين عليه السلام حينما يتناول عليه عمرو بن عبد ود (لعنه الله) تغضب نفسه الجزئية ولكنه يمسك غضبه ولم يقتله لغضبه بل أدار وجهه وقتله لكمال الإخلاص لله تعالى. فلا يرد ما أشكله البعض على هذا الخبر من أنه ينافي العصمة فما وقع منه عليه السلام ليس منافياً للعصمة؛ ولذا يقول عليه السلام: «وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر»^(١) فنفس المعصوم وبدنه يصيبهما التعب والألم والإجهاد ولكن لا ينافي ذلك العصمة.

فَعَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله: «ما أُوذِيَ نبي مثلما أُوذيت»^(٢) وهذا يعني أن المعصوم يطعم المرارة ويدوقها ولكن بالنفس الجزئية وإلا فالعقل الكلي لا يأكل ولا يشرب ولا يمرض ولا يعطش ولا يستشعر مرارة

(١) نهج البلاغة، الكتاب رقم ٤٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ج ٣، ص ٤٢.

ولا يستعذب حلاوة فالعقل مرتبة أعلى .

أما بدنه ونفسه الجزئية وقواه وغرائزه الجزئية فهي تكابد الألم والعناء امتحاناً وابتلاءً من الله .

فَقَدْ وَرَدَ فِي الزِيَارَةِ الْجَامِعَةِ لِأُئِمَّةِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي رَوَاهَا ابْنُ الْمُشَاهِدِيِّ فِي الْمَزَارِ الْكَبِيرِ وَالسَّيِّدِ ابْنِ طَاوُوسٍ فِي مَصْبَاحِ الزَّائِرِ وَصِفَاً لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَمَا غَضِبَ حَقَّهُ فِي السَّقِيفَةِ «وَهُوَ سَاخِطُ الْقَلْبِ هَائِجُ الْغَضَبِ شَدِيدُ الصَّبْرِ كَاظِمُ الْغَيْظِ»^(١) . فَهُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَائِجُ الْغَضَبِ مِنْ جِهَةِ اسْتِنكَارِهِ لِلْمُنْكَرِ ، فَنَفْسُهُ أُثِيرَتْ وَثَارَتْ إِنْكَاراً لِلْبَاطِلِ وَلَكِنَّهُ شَدِيدُ الصَّبْرِ وَكَاطِمُ الْغَيْظِ تَدْبِيرًا وَإِحْكَامًا لِلْأُمُورِ . وَمَنْ تَجْتَمِعُ فِي نَفْسِهِ هَذِهِ الصِّفَاتُ فَهُوَ يَكَابِدُ بِنَفْسِهِ الْجَزْئِيَّةِ فِي الْحَسِّ الْمَشْتَرَكِ ، مِنْ دُونِ مَنَافَاةٍ بَيْنَ هَذِهِ الْمَرَارَةِ وَالْمَكَابِدَةِ وَبَيْنَ الْعَصْمَةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ مَحْنَةٌ وَابْتِلَاءٌ ؛ وَلِذَا قَدْ يَجْرَحُ الْمَعْصُومُ بِعَوَاطِفِهِ كَمَا يَجْرَحُ بِيَدِنِهِ كَمَا رَوَى عَنْ الصَّدِيقَةِ الطَّاهِرَةِ عَلَيْهَا السَّلَامُ أَنَّهَا جَاءَتْ لِقَبْرِ أَبِيهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ شَاكِيَةً مَا لَاقَتْ وَقَالَتْ :

صُبَّتْ عَلَيَّ مَصَائِبٌ لَوْ أَنَّهَا صُبَّتْ عَلَيَّ الْأَيَّامُ صُرْنَ لِيَالِيَا

فَهَنَّاكَ أَلَمْ يَحْسَ بِهِ الْمَعْصُومُ وَقَدْ أَصِيبُوا بِمَصَائِبٍ فِي نَفُوسِهِمْ لَا فِي أَبْدَانِهِمْ فَقَطْ . مِنْ قَبِيلِ الْجَفَاءِ الْحَاصِلِ مِنَ الْأُمَّةِ تَجَاهَهُمْ وَإِغْلَظِهَا

عليهم صلوات الله عليهم. كما هو الحال في المعاناة التي واجهها أمير المؤمنين عليه السلام من خذلان الناس له حتى قال: «قاتلكم الله لقد ملائم قلبي قيحاً وشحتتم صدري غيظاً وجرعتموني نغب التهام أنفاساً»^(١) وكما هو الحال في معاناة الحسين عليه السلام المستضعف الغريب، وقد ورد في زيارته «السَّلامُ عليك يا غريب الغُرباء» وهذا ينم عن مدى إحساسهم بالمعاناة القاسية من خذلان الناس لهم.

وكذلك المرارة التي يذكرها الإمام الرضا عليه السلام:

وقبرٌ بطوس يا لها من مُصيبة ألحت على الأحشاء بالزفرات
إلى الحشر حتى يبعث الله قائماً يفرج عنا الهم والكربات

أي أن المرارة باقية في قلبه صلوات الله عليه إلى يوم الحشر. وما هي مرارة المعصوم عليه السلام في عالم البرزخ وما هو معناها، فهذا علمه عند الله وكذلك معاناة النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام إذا عرضت عليهم سيئات الأمة.

وعلى كل فإن الجوع والعطش وحسد الحساد تتألم منه نفس المعصوم الجزئية.

ويشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾^(٢). والفرح يتضمن الأذية، والأذية تارة في الجوع

(١) نهج البلاغة: خ ٢٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٠.

٣٠..... الإمامة الإلهية- قواعد في العصمة

وأخرى في العطش والجروح وَعَيْرِهَا، والجوع والعطش لَيْسَ معناه فراغ البطن مِنْ الطعام بَلْ الجوع هُوَ وخزُّ رُوحِي ومرارة روحية مرتبطة بالبدن؛ ولذا نسب الإطعام والشفاء إلى الله تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ﴿١﴾ فَإِطْعَامَ اللَّهِ لَيْسَ هُوَ هذا الغذاء المادي مِنْ الطعام، بَلْ هُوَ رفع لتلك المرارة الروحية. فإدراك الشبع هُوَ إدراك للروح.

كَمَا أَنَّ لِلنَّفْسِ الجزئية إدراكاً ولذا ثبت لها المعاد والبرزخ بَلْ وللنبات إدراك كما في شهادة الشجرة لرسالة رسول الله ﷺ (١).

والمحصل أَنَّ رُوحَ المعصوم ونفسه الجزئيتين تتألمان وتؤذيان وتكابدان وتصارعان من قبل الشيطان كما تكابد الأعداء وتصارعهم.

كيفية عمل غرائز المعصوم وحدودها

لا إشكال أن للمعصوم غرائزاً وهذا يمثل الجنبه البشرية في المعصوم ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾^(١) وَمِنْ الْمَوَاضِعِ الَّتِي طَرَحَ فِيهَا الْقُرْآنُ هَذَا الْبَحْثَ هِيَ قِصَّةُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهَلْ ثَارَتْ الْغَرِيزَةُ عِنْدَهُ أَمْ لَا؟ وَالْجَوَابُ أَنَّ امْتِلَاكَ يَوْسُفَ لِلْغَرِيزَةِ وَتَحَرُّكَهَا عِنْدَهُ إِنْ كَانَ بِمَعْنَى أَنَّهَا ثَارَتْ عِنْدَهُ وَلَكِنْ كَابِحَهَا بِشِدَّةٍ فَهَذَا لَا يَنَافِي الْعِصْمَةَ، أَمَّا ثَوْرَانُ الْغَرِيزَةِ وَهِيَجَانُهَا عِنْدَهُ بِمَعْنَى اسْتِرْسَالِهِ مَعَهَا وَالِاسْتِغْرَاقَ فِي التَّشْهِي وَالْإِنْقِيَادَ فَهَذَا أَمْرٌ يَنَافِي الْعِصْمَةَ، نَعَمْ لَهُ غَرِيزَةٌ فِي الْحَلَالِ يَتَلَذَّذُ مِنْ خِلَالِهَا بِالطَّيِّبَاتِ، وَهَذَا مِمَّا تَقْتَضِيهِ الْجَنْبَةُ الْبَشَرِيَّةُ فِيهِ.

بَلْ حَتَّى الْغَرِيزَةُ فِي الْحَلَالِ عِنْدَهُ مَعْصُومَةٌ مِنْ كُلِّ مَا يَخْتَلِجُ سَائِرَ غَرَائِزِ النَّاسِ مِنْ تَلَذُّذِ ظَلْمَانِي أَوْ شَيْطَانِي بَلْ تَلَذُّذُهُ نَوْرَانِي مِنْ جِنْسِ التَّلَذُّذِ فِي الْجَنَّةِ؛ وَلِذَا وَرَدَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا يَشْرَحُ فِيهِ كَيْفِيَّةَ عَمَلِ الْغَرَائِزِ لَدَى الْمَعْصُومِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «إِنَّ أَوْلَى الْأَبْوَابِ الَّذِينَ عَمَلُوا بِالْفِكْرَةِ حَتَّى وَرَثُوا مِنْهُ حُبَّ اللَّهِ، فَإِنَّ حُبَّ اللَّهِ إِذَا وَرَثَهُ الْقَلْبُ اسْتِضَاءً

(١) سورة الكهف: الآية ١١٠.

٣٢..... الإمامة الإلهية - قواعد في العصمة
به وأسرع إليه اللطف، فإذا نزل منزلاً، صار مِنْ أهل الفوائد فإذا صار
مِنْ أهل الفوائد تكلم بالحكمة، فإذا تكلم بالحكمة صار صاحب
فطنة، فإذا نزل منزلة الفطنة عمل في القدرة فإذا عمل به ما في القدرة
عرف الأطباق السبعة فإذا بلغ هذه المنزلة جعل شهوته ومحبه في
خالقه»^(١).

وموضع الشاهد أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عمل بالقدرة وجعل شهوته ومحبه في
خالقه. ومفاده أَنَّ تلذذ المعصوم بالغرائز تلذذ نوراني مثل تلذذ أهل
الجنة لا يشوبه ظلمة ولا غريزة شيطانية.

المعصوم لا يلقي نفسه في معرض الإثارة:

روي عن طرق العامة «أَنَّ وفداً قدموا عَلَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيهم
غلام حسن الوجه، فأجلسه مِنْ ورائه وَكَانَ ذَلِكَ بمرأى مِنْ
الحاضرين»^(٢) قَالَ الشهيد الثَّانِي فِي المسالك: إِنَّ إجلاسَه وراءَه تنزهاً
مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وتعففاً.^(٣)

وهذا لا يعني عدم العصمة لأنَّ معنى العصمة كَيْسَ أَن يوقع
نفسه فِي معرض إثارة المعصية. كَمَا عرَّفَت التقوى بعدم إيقاع المتقي
نفسه فِي معرض المعصية.

(١) كفاية الأثر للخزّاز القمي ص ٢٥٧؛ ومختصر البصائر: ص ١٢٤.

(٢) تلخيص الجبير: ج ٣ ص ١٤٨ ح ١٤٨٧.

(٣) المسالك: ج ٧ ص ٤٥.

وهذا ما نجده في قصة يوسف عليه السلام، فيوسف عليه السلام لم يكن مقبلاً على السوء وإنما أقبلت زليخا وصويحباتها بالسوء عليه، كما يستفاد ذلك من قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾^(٢) ففرق في التعبير بين (نصرفه) وبين (نصرف عنه) فالأول هو المقبل والثاني غير مقبل بل مقبل عليه. ومن ثمَّ عبرت الآية بـ (نصرف عنه) لا (نصرفه) فمع أن يوسف غير مقبل يسأل من الله تعالى أن يصرف عنه السوء.

أما قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رءَا بُرْهَنَ رَبِّهِ ﴾^(٣) فالمراد همهم بقتلها والآية عبرت بحرف (لو) وهو حرف امتناع لوجود أي لم يقع الهم بالقتل لعصمته، بخلاف ما لو عبر بـ (إذ) أو (أن) فهو عليه السلام لم يكن له هم إلا بقتلها كما ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام ولكنه مع ذلك لم يهم بالقتل لعصمته لما أراد منعها وإن كان سبب الهم بالقتل موجوداً. فامتناع الهم مستفاد من حرف (لو) الذي هو حرف امتناع لامتناع نظير قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ والحال أن الآلهة غير الله تعالى ممتنعة.

(١) سورة يوسف: الآية ٣٣.

(٢) سورة يوسف: الآية ٢٤.

(٣) سورة يوسف: الآية ٢٤.

وبذا يتحصّل جواب السؤال عَنْ شُؤُونِ الْمُعْصُومِ وَعَنْ إِمْكَانِيَةِ سَيْطَرَةِ الشَّيْطَانِ أَوْ إِبْلِيسَ أَوْ السَّحْرِ عَلَيْهِ بَدَنًا وَنَفْسًا وَعَقْلًا وَرُوحًا، وَهُنَاكَ جَوَابٌ آخِرٌ يَأْتِي فِي الْقَاعِدَةِ اللاحقة.

ملخص القاعدة الأولى

والخلاصة أَنَّ عَصْمَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ قَلْبًا وَعَقْلًا أَشَدَّ مِنْ عَصْمَتِهِمْ فِي الْمَرَاتِبِ النَّازِلَةِ، بِمَعْنَى عَدَمِ مَكَابِدَةِ الشَّيْطَانِ لَهُمْ فِي تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ الْوُجُودِيَةِ الْعَالِيَةِ، وَهَذَا مَا قَامَ عَلَيْهِ الْبُرْهَانُ الْعَقْلِيُّ وَالنَّقْلِيُّ.

وَقَدْ ذَكَرُوا فِي الْبَحْثِ الْعَقْلِيَةِ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَسَلَّقُ إِلَى عَالَمِ مَا فَوْقَ الْخَيَالِ أَوْ الْوَهْمِ، فَلَا سُلْطَةَ وَلَا تَصَرَّفَ لَهُ فِي الْعَالَمِ الْعَقْلِيِّ بِاعْتِبَارِ عَدَمِ قَابِلِيَةِ طَبِيعَةِ الْجَنِّ لِلْوُصُولِ إِلَى تِلْكَ الْمَقَامَاتِ، وَعَدَمِ قُدْرَتِهِ عَلَى النَّفُوزِ إِلَى عَالَمِ الْعَقْلِ وَعَالَمِ الرُّوحِ، فَهُمْ بِطَبِيعَتِهِمْ وَجُودَاتِهِمْ فِي عَالَمِ الْخَيَالِ وَالْمَثَالِ، وَأَمَّا الْعَالَمُ الْفَوْقِيُّ فَهُمْ مَعزُولُونَ عَنْهُ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعزُولُونَ﴾^(١).

بَلْ كَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ مِنَ الْعَالَمِ النُّورِيِّ وَالْعَالَمِ الْعَقْلِيِّ أَوْ فِيمَا بَيْنَهُمْ مِنَ الطَّبَقَاتِ، فَجِبْرَائِيلُ عِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى مَكَانٍ وَمَقَامٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمِعْرَاجِ قَالَ: لَوْ تَقَدَّمْتَ أَنْمَلَةَ لَأَحْتَرَقْتَ، وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ عَالَمَ الْأَنْوَارِ فِيهِ حُجُبٌ عَازِلَةٌ مَحْدَدَةٌ، وَكُلُّ لَهُ مَرْتَبَةٌ

خاصة به وجودية لا يستطيع أن يصعد منها إلى الأخرى. ومَرَّ بنا خبر ما رآه رسول الله ﷺ مِنْ أَنَّ القردة تنزو على منبره الشريف، وهذه الرؤيا لم يعلم بها ولم يطلع عليها حتى جبرائيل حتى جاءه الخبر من الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ (١).

ونظير ما تقدّم ذكره من أن كلام الله تعالى لموسى عليه السلام كان فوق إحساس الكروبيين فضلاً عن دونهم من أصناف الملائكة. وبالتالي فالموجودات والكائنات على درجات وكل طبقة من الموجودات لا تستطيع أن تصعد فوق إمكانيتها فيعزلون من هذه الجهة حتى عن بعض درجات وأنواع الوحي النبوي، فبعض ما يطلع عليه سيد الأنبياء ﷺ لا يطلع عليه أولوا العزم من الرسل ولو كان موسى عليه السلام أو عيسى عليه السلام حين لما اطلعوا عليه ولما وسعها إلا اتباعه ﷺ، وفي رواية أن عمر أتى رسول الله ﷺ فقال «أنا نسمع أحاديث من اليهود تعجبنا فترى أن نكتب بعضها؟، فقالك أمتهون كما تهوكت اليهود والنصارى لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي» (٢).

(١) سورة الأسراء: الآية ٦٠.

(٢) الدعوات للقطب الراوندي: ب ٣ ص ١٧٠؛ الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص ٣٥٥ معاني الأخبار، ص ٢٨٢. و (الأهوك) الأحمق و (رجل هوك ومتهوك) متحير و (التهوك) السقوط في هوة الردى، راجع لسان العرب ج ١٠ ص ٥٠٨.

فمواجهة الشيطان أو الجن أو إبليس للمعصوم عليه السلام هي فيما دون قلبه وعقله، وأمّا قلبه وعقله فلا يمكن لإبليس ولا شيطان أن يواجهها أو يقترب منها فضلاً عن أن يتسلط عليها. فمكابدة المعصوم للشيطان إنما هي في نفسه الجزئية وخياله ولا ينافي ذلك العصمة ولا يعني ذلك تغلب الشيطان، بل حال ذلك حال الجراح التي يصاب بها المعصوم في بدنه في مرض أو حرب كما في شأن نبي الله أيوب عليه السلام ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ نُصْبًا وَعَذَابٍ﴾^(١) وفي قصة نبي الله موسى عليه السلام ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾^(٢) والعصمة في هذه الدرجات موجودة أيضاً بتسديد الله تعالى، بخلاف غير المعصوم الذي لا يعدّ خياله مصوناً ومحماً عن تصرفات الشيطان، فإذا كان المعصوم يكابد الشيطان في خياله - وإن اعتصم بالله تعالى وعصمه الله - فكيف بغير المعصوم وكيف يمكن لأحد من غير المعصومين أن يزعم أنه في حصن حصين في خياله ولا يدخله الشيطان، وإذا واجه إبليس كيف يسدد ويعتصم وما هو الضمان، فالمتوهم بهذا الوهم في غفلة عميقة.

(١) سورة ص: الآية ٤١.

(٢) سورة طه: الآية ٦٦ - ٦٨.

القاعدة الثانية:

أنهم عليهم السلام ذوو أرواح عديدة متنوعة

وهي ذات شؤون مختلفة الحكم

والسؤال المطروح هل العجز والفتور والكلل والملل يطرأ على روح المعصوم عليه السلام.

والجواب: فيما يروى في الكافي عن الفضل بن عمر عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمْسَةَ أَرْوَاحٍ» فذكر عليه السلام روح الحياة وروح القوة وروح الشهوة وروح الإيمان وروح القدس وذكر خواص كل منها ثم قال عليه السلام: «فَإِذَا قَبِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَلَّهُ انْتَقَلَ رُوحُ الْقُدُسِ فَصَارَ إِلَى الْإِمَامِ وَرُوحُ الْقُدُسِ لَا يَنَامُ وَلَا يَغْفَلُ وَلَا يَلْهُو وَلَا يَزْهُو وَالْأَرْبَعَةُ الْأَرْوَاحُ تَنَامُ وَتَغْفَلُ وَتَزْهُو وَتَلْهُو وَرُوحُ الْقُدُسِ كَانَ يَرَى بِهِ»^(١).

(١) الكافي: ج ١ ص ٢٧٢ باب ذكر الأرواح في الأئمة عليهم السلام ح ٣ ورواه في بصائر الدرجات ص ٤٧٤ وفي مختصر البصائر لحسن بن سليمان الحلي ص ٢.

وهذا الحديث يُبين الأرواح المودعة في المعصوم عليه السلام وأنها روح القدس وروح الإيمان وروح الشهوة وروح القوة وروح الحياة وأنَّ ما عدا روح القدس يصيبها السأم والكلل والملل والفتور والنوم.

وهُنَاكَ تعابير أخرى عَنْ روح القدس وأنها أعلى الأرواح وأعظم الأرواح وأنَّ روحاً بل طبقات من الأرواح أعلى مِنْ روح القدس بل أعلى من العرش موجودة في المعصوم^(١)، كما فيما روي عَنْ الإمام العسكري عليه السلام: «إِنَّ روحَ القُدُسِ في جنان الصاغورة ذاق مِنْ حدائقنا الباكورة»^(٢) فروح القدس شعبة نازلة مِنْ شعب روحهم، وليس روح القدس هو السقف الأعلى لطبقات أرواحهم.

وهذه الأرواح والقوى الموجودة في المعصوم تختلف بعضها عَنْ بَعْضٍ في قدراتها وأحكامها وشؤونها ونستفيد مِنْ هذه القاعدة البيانية العظيمة المُستفادة مِنْ كلامهم قاعدة عظيمة ومُهمّة جداً تفيد في فهم معضلات شؤون وأحوال المعصوم.

فالذي يعطش هو النفس النازلة المسماة بالروح الجزئية أو روح القوة لا الروح الكُلية، فما يصيبه العطش والجوع والجزع والملل والفتور وغيرها مِنْ حالات الضعف هي النفس الجزئية، أمَّا العقل والروح الكليان فهما في مقام منيع لا يصيبهما شيء مِنْ ذَلِكَ، فالعقل

(١) تعرضنا لذلك في كتاب الرجعة ج ٣-٤ الباب الثالث.

(٢) البحار: ج ٢٩ ص ٢٦٥.

ملك مُترَبِّعٍ فِي عَرِينِهِ لَا يَصِيْبُهُ جُوعٌ وَلَا عَطْشٌ وَلَا جُزَعٌ وَلَا رَهْبٌ وَلَا تَحْسِرٌ وَلَا غَيْرَهَا مِنْ الْحَالَاتِ الْمَشَابِهَةِ لِذَلِكَ، فَمَعْرِفَةُ أَنَّ الْمَعْصُومَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذُو شَوْوْنٍ وَطَبَقَاتٍ وَأَرْوَاحٍ جَزْئِيَّةٍ وَمَتَوَسِّطَةٍ وَكُلِّيَّةٍ وَفَوْقَ الْكُلِّيَّةِ أَمْرٌ بِالْغِ الْأَهْمِيَّةِ وَتُؤَثِّرُ فِي حَلِّ الْكَثِيرِ مِنَ الْمَعْضَلَاتِ الْعَقَائِدِيَّةِ.

وَشَيْءٌ مِنْ هَذَا التَّعَدُّدِ فِي مَرَاتِبِ الْوُجُودِ مَوْجُودٌ حَتَّى فِي نَفْسِ غَيْرِ الْمَعْصُومِ فِي عَمُومِ الْإِنْسَانِ، غَايَتُهُ لَيْسَ لِبَقِيَّةِ الْأَفْرَادِ غَيْرِ الْمَعْصُومِينَ تِلْكَ الْمَرَاتِبِ الْعَلِيَا مِنْ الْأَرْوَاحِ كَرُوحِ الْقُدُسِ وَمَا فَوْقَهَا لَكِنهَا مُخْتَلِفَةٌ الشَّأْنَ وَلَا يُمْكِنُ تَوْحِيدُهَا عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ بِحَسَبِ الْخُصُوصِيَّاتِ وَالْحَالَاتِ؛ وَلِذَا قَدْ تَرَدَّدَ الْكَثِيرُ مِنَ الْأَسْئَلَةِ النَّاشِئَةِ مِنْ اسْتِغْرَابِ اخْتِلَافِ خُصُوصَاتِ الْأَرْوَاحِ.

تساؤلات حول مراتب وجود المعصوم عليه السلام:

منها: كيف يكون عليٌّ عليه السلام شجاعاً والحال أنه يعلم بعدم قتله؟ فالذي يقتحم الوغى وهو مطمئن بأنه لا يقتل ليس شجاعاً.

والجواب: إنَّ عِلْمَ النَّفْسِ شَيْءٌ وَعِلْمَ الْعَقْلِ وَالنُّورِ شَيْءٌ آخَرٌ، فَمِنْ ثَمَّ إِنَّ النَّفْسَ لَا يَهْدُأُ لَهَا قَرَارٌ مَعَ عِلْمِ الْعَقْلِ بِالسَّلَامَةِ فَالنَّفْسُ الْجَزْئِيَّةُ تَصِيحٌ وَتَهْيِجٌ وَتَثَارٌ مِنْ أَيِّ إِثَارَةٍ بِخِلَافِ الْعَقْلِ.

وهذا ما يشير إليه الإمام الصادق عليه السلام في قصة ضلال بني إسرائيل بعبادة العجل، فحينما أخبر الله تعالى موسى بأن قومه قد ضلوا لم يثر

٤٠..... الإمامة الإلهية - قواعد في العصمة

قلبه وروحه وعقله، ولكن حينما رآهم بأَمِّ عينه ثارت نفسه الجزئية وغضبت لله تَعَالَى.

فعبّر عليه السلام عَنْ هذه الحالة «وللرؤية فضل على الخبر»^(١) نظير قول أمير المؤمنين عليه السلام «ليس العيان كالخبر»^(٢) فمعانية الشيء غَيْر بيانه ومثاله ما لو صوّرت منظرا خلافاً ذا جمال فائق لشخص بالكلام فيحصل لديه تصوّر عقلي له، ولكن إِذَا رآه عياناً في الخارج فالتأثير سيختلف جداً.

وَمَنْ وصفت لَهُ الحرب نظرياً وَأَنَّهُ حصل فيها كذا وكذا لَيْسَ كَمَنْ خاض عابها وانكوى بنيرانها، وَذَلِكَ لاختلاف شؤون مراتب الإنسان، فالمرتبة التي تتفاعل مَعَ الجزئيات هِيَ النفس الجزئية، نعم ويمكن لهذه المراتب النازلة المتفاعلة بالجزئيات أَنْ تنضبط بالملكات العليا.

وكَذَلِكَ الحال والشأن بالنسبة إلى المعصوم مع تفاوت كبير، فَإِنَّ ترويض نفسه ليس كغيرها مِنْ بَقِيَّةِ النفوس.

فالشجاعة ليست وصفاً للعقل بَلْ للنفس النازلة وأوصاف الفضائل والرذائل مختلفة باختلاف الموصوف في الإنسان فَلَيْسَ الوصف واحداً ولا الموصوف واحد، فَهُنَاكَ تفكيك في هذه الشؤون والمراتب وَهذه الجهات وَهذه الأوصاف والتفكيك بينها بالغ في الأهمية.

(١) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٩ ح ٧٩.

(٢) غرر الحكم: ص ٢٥٧ في حرف اللام بلفظ: ليس.

لا جبر في العصمة ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين:

ومن هنا نعلم بأن اتصال قلب المعصوم وعقله بالوحي، لا يرفع المعاناة والمكابدة التي يمتحن بها غرائزه النازلة وتكابده نفسه الجزئية نظير الجوع والألم والجراح التي تصيب بدنه الشريف وغير ذلك مما يعترى البدن، وَمِنْ هُنَا نَسْتَفِيدُ مِنْ قَاعِدَةِ مُهِمَّةٍ وَهِيَ أَنَّ الْعَصْمَةَ لَيْسَتْ جَبْرًا وَلَا تَفْوِيضًا بَلْ هِيَ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ وَبِالتَّالِيِ يَمْتَحِنُ الْمَعْصُومُ بِأَنْوَاعِ الْبَلَاءِ.

كيفية الجمع بين الجهة الملكوتية والبشرية في المعصوم:

نتيجة لعدم التفكيك وصعوبة الجمع بين هذه الصفات والجهات تحصل اعتراضات عديدة.

منها: أَنَّ النَّبِيَّ إِذَا كَانَ عَقْلًا وَنُورًا فَكَيْفَ يَجُوعُ ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾^(١) فَإِنَّهُمْ إِذَا لَاحَظُوا الْجِهَةَ النُّورِيَّةَ قَالُوا إِذَا كَانَ نُورًا وَمَلَكًَا فَكَيْفَ يَتَّصِفُ بِصِفَاتِ الْبَشَرِ، وَإِذَا لَاحَظُوا الْجِهَةَ الْبَشَرِيَّةَ قَالُوا ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾^(٢) فَكَيْفَ لِبَشَرٍ أَنْ يَرْتَبِطَ بِعَالَمِ الْمَلَكُوتِ مَعَ مَا لَهُ مِنَ الْجِهَةِ الْبَشَرِيَّةِ الطَّيْنِيَّةِ فَالْجَمْعُ بَيْنَ الْجِهَتَيْنِ يَشْكَلُ تَصَوُّرَهُ عَلَى الْكَثِيرِ.

(١) سورة الفرقان: الآية ٧.

(٢) سورة التغابن: الآية ٦.

ومنها: ما يتوهمه المشركون من اعتراض على نبوة النبي ﷺ من أنه لا بد أن يكون جباراً ذا سلطان كما تشير إليه الآية ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرَبَاتِ عَظِيمٍ﴾^(١).

ومنها: إنَّ البشر مع ما له من بدن طيني وإن كان ذا درجة عظيمة ولكن لا قدرة له على الارتباط بالملا الأعلى، بل الذي يرتبط بالملا الأعلى هو ملك ومن جنس الملائكة لا البشر ولذا حكى عنهم القرآن ﴿أَبَشْرٌ يَهْدُونَنَا﴾^(٢) ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾^(٣) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾^(٤) أي أن الذي له قابلية الارتباط بالملكوت هو الملك لا البشر فأجابهم الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾^(٥).

وقد استفاد المجلسي من الآية أن للنبي ﷺ جهة ملكوتية وملكية ولبس بلباس بشري كالذي ورد في الزهراء عليها السلام من أنها حوراء أنسية تجمع الجنبتين ويشير إلى ضرورة الجنبتين قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانِ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُوكُكُمْ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾^(٦) وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا

(١) سورة الزخرف: الآية ٣١.

(٢) سورة الثقلين: الآية ٦.

(٣) سورة هود: الآية ١٢.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٨.

(٥) سورة الأنعام: الآية ٩.

(٦) سورة الأسراء: الآية ٩٥.

أنهم عليهم السلام ذوو أرواح عديدة متنوعة..... ٤٣
 بِلسَانِ قَوْمِهِ ﴿١﴾ فالارتباط بين الرسول والأمة التي أرسل إليها لا
 يَتِمُّ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنْ جِنْسِهِمْ، سيما إذا لاحظنا الغاية من إرساله وهي أن
 يكون قدوة وأسوة ونموذجاً رائداً لهم، فالذي يفتح للبشر طريق
 التكامل والترقي والخروج من حبس درجاتهم النازلة إلى الدرجات
 العالية هو المعصوم الذي كَانَ مِنْ جِنْسِهِمْ وفيه الجنبه البشرية التي
 فيهم، نعم يجب أن لا تقتصر في هذه الجنبه والجنبه وتتناسى الجنبه
 الملكوتية فيه، كما قد يقع فيه البعض فيقتصر في الجنبه البشرية ويتغافل
 عن الجنبه الملكوتية في المعصوم ويقتصر في ترتيب الآثار عليها وهذا
 غير سديد بعكس البعض الذين لا ينظرون من المعصوم إلا إلى الجنبه
 الملكوتية ويسلب ما للمعصوم من الجنبه البشرية، وإنما الصحيح لحاظ
 كلتا الجهتين والجنبتين.

بل للمعصوم جهات وجنبات ومراتب عديدة ولكل منها آثار
 وأوصاف وشؤون خاصة. والتعبير بالجنبتين فيه شيء كثير من الاختزال.

وعدم لحاظ هذه الجهات والمراتب المختلفة يسبب الاستغراب
 لمن يلاحظ الحالات المختلفة للمعصوم وهذا ما قد يقع حتى لجملة
 من أهل اليقين عندما يشاهدون بعض حالات المعصوم ويركزون على
 الجنبه الملكوتية دون البشرية، مثل ما ورد عن استغراب مريم عليها السلام من
 بعض حالات عيسى عليه السلام ففي قصص الأنبياء للراوندي، «في رواية

إسماعيل بن جابر قَالَ أبو عبدالله عليه السلام أَنَّ عيسى بن مريم عليه السلام كَانَ يبكي بكاءً شديداً فلما أُعيت مريم عليها السلام كثرة بكائه قَالَ لها خذي مِنْ لِحَا هَذِهِ الشجرة فاجعلي وجورا ثمَّ اسقنيه، فإذا سقي بكى بكاءً شديداً فتقول مريم عليها السلام ماذا امرتني؟ فيقول: أيا أماء علم النبوة وضعف الصبا»^(١).

فاستغراب مريم عليها السلام مِنْ بكاء عيسى عليه السلام مِنْ مرارة الدواء ناشيء عَنْ عدم التفاتها إلى الجنبتين فيه عليه السلام فأجابها بأن أمره بالدواء عَنْ علم النبوة وبكائه مِنْ ضعف الصبا، هَذَا والحال أَنَّهَا صَدِيقَةٌ وَحِجَّةٌ مصطفىة عَلَى الجميع، ولكن يبقى مقامها دون مقام ابنها فيقع منها الاستغراب حينما تركز عَلَى الجنبة الملكوتية.

فالجمع بين الجهات المتعددة أمر بالغ الأهمية فِي معرفة المعصوم وإذا التفتنا إلى أَنَّ المعصوم لَهُ جهات وَهِيَ عَلَى طبقات ومراتب مختلفة الشؤون والآثار سنعى التفكيك بينها وَأَنَّ قلب المعصوم وروحه لا يقرب منها إبليس وجنوده فضلا عن قدرته على المشاغبة.

الجواب عن ما يوهم منافاة العصمة:

تقدّمت بَعْضُ الموارد الَّتِي يتوهم منها منافاة العصمة فمنها قوله تَعَالَى: ﴿يَحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ سَعَى﴾^(٢) وقوله تَعَالَى ﴿أَنِّي مَسْنِي

(١) البحار: ج ١٤ ص ٢٥٤ عن قصص الأنبياء ص ٢٦٩، الباب ١٨ في نبوة عيسى.

(٢) سورة طه: الآية ٦٦.

٤٥ أنهم عليهم السلام ذوو أرواح عديدة متنوعة.....
الشَّيْطَانُ يُنْصَبُ وَعَذَابٌ ﴿١﴾ مما يَدُلُّ عَلَى تعذيب الشيطان لنبي الله
أيوب عليه السلام.

وقوله تَعَالَى فِي قصة يوسف ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي
إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ ﴿٢﴾.

والمورد الرَّابِع ما تَقَدَّمَ مِنْ رواية تصوير الشيطان مناماً للزهراء عليها السلام.
وهذه الرواية وإن اشتملت على مواطن كثيرة للتساؤل، ولكن سيأتي
عدم منافاتها للعصمة بتأييد المعصوم في مرتبة نفسه النازلة بمعصوم
آخر كما يعتصم هو بمراتبه العليا، ومحل الشاهد فيها نظير ما في شأن
موسى ﴿يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا تُسْعَى﴾ غايته أَنَّ المعصوم يعصمه الله
تَعَالَى مما يخيله الشيطان.

والمورد الخامس: ما تَقَدَّمَ مِنْ رواية مرض النَّبِيِّ ﷺ بسحر بعض
أهل الكتاب.

والجواب: هو بالتفريق بين مراتب وجود المعصوم النازلة والعالية
كما يتحصّل ذَلِكَ بالأدلة البرهانية العقلية، والأدلة النقلية كالأيات
التي تقدّمت، فعقله وروحه مُصون تمام الصّون عَنْ أَنْ يقترب إليه
إبليس والشياطين كما يشير إلى ذَلِكَ قوله تَعَالَى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ

(١) سورة ص: الآية ٤١.

(٢) سورة يوسف: الآية ٣٣.

وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُونَ ﴿١﴾ .

أما بدن المعصوم ونفسه النازلة فتشاغب من قبل إبليس وجنوده حاله حال الجروح والضربات والآلام التي يصاب بها جسد المعصوم فتألم وتؤذى بذلك نفسه الجزئية وليس هذا منافياً للعصمة.

فبدن المعصوم ونفسه الجزئية وما فيها من القوى النازلة يمكن أن تشاغب من قبل إبليس، وتكابذ أذاه ومصارعته كما في قوله تعالى ﴿أَفِي مَسْنَى الشَّيْطَانِ يُنْصَبِ وَعَذَابٍ﴾ و قوله تعالى ﴿يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسَعَى﴾ وما ورد في الرواية مما أصاب بدن أيوب من القرع والقيح حتى أن قومه تركوه وأخرجوه من المدينة.

فهذه المكايدة لا تخرجه من العصمة، نعم درجة القلب والنور أعظم من هذه الدرجات النازلة ومصونة تمام الصون عن أن يقترب إليها إبليس.

والخلاصة: «إن نفس المعصوم تكابد وتكابذ الشيطان من دون أن يخرجها ذلك عن العصمة».

تتمة القاعدة الأولى:

إن عقل المعصوم وقلبه في امتناع تام عن أن يصل إليهما الشيطان أو أن يقترب إليهما ولو على نحو المشاغبة والمصارعة والمكابدة.

أنهم عليهم السلام ذوو أرواح عديدة متنوعة..... ٤٧

وَهَذَا الْإِمْتِنَاعُ فِي الْعَقْلِ غَيْرٌ مُخْتَصٌّ بِالْمَعْصُومِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَلْ حَتَّى فِي الْإِنْسَانِ الْعَادِيِّ فَهُوَ فِي مَرْتَبَةِ عَقْلِهِ مَعْصُومٌ عَنِ تَسَلُّطِ الشَّيْطَانِ، وَهَذَا بِالطَّبَعِ مُخْتَصِّ بِمَنْ لَهُ عَقْلٌ، أَمَّا مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ فَلَهُ شَأْنٌ آخَرٌ.

فَمَا دَامَ هَذَا الْإِنْسَانُ مُرْتَبِطاً بِمَرْتَبَةِ عَقْلِهِ بِأَنْ تَنَامِيَ وَصَعِدَ إِلَى مَرْتَبَةِ الْعَقْلِ وَالرُّوحِ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُطِيرَ إِلَيْهِ وَالْحَالُ هَذِهِ فَطَبَقَاتُ وَجُودِ الْإِنْسَانِ أَفْضَلُ مِنْ طَبَقَاتِ وَجُودِ الْجِنِّ وَالْأَبَالِسَةِ؛ وَلِذَا فَإِنَّ جَنَّةَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَنْسِ أَعْلَى مِنْ جَنَّةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْجِنِّ، نَعَمْ تَدْخُلُ أَرْبَعٌ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْجَنَّةَ وَلَكِنْ كَحَيَوَانَاتِ لَا كَجِنِّ (وَهِيَ نَاقَةٌ صَالِحٌ وَكَلْبٌ أَصْحَابُ الْكَهْفِ وَكَبْشٌ إِسْمَاعِيلِ وَالذَّنْبُ الَّذِي ذُبِحَ مِنْ أَجْلِ يَوْسُفَ) فَإِذَا بَقِيَ هَذَا الْإِنْسَانُ مُرْتَبِطاً بِذَلِكَ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ فَلَا سَبِيلَ لِلشَّيَاطِينِ إِلَيْهِ، أَمَّا بِمَجْرَدِ نَزْوِلِهِ وَهَبُوطِهِ فَأَقْلَ مَا يَكُونُ أَنْ تُحْتَوِشَهُ الْأَبَالِسَةُ وَالشَّيَاطِينُ.

أما الفرق بين نفس المعصوم وغير المعصوم:

فَأَوَّلًا: إِنَّ نَفْسَ الْمَعْصُومِ دَائِمًا مُرْتَبِطَةٌ وَصَاعِدَةٌ إِلَى الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ بِخِلَافِ غَيْرِ الْمَعْصُومِ فَإِنَّهَا تَنْزِلُ وَتَصْعَدُ وَتُرْتَبِطُ وَتَنْفَصِلُ، وَإِذَا هَبَطَتْ وَتَدَانَتْ اِحْتَوَشَتْهَا الشَّيَاطِينُ، وَإِذَا رَقَّتْ وَتَنَامَتْ فَلَا تَتَسَلَطُ عَلَيْهَا.

ثَانِيًا: إِنَّ عَقْلَ الْمَعْصُومِ مُنْفَتِحٌ عَلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى اللَّامِتْنَاهِي مِنْ خِلَالِ قَنَوَاتٍ غَيْبِيَّةٍ بِخِلَافِ غَيْرِ الْمَعْصُومِ فَإِنَّ ارْتِبَاطَهُ بِذَلِكَ مَحْدُودٌ

وضيق جداً ولا يُقاس بارتباط المعصوم حتى بقياس القطرة إلى المحيطات.

وَقَدْ مَرَّ أَنَّ الدرجات النازلة مِنَ المعصومِ مِنَ الحسِّ المشتركِ والبدنِ وقدرَةِ الخيالِ والواهمة تكابد وتواجه الآلام، ومكابدة الشيطان لا تعني سيطرة الشيطان فجرح المعصوم في بدنه وإيذاؤه في نفسه وتجرحه للغصص لا تخالف العصمة وكان رسول الله ﷺ يُسبُّ ويهجو ويؤذي حتى قَالَ: «ما أُوذي نبي بمثل ما أُوذيت» ولكن لم ولن يخرج ذلك إلى المعصية وإلى عدم التوازن.

فاعتصام وامتناع القوى العليا للمعصوم لا تمنع عن المكابدة في القوى النازلة، وروي أَنَّ الشيطان تمثّل لزين العابدين عليه السلام في صورة ثعبان وهو في محراب صلواته فأراد أن يشاغبه ويلهيه عن الصلاة فلم يلتفت عليه السلام فجاء إلى إبهام رجله فالتقمها، فلم يلتفت إليه فآله فلم يقطع صلواته... فسمع صوت لا يرى قائله وهو يقول: أنت زين العابدين ثلاثاً^(١).

فهناك فرق في المعاناة والمكابدة بين النفوس النازلة وبين النفوس الصاعدة.

الطهارة الذاتية والطهارة العرضية في المراتب النازلة:

إِنَّ الْمُسْتَفَادَ مِنْ عِدَّةٍ مِنَ النصوصِ القرآنية والروائية أَنَّ المعصومَ لَيْسَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ عَلَى المعاصي بَلْ المعاصي والأدران هِيَ الَّتِي تَحَاوِلُ

أنهم عليهم السلام ذوو أرواح عديدة متنوعة..... ٤٩
أن تقبل عليه فيصرفها الله عن أوليائه.

كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ ﴿١﴾
يَقُلُ أَنْ لَمْ تَصْرِفْنِي، بَلْ قَالَ ﴿تَصْرِفْ عَنِّي﴾ ﴿٢﴾ وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِنَّمَا
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ﴿٣﴾
فَلَوْ قَالَ يَرِيدُ أَنْ يَذْهِبَكُمْ عَنِ الرِّجْسِ لِلزَّمِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - أَنْ يَكُونَ
فِيهِمْ اقْتِضَاءُ النِّجَاسَةِ وَاللَّهُ يَذْهِبُهُ عَنْهُمْ وَالْحَالُ أَنَّ مَفَادَ الْآيَةِ أَنْ يَمْنَعُ
الرِّجْسَ مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِمْ، فَالرِّجْسُ لَا يَوْجَدُ فِي طَيْبَتِكُمْ أَبَدًا وَلَكِنْ
لأَبَدٍ مِنْ أَنْ نَمُدَّكُمْ بِعَصْمَةٍ زَائِدَةٍ لِكَيْ لَا تَتَلَوَّثَ هَذِهِ الطَّهَارَةُ الذَّاتِيَّةُ
بِنِجَاسَةٍ عَرَضِيَّةٍ.

وَنظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُهُ «وَلَمْ تَنْجَسْكَ الْجَاهِلِيَّةُ بِأَنْجَاسِهَا وَلَمْ تَلْبَسْكَ مِنْ
مُدْهَمَاتِ ثِيَابِهَا» فَالنِّجَاسَةُ هِيَ مُقْبَلَةٌ لَا أَنْتُمْ مُقْبَلُونَ عَلَيْهَا.

وَنظِيرُ قَوْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ «وَالثَّابِتُ الْقَدَمُ
عَلَى زِحَالِهَا فِي الزَّمَنِ الْأَوَّلِ» فَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَغِمَ كُلُّ تَلْكِ الْبَيْتَةِ
الْفَاسِدَةِ لِقَرِيشٍ، وَمَا تَضَمَّتْهُ مِنْ مَزَالِقٍ مَهْوُولَةٍ وَزِحَلَاتٍ عَجِيبَةٍ بَقِيَ
ثَابِتُ الْقَدَمِ، وَهَذِهِ هِيَ بِوَحْدِهَا مَعْجَزَةٌ عَظِيمَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا
اِحْتَجَّ بِهَا عَلَى الْمُشْرِكِينَ: «فَهَلْ جَرَبْتُمْ عَلِيًّا مُنْذُ نَشَأَتْ إِلَى أَنْ اسْتَكْمَلْتُمْ
أَرْبَعِينَ سَنَةً خَزِيَّةً أَوْ زَلَّةً أَوْ كَذِبَةً أَوْ خِيَانَةً أَوْ خَطَأً مِنَ الْقَوْلِ أَوْ سَفَهًا

(١) سورة يوسف: الآية ٣٣.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

٥٠..... الإمامة الإلهية - قواعد في العصمة

من الرأي، أظنون أن رجلاً يعتصم طول هذه المدة بحول نفسه وقوتها أو بحول الله وقوته»^(١).

وهذا يدل على وجود مدد من الله تعالى في العصمة في مرتبة القوى النازلة. ويدل قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أن هذه النفوس الطاهرة المعصومة في رتبة هذه القوى النازلة إن لم تمد من الأعلى لأقبلت على المدهمات أو الرجس بعد إقبالها عليهم، إلا أن هذا المدد ليس جبرياً، بل باختيار اصطفائي من هذه النفوس الطاهرة، فيكون صرف الرجس عنهم أيضاً باستمداد اختياري من الله تعالى، فيكون معنى ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ إقراراً منهم بكون الفضل من الله تعالى في اعتصامهم وطهارتهم.

فتحصّل أن العصمة لا كسبية ولا جبرية بل فيها جنبتان عصمة ذاتية في أنفسهم وعصمة زائدة بإمداد إلهي لدنية تعصمهم عن التلوّث بالنجاسات الخارجية.

ويتحصّل أيضاً أن عصمتهم في طبقات ذواتهم على مراتب متفاوتة في الشدة والاشتداد. فنورهم وعقولهم وقلوبهم أشد في العصمة درجة من العصمة في أرواحهم ونفوسهم وأبدانهم النازلة وإن كان كل تلك المراتب الدانية منهم متّصفاً أيضاً بالعصمة العامّة.

العصمة في القوى الصاعدة عن مشاغبة القوى النازلة:

تَقَدَّمَ أَنْ قَلْبَ الْمَعْصُومِ وَعَقْلَهُ مَصُونٌ عَنْ أَيِّ تَأْثِيرٍ لِلشَّيْطَانِ وَلَوْ عَلَىٰ نَحْوِ الْمَكَابِدَةِ لَعَدِمَ إِمْكَانِيَّةَ تَطَرُّقِ الشَّيْطَانِ إِلَىٰ تِلْكَ الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ. وَالْمَلْفَتُ لِلنَّظَرِ أَنَّ عَقْلَ الْمَعْصُومِ وَقَلْبَهُ كَيْسَ مَصُونًا عَنْ الْأَبَالِسَةِ وَالشَّيَاطِينِ وَحَسْبُ، بَلْ يَصَانُ عَقْلُهُ وَرُوحُهُ وَقَلْبُهُ عَنْ مَشَاغِبَةِ الْغَرَائِزِ الدَّانِيَةِ أَيْضًا، فَهُنَاكَ عِدَّةٌ ضَمَانَاتٍ وَصِيَانَاتٍ عَنْ تَطَرُّقِ سَبْلِ الْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ إِلَىٰ الْعَقْلِ وَالرُّوحِ وَالْقَلْبِ فَلَا يَطْرَأُ عَلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ تَسْوِيَلَاتِ النَّفْسِ وَلَا مَيُولَاتِهَا وَلَا نَزَعَاتِهَا وَلَا مِنْ اضْطِرَابِ قَوَاهِمِهَا، فَضْلًا عَنْ تَسْوِيَلَاتِ إِبْلِيسَ.

وكذلك هي مصونة عن المشاغبات الامتحانية بل عن ضعف القوى العقلية أو القلبية فضلاً عن اختلالها إذ قد لا تكون في سائر الناس مختلة بل ضعيفة لا تنال الغيب بل ترجم بالغيب.

ولذا وَرَدَ فِي وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ فِي كَيْفِيَّةِ تَلْقِيهِ الْقُرْآنَ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١). فرسول الله ﷺ كَيْسٌ مَتَّخِرٌ صَافٍ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فِي تَلْقِيِ الْوَحْيِ بَلْ مَصُونٌ عَنْ كُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْلُ بِذَلِكَ ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾^(٢).

(١) سورة الحاقة: الآية ٤٠ - ٤٣.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٠٥.

الوحي وأقسامه ووحىانية كل مراتب وجود المعصوم

للوحي أقسام كما يشرح ذلك أمير المؤمنين عليه السلام وكَيْسَ كَمَا يَظُنُّهُ
المفسرون والمتكلمون والفلاسفة أنه على نمط واحد.

فالتأييد وحي، والإلهام وحي، والتسديد وحي، والتربية الإلهية
وحي كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١) والنقر في الأسماع
والقذف في القلوب وحي وقوله تعالى ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا
يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٢).

والسؤال: كيف يكون وجود النبي عليه السلام وشخصه وحيًا كما يعبر
عنه القرآن؟

وللجواب عدة وجوه:

الوجه الأول: قالوا أن نطقه هو تبليغه، ويرد بأن الضمير (هو)
يرجع إلى النبي نفسه ولا يرجع إلى نطقه. ولو تنزلنا وأرجعنا الضمير
إلى النطق بدعواكم فنطق المعصوم ليس هو لسانه بل هي حركات
لسانه ياملأ من القوى الناطقة العقلية وهي متصلة بالعقل الكلي.

(١) سورة القلم: الآية ٤.

(٢) سورة النجم: الآية ٢ - ٤.

الوجه الثاني: النطق يراد به اللسان ويرد بأنه أعم ويراد به التعقل إذ ذبذبة اللسان بدون عقل وتحكم منه لا يعبر عنه بالنطق. فالنطق معناه إبداء الجانب العقلي.

الوجه الثالث: أن يرجع الضمير إلى تمام طبقات ذات النبي ﷺ.

ويراد من الوحي حينئذ تمام أقسام الوحي. فما يظن من أن الوحي هو الصوت والسمع فقط ليس بصحيح بل نفس قالب وهيئة خلقة النبي ﷺ وحي من الله تعالى للمعصوم كما تشير إليه الآية المباركة. والقالب الوحياني يعني جملة أنواع الوحي، التي منها:

- الوحي التأييدي: ﴿وَأَيَّدَنَّهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهذا هو الوحي التأييدي. فشعبة من أشعة روح القدس موجودة في النبي عيسى عليه السلام.

- الوحي الفطري: وهو نفس البديهيات الفطرية الموجودة عند كل البشر، وهذا نمط من الوحي، وهي غير الوحي التأييدي، والوحي التسديدي والوحي الإلهامي والوحي الخُلقي والخُلقي المشار إليه بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ والمشار إليه بالاصطفاء في الخلقة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾. (١)

والاصطفاء في الأرض يعني خلق هذه الصفوة المختارة على قالب طبق مواصفات الوحي، فهذا من نمط من الوحي.

- الوحي الخُلقي: وقوله تَعَالَى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أيضاً يشير إلى نمط من الوحي؛ لأن هذه التربية الإلهية للنبي ﷺ تجسيم وتجسيد وتمثيل للنموذج الوحياني، فهو قالب صبغة الله وما أَرادَه اللهُ تَعَالَى في القالب الإنساني جسده في النبي ﷺ. فالوحي هو الذي يكشف عن الإرادة الإلهية ومن الوحي الكاشف عن ذلك هذا القالب النموذجي الذي يريدُه اللهُ وأوجده فكان مصداقه النبي ﷺ فهو القدوة والأنموذج الأكمل.

فهذه عدّة أقسام للوحي والمشكلة تكمن في عدم فهم هذه الكلمة بما لها من معنى وحقيقة وأقسام كما أشار إليها القرآن الكريم في بيانات أهل البيت عليهم السلام وغفل عنها جملة من مُفسري الخاصة فضلاً عن جملة مفسري العامة.

- ويشير أمير المؤمنين عليه السلام إلى بعض أقسام الوحي بقوله في الخطبة القاصعة «ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن أن كان فطياً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعه أتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاعتداء به»^(١).

- وفي رواية الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام: «إن الله عز وجل أدب نبيه على محبته فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ثم فوض إليه فقال عز

وَجَلَّ ﴿وَمَا ءَانْتُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْهَوْا﴾ ﴿١﴾ وَقَالَ عَزَّ
وَجَلَّ ﴿مَنْ يُطِيعِ الرُّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ ﴿٢﴾ ثُمَّ قَالَ: وَأَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ فَوْضَ
إِلَى عَلِيِّ وَاتَّمَنَّهُ فَسَلَّمْتُمْ وَجَدَّ النَّاسُ فَوَاللَّهِ لَنَحْبِكُمْ أَنْ تَقُولُوا إِذَا قَلْنَا
وَأَنْ تَصْمَتُوا إِذَا صَمْتْنَا وَنَحْنُ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا جَعَلَ اللَّهُ
لأَحَدٍ خَيْرًا فِي خِلَافِ أَمْرِنَا»^(١).

وفي هذين النصين وغيرهما برهان على كون خلقه وخلقه مجسمة
الوحي وتمثال الوحي. وإنَّ قوله ﴿وَمَا ءَانْتُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا
نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْهَوْا﴾ ﴿١﴾ ناشئ من كون النَّبِيِّ ﷺ بكل درجات ومراتب
وجوده قالب الوحي الإلهي فكل ما يريد الله يتمثل فيه؛ ولذا وَرَدَّ عَنْ
الإمام الصادق عليه السلام (وَكَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَلَقَهُ الْقُرْآنُ)^(٢).

- ونظير ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ
أَمْرِنَا﴾ ﴿٣﴾.

فمتن الوحي والمُوحى والطرْد البريدي النازل هو (روح)
والمُوحى هو الله عَزَّ وَجَلَّ والمُوحى إليه هو النَّبِيُّ ﷺ أمَّا الواسطة في
الإيحاء فلم تبينها الآية. وهذا يعني الإيحاء لوحي متنه هو الروح
الأمري وهو عبارة عن خلق روح القدس في أرواحهم ويعبر القرآن

(١) الكافي: ج ١، ص ٢٦٥ باب التفويض الى رسول الله ﷺ وإلى الأئمة عليهم السلام ح ١.

(٢) تنبيه الخواطر: ج ١ ص ٨٩.

(٣) سورة الشورى: الآية ٥٢.

الوحي وأقسامه ووحىانية كل مراتب وجود المعصوم..... ٥٧

عَنْ هَذَا الْغُرُزِ لِلرُّوحِ الْأَمْرِيِّ فِي ذَاتِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْوَحْيِ .

وفي قبال ما ترسمه الآيات مِنْ حَقِيقَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ نلاحظ أَنَّ قريشاً وجملة مِنْ الصحابة وجمهور مذاهب المسلمين يرسمون صورة متدنية عَنْ تلك الحَقِيقَةِ الشَّامِخَةِ لِرُوحِ وَنَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَدْ رَوَى أَهْلُ سَنَةِ الْخِلَافَةِ فِي عِدَّةٍ مِنْ صِحَّاحِهِمْ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ فَهَنْتَنِي قَرِيشٌ، فَقَالُوا إِنَّكَ تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِشَرِّ تَكَلُّمٍ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا فَأَمْسَكَتُ عَنْ الْكِتَابِ .

فذكرت ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَكْتُبُ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنِّي إِلَّا الْحَقُّ»^(١)، والناهي قريش لا المهاجرون فهناك فرز بين المهاجرين وقريش.

- والسبب فِي أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنْ لِسَانِهِ إِلَّا الْحَقُّ هُوَ كَوْنُ قَالِبِهِ الْقَالِبِ الْأَكْمَلِ؛ وَلِذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٢).

والبعض يفسر هذه الآية بِأَنَّ التَّأْسِيَّ خَاصٌّ بِالتَّشْرِيعَاتِ لَا فِي السَّلُوكِيَّاتِ الْعَادِيَةِ، وَيُرَدُّ عَلَيْهِ أَنَّ لَا يَوْجَدُ فِي النَّبِيِّ ﷺ شَيْءٌ عَادِيٌّ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وَعَلَيْهِ فَكُلُّ أَعْفَالِهِ ﷺ وَلِيدَةٌ خَلْقِ

(١) مسند أحمد ج ٢، ص ١٦٢ عن مسند عبدالله بن عمرو.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

عظيم، وهذه شهادة رب العالمين وتشمل جميع الأفعال لا خصوص أفعال البدن.

أما القول باختصاص التأسّي بمقام الأمر والنهي والتشريع دون الأفعال العادية، مِنْ قِبَل «إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ» حَيْثُ لَا يَعْمَلُ وَلَا يَتَّهَمُ بِهَا لَا تَنْدَرُجُ فِي عَمُومِ الْآيَةِ فَهَوَّ قَوْلٌ مُرَدُّودٌ.

لِأَنَّ التَّشْرِيْعَ عَلَى أَقْسَامٍ وَيَتَنَاوَلُ الْعَادِيَاتِ أَيْضاً إِذْ لِكُلِّ فِعْلٍ حَكْمٌ وَمَا هَذِهِ الْمَقَالَاتُ مِنْهُمْ فِي ضِعْضِعَةِ مَفَادِ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا نَاشِئَةٌ مِنْ الْغَفْلَةِ فِي مَعْرِفَةِ مَقَامَاتِهِ. فَالنَّبِيُّ ﷺ عَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ فِي كُلِّ أَخْلَاقِهِ فِي حَلِّهِ وَتَرْحَالِهِ فِي نَوْمِهِ وَيَقْظَتِهِ وَسُكُونِهِ وَحَرَكَتِهِ وَوُقُوفِهِ وَجُلُوسِهِ وَحَرْبِهِ وَسُلْمِهِ، فَفِي مَجْمُوعٍ وَجَمِيعِ أَعْمَالِهِ عَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ لَا فِي خِصُوصٍ بَعْضِ أَعْمَالِهِ. فَ(الخلق) جنس لما دونه مِنْ أُمُورٍ أَيُّ أَنَّ الْخَلْقَ عِبَارَةٌ عَنْ مَنْظُومَةِ الْأَحْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، فَتَعَمُّ مَفْرَدَةَ (الخلق) جَمِيعَ أَخْلَاقِهِ وَأَحْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ.

- وَالْآيَةُ الْآخَرَى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١).

وتفيد الآية مدى عظمة مكانة النبي ﷺ في كل الشؤون بحيث

الوحي وأقسامه ووحىانية كل مراتب وجود المعصوم..... ٥٩

يفقد الشخص إيمانه بمجرد فعل إساءة غير مقصودة في محضره. ويمرق من الدين وتحبط كل أعماله. فهذا التفخيم والتعظيم من الله تعالى لنبه عليه ﷺ دليل على أن الأمور العادية في حياة المعصوم ونظام العلاقة بينه وبين الناس أمور مبرجة ومنظمة بنظام وحياني عالي المستوى.

الشفافية النورية في أفعال المعصوم:

بالإضافة إلى العقلانية فإن في أفعال المعصوم وأحواله صبغة نورية كما بيته الإمام الصادق عليه السلام فيما ورد عنه: «وإن أولى الألباب الذين عملوا بالفكرة حتى ورثوا منه حب الله فإن حب الله إذا ورثه القلب استضاء به وأسرع إليه اللطف فإذا نزل منزلاً صار من أهل الفوائد، فإذا صار من أهل الفوائد تكلم بالحكمة فإذا تكلم بالحكمة صار صاحب فطنة، فإذا نزل منزلة الفطنة عمل في القدرة فإذا عمل به ما في القدرة عرف الأطباق السبعة فإذا بلغ هذه المنزلة جعل شهوته ومحبه في خالقه»^(١) الحديث، فإن الأولياء الذين هم دون المعصوم حين يمارسون الأكل والشرب والنكاح يمارسونه في النور بخلاف من يمارس تلك الأمور كالحوانات بما فيها من عنجهية وعنفة ووحشية كالجمال والبقر والفرس.

فالحوانات حينما تأكل أو تشرب أو تنكح تفعل ذلك بألية بهيمية

(١) كفاية الأثر: ص ٢٥٨ ومختصر البصائر: ص ١٢٢ قريباً منه.

٦٠..... الإمامة الإلهية - قواعد في العصمة

حيوانية غليظة مما يوجب نفرة وتقرزاً لدى الإنسان بينما يارسها الإنسان بشفافية، فكيف إذا صار الإنسان نورانياً الذي حينما يفعل هذه الأمور يفعلها بصفاء أكثر بحيث لا تتكدر فيه الروح.

فَبَعْضُ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ عِنْدَمَا يَأْكُلُ أَوْ يَشْرَبُ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِشْرَاهَةِ وَبِهَيْمِيَّةٍ بِدَرَجَةٍ قَدْ يَسْتَحِي مِنْ نَفْسِهِ وَيَنْفِرُ عِنْدَمَا يَلْتَفَتُ، بَيْنَمَا يَارِسُهَا الْآخَرُونَ بِشَكْلِ لَطِيفٍ وَشَفِيفٍ لَيْسَ فِيهِ غِلْظَةٌ وَلَا حِدَّةٌ، فَالْإِنْسَانُ لَا يَارِسُ أَفْعَالَهُ بَعْنَفٍ حَيَوَانِي بَلْ بِشَفَافِيَّةٍ إِنْسَانِيَّةٍ، فَالْفِعْلُ عَادِي وَلَكِنْ الصَّبْغَةُ وَالْآلِيَّةُ إِنْسَانِيَّةٌ، وَهَذَا هُوَ لِبَاسِ الْآدَابِ.

نظير ما جاء عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَأْكُلُ عِدَّةَ أَلْوَانٍ مِنَ الطَّعَامِ فِي الْخَبْرِ «أَنَّهُ أَتَى قَبَاءَ فِي يَوْمٍ خَمِيسٍ وَهُوَ صَائِمٌ فَلَمَّا أَمْسَى قَالَ هَلْ مِنْ شَرَابٍ؟ فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَتَاهُ بِقَدَحٍ لَبِنٍ مَضْرُوبٍ بِعَسَلٍ، فَلَمَّا طَعَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَزَعَهُ مِنْ فِيهِ فَقَالَ: إِدَامَانَ يَجْتَزَأُ بِأَحَدِهِمَا دُونَ صَاحِبِهِ، لَا أَشْرَبُهُ وَلَا أَحْرَمُهُ، وَلَكِنِّي أَتَوَاضَعُ لِرَبِّي، فَإِنَّهُ مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ وَمَنْ تَكَبَّرَ خَفَضَهُ، وَمَنْ اقْتَصَدَ فِي مَعِيشَتِهِ رَزَقَهُ اللَّهُ وَمَنْ بَذَرَ حَرَمَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَكْثَرَ ذَكَرَ اللَّهُ رَزَقَهُ اللَّهُ» (١).

فالإنسان إذا أعطى نفسه فسحة من التلذذ، فإن ذلك يؤدي إلى قوة الأنانية والذاتية في نفسه أكثر وأكثر، فتنتج عنها نخوة فرعونية

الوحي وأقسامه ووحيايته كل مراتب وجود المعصوم..... ٦١

مستكبرة، ويقل حينئذ التواضع والخضوع لله، ويشير إلى التلازم بين الرفاه والبطر وبين الطغيان قوله تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ أَلِئْسَ أَتَقَىٰ﴾ (١) وقوله تَعَالَى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سُمُورٍ وَحَمِيرٍ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُورٍ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ (٢).

فالترف يوِّلدُ أنانية في النفس وتتقوى حينئذ فرعونيتها ظناً منه أنَّ القدرة والغنى ذاتان له جاهلاً أنَّه عين الفقر، فلو أصابته شدة لا اعتراض على الله تَعَالَى لا اعتبره أنَّ الرفاه ملكه ومن ذاتياته وأنَّ السعادة النسبية الظاهرية الآنية التي تسلب عنه في آن من الآفات هلاك له. بخلاف تحمل الخشونة والإخشوشان فإنَّ فيه تخنيعاً للنفس وضعفها فالبلاء يضعضع النفس وينبهاها إلى العجز والفقر الذاتي وبالتالي افتقارها إلى بارئها.

والمحصّل: إنَّ الأفعال الغريزية وإن صدرت من الجميع ولكنها على درجات، فممارسة الشخص النوراني لها بنمط وممارسة الشخص المتسوط لها بنمط آخر وممارسة أهل اليقين وممارسة أهل التقوى من أنماط مختلفة وهذا ما ينعكس على اختلاف الآداب في الحركات والكلام وبقيّة الأفعال.

فالشخص البدوي تراه ذا غلظة وجفاء يتصرّف بحدّة من غير

(١) سورة الواقعة: الآية ٤١ - ٤٥.

(٢) سورة العلق: الآية ٦ - ٧.

التفات ويعتبر ذَلِكَ أمراً عادياً بالنسبة إليه، بخلاف ذوي النفوس الشفافة تراهم مرتدين في أفعالهم زينة الآداب. وما يعبر عنه بالتمدّن مقابل البداوة والتشرف على درجات قابلة للاشتداد؛ ولذا فَإِنَّ النَّبِيَّ والوصي والمعصوم لهم نكاح ولكن نكاح بطريقة روحانية مهذبة نورانية شفيفة ولو كانت الزوجة غير معصومة.

ملخص القاعدة الثانية:

فَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذُو أرواح وذوو مراتب وَكُلُّ منها ذات شأن مختلف فلا يكون حكم الجميع واحداً ولا يمكن الحكم على الجميع بحكم واحد، فعندما يُقال أن أَوَّل ما خلق الله تعالى قبل السماوات والأرض وقبل الأرواح هُوَ نور النَّبِيِّ ﷺ فهذا بالنسبة للرتبة النورية منه ﷺ لا بالنسبة لبدنه النازل. وَلَيْسَ معنى خلق الله تعالى السماوات والأرض مِنْ نوره خلقها مِنْ أرواحه النازلة فضلاً عن بدنه النازل، بل بدنه مِنْ مخلوقات السماوات والأرض.

وَإِذَا يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ»^(١) أو «كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ»^(٢) لا يريد بدنه ﷺ، فبدنه غير نوره وأبدانهم دون أرواحهم وأنوارهم التي هي بدورها ذات طبقات ومراتب كثيرة جداً، وَقَدْ حصل الخلط الكثير نتيجة عدم التمييز بين

(١) البحار: ١٦ / ب ١٢ ص ٤٠٢.

(٢) البحار: ج ١٨ ص ٢٧٨ ب ٢.

هذه المراتب في ذوات المعصومين عليه السلام. كما يجبرنا القرآن الكريم عن لسان الكفار والمُشركين ﴿أَبَشِّرْهُدُونَا﴾^(١) ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾^(٢) وكذلك ما روي في أحوال الأوصياء عليه السلام، وما تقدّم من رواية مريم وعيسى عليه السلام حينما كانت تسقيه الدواء بأمر منه فيبكي فيجيبها «يا أمّاه علم النبوة وضعف الصبا»^(٣)، فالطفل لأبداً له من البكاء من مرارة الدواء. ولا يصح الاعتراض أن هذا خلاف العصمة. فلوجود المعصوم شؤون ومراتب ودرجات واختلاف هذه الدرجات في الآثار لا يدل على نفي العصمة. فشؤون العقل والقلب غير شؤون البدن، فشؤونه تابعة لطبقات ذاته. نوره وروحه الكلية وعقله الكلي ثم النفس والروح الجزئيين والغرائز والبدن وهذه كلّها ذات شؤون وأحكام مختلفة فلا يمكن حمل طبقة على أخرى؛ ولذا لا ينبغي أن يتوقع من المعصوم عليه السلام أن لا تصدر منه أفعال غير مرتبطة بالجهة العقلية والروح الكلية؛ ولذا فهو يأكل ويشرب وينكح ويتعب وينام. وإن لم يحصل التفكيك بين هذه المراتب سيقع الباحث في ما حكاها الله من اعتراض المشركين ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُوبُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾^(٤).

(١) سورة التغابن: الآية ٦.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٧.

(٣) البحار: ج ١٤ ص ٢٥٤.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٧.

القاعدة الثالثة:

شدة لطافة أفعال المعصوم البشرية قياساً إلى أفعال غيره

إنَّ الأفعال البشرية التي يقوم بها المعصوم عليه السلام مِنْ أكل وشرب ونكاح ونوم ليست على وتيرة واحدة مَعَ أفعال غيرهم في هذه المساحة.

١- نوم المعصوم:

فَقَدْ وَرَدَ فِي نَوْمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تنام عيني ولا ينام قلبي»^(١) و «تنام عيني وقلبي يقظان»^(٢) وفي رجال الكشي عن زيد الشحام، قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: (طلب أبو ذر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقيل له انه في حائط كذا وكذا، فتوجه في طلبه فوجده نائماً فأعظمه أن ينبهه، فأراد ان يستبرئ نومه من يقظته فأخذ عسيباً يابساً فكسره ليسمعه صوته فسمعه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرفع رأسه، فقال: يا أبا ذر تخدعني أما علمت أني أرى أعمالكم في منامي كما أراكم في يقظتي ان عيني تنامان ولا ينام

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ١، ص ١٢٤؛ والبخاري: ج ٤ ص ٢٣١، باب كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

تنام عينه ولا ينام قلبه.

(٢) الاحتجاج: ج ١ ص ٤٨.

قلبي^(١) فَإِنَّ الْإِنْسَانَ فِي أَوَائِلِ نَوْمِهِ قَبْلَ الْاسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ تَتَعَطَّلُ عَيْنُهُ وَشَمُّهُ وَيَبْقَى سَمْعُهُ فَقَطُّ بِشَكْلِ ضَعِيفٍ نَاشِطاً مُسْتَمِراً وَكَذَلِكَ شُعُورُ الْقَلْبِ وَهَذَا الْمَقْدَارُ مِنَ السُّبُوتِ وَتَعَطُّيلِ الْحَوَاسِ فِي مَا عَدَا السَّمْعَ لَا يَبْطُلُ الْوَضُوءُ؛ لِأَنَّ نَوْمَ الْعَيْنِ مَعَ كَوْنِهِ نَوْماً حَقِيقِيّاً لِلْعَيْنِ وَلَكِنَّهُ لَا يَعْنِي نَوْمَ الْحَسِّ الْعَامِّ الْمَشْتَرِكِ لِكُلِّ الْحَوَاسِ وَكَذَلِكَ يَتَعَطَّلُ حَسُّ اللَّامِسَةِ وَالشَّمَّةِ وَالذَّائِقَةِ وَلَكِنْ يَبْقَى مِنَ السَّمْعِ إِحْسَاسٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قُوياً مُرَكَّزاً بَلْ مَشُوشاً فَلَا يَبْطُلُ الْوَضُوءُ. فَيَتَبَيَّنُ أَنَّ الْحَسَّ وَالسَّمْعَ عَلَى دَرَجَاتٍ وَالْأَعْمَالَ دَرَجَاتٍ وَالْأَكْلَ عَلَى أَنْهَاطٍ وَدَرَجَاتٍ، وَهَكَذَا الْفَرُوسِيَّةُ وَالْبَطُولَةُ وَطَيِّ الْأَرْضِ كُلُّهَا أَفْعَالٌ مُخْتَلِفَةٌ الْأَنْهَاطِ وَالدَّرَجَاتِ لَطَافَةٌ وَغَلْظَةٌ شَدَّةٌ وَضَعْفٌ.

٢ - قلوب غير قلوبكم:

وَقَدْ وَرَدَ فِي شَأْنِ قُلُوبِهِمْ أَنَّ لَهُمْ قُلُوبَ غَيْرِ قُلُوبِ النَّاسِ.

فَقَدْ رَوَى ابْنُ قَوْلُوبِهِ بِإِسْنَادِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ الْأَصَمِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَكِيرِ الْأَرْجَانِيِّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام خَبيراً طَوِيلًا فِي مَرُورِهِمْ بِجَبَلِ الْكَمْدِ وَهُوَ جَبَلُ مَوْحَشٍ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَهُوَ عَلَى وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ جَهَنَّمَ وَيَعَذَّبُ فِيهِ مَنْ أَسَّسَ أَسَاسَ الظُّلْمِ وَالْجُورِ إِلَى أَنْ قَالَ: «قُلْتُ لَهُ: جَعَلْتَ فِدَاكَ فَإِذَا طَوَيْتَ الْجَبَلَ فَمَا تَسْمَعُ؟ قَالَ: أَسْمَعُ

(١) اختيار معرفة الرجال: ج ١ ص ١٢٤ ح ٥٥.

أصواتهما يناديان: عرج علينا نكلمك فإننا نتوب، وأسمع من الجبل صارخاً يصرخ بي أجبهما، وقل لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون قَالَ: قلت له جعلت فداك ومن معهم؟. قَالَ: كُلُّ فرعون عتي على الله وحكى الله عنه فعاله وكُلُّ من علم العباد الكفر؟ فقلت له: مَنْ هُمْ: قَالَ نحو بولس الذي علم اليهود أن يد الله مغلولة، ونحو نسطور الذي علم النصارى أن المسيح ابن الله وَقَالَ لهم: هُمْ ثلاثة، ونحو فرعون موسى الذي قَالَ: أنا ربكم الأعلى، ونحو نمرود الذي قَالَ: قهرت أهل الأرض وقتلت من في السماء، وقاتل أمير المؤمنين عليه السلام وقاتل فاطمة ومحسن عليه السلام وقاتل الحسن والحسين عليه السلام، فأما معاوية وعمرو فما يطمعان في الخلاص ومعهم كُلُّ مَنْ نصب لنا العداوة وأعان علينا بلسانه ويده وماله، قلت جعلت فداك فأنت تسمع ذا كله ولا تفزع قَالَ: يا ابن بكير قلوبنا غير قلوب الناس، إنا مُطيعون مصفون مصطفون نرى ما لا يرى الناس ونسمع ما لا يسمعون، وأن الملائكة تنزل علينا في رحالنا وتتقلب في فرشنا وتشهد طعامنا وتحضر موتانا وتأتينا بأخبار ما يحدث قبل أن يكون وتصلي معنا وتدعوا لنا، وتلقي عليها أجنحتها، وتتقلب على أجنحتها صبياننا... الحديث»^(١).

وكذلك أرواحهم غير الأرواح أما أبدانهم فهي بشرية، فهذه الجهات تختلف فيهم.

٣ - فصل المعصوم الأخير:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيْسُونَ﴾^(١).

وهذه الآية تصوّر إنساناً ملكياً وهذا هو بيان لفصل المعصوم وقدراته وهو غير ما عندنا، بل أعلى منه ففصل الشيء هو كماله، وحقيقته هو فصله الأخير، وفصل الناس الذي تميّز به هو الناطق أو العاقل، وأما فصل النبي ﷺ هو وصف (يوحى إليّ) وعموماً فإنّ أفراد الإنسان تختلف في الفصل الأخير وليس الكل على درجة واحدة من طور الذات، فمنهم إنسان ملكي، ومنهم إنسان شيطاني ومنهم إنسان بهيمي.

وكما أن الإنسان ذو درجات كذلك الملائكة على طبقات، فطبقات الكمال تختلف، وإذا كان فضل طينة أبدانهم كأرواح المؤمنين وأرواح المؤمنين بمنزلة فضل طينة بدن المعصومين، فكيف بالدرجة القاصية العالية من أرواحهم وهل يمكن أن تكون تلك المرتبة العالية متّحدة الحكم مع الدرجة الدانية وهي ما عليه أرواح المؤمنين. فضلاً عن أرواح الكفار وأعدائهم التي لا تُقاس بأبدان المؤمنين. فأبدان المؤمنين لا تنزل منزلة أرواح الكافرين فضلاً عن أبدانهم، وأرواح

(١) سورة الأنعام: الآية ٩.

شدة لطافة أفعال المعصوم البشرية قياساً إلى أفعال غيره..... ٦٩
الكفّار خلقت من سجّين وأبدانهم أنزل من ذلك، وهذا مفاده
اختلاف الأبدان مع أن الكل بشر.

وقد أفادت بعض الأبحاث العلمية^(١) أن العصاة تشع منهم
طاقة نتنة خبيثة وإلى ما يمكن أن يطابق ذلك أشارت الروايات فقد
ورد عن عبدالله بن موسى بن جعفر عن أبيه عليه السلام قال سألته عن
الملكين هل يعلمان بالذنب إذا أراد العبد أن يفعله أو الحسنه؟ قال:
«ريح الكنيف والطيب سواء؟ قلت: لا، قال: إنَّ العبد إذا همَّ بالحسنة
خرج نَفْسُهُ طَيِّبَ الرِّيحِ، فَقَالَ: صاحب اليمين لصاحب الشمال: قم
فإنَّه قد همَّ بالحسنة، فإذا فعلها كانَ لسانه قلمه وريقه مداده فأثبتها له،
وإذا همَّ بالسيئة خرج نفسه متن الرِّيحِ، فيقول صاحب الشمال
لصاحب اليمين: قف، فإنَّه قد همَّ بالسيئة، فإذا هوَ فعلها كانَ لسانه
قلمه وريقه مداده فأثبتته عليه»^(٢).

ولا نقول أن مفاد تلك الأبحاث هي مفاد الرواية بل ما تتحدّث
عنه تلك الأبحاث هي إحدى الأشعة في قبال ما يجحده كثير من
المتأثرين بالبحوث التجريبية واستنكارهم لكثير من المعارف الدينية
التي لم يكتشفها العلم الحديث؛ ولذا يكثرون من الطعن على تلك
المعارف بالخرافات وكيف يمكن أن يكون بدن الكفار من طينة غير

(١) كما في العلوم الروحية المعاصرة والاكتشافات الفيزيائية.

(٢) الوسائل: ج ١، ب ٧ مقدمة العبادات: ج ٣ ص ٥٨.

طينة المؤمن. وأنَّ هذا يتنافى معَ العلوم الطبيعية الحديثة.

وَمِنْ تِلْكَ الْأُمُورِ الَّتِي تثير استغرابهم هِيَ نَجاسة الكفَّار ولابن سينا رسالة يثبت فيها فلسفياً أنَّ الروح كيف تؤثر في نجاسة البدن، وَقَدْ بحثها بحثاً تجريبياً عقلياً وفي العلم الحديث اكتشف أحد العلماء اليابانيين أنَّ أفعال المعاصي لا تؤثر على البدن وحسب بل تلوث البيئة، فتلوث الماء الذي يشربه العاصي والأكل الذي يأكله، والمكان الذي تتواجد فيه المعصية، والبيئة ستلوث والتسمية العلمية التجريبية هِيَ تلوث وتكدر، والتسمية الشرعية - على فرض التطابق - هُوَ تنجيس البيئة.

فالأفعال السيئة تنافي الأفعال الفطرية، والمعاصي والرذائل والكلام السيء تلوث الطعام والماء، كما اكتشفته الأبحاث العلمية التجريبية في الأعوام القليلة السابقة، مما يعدّ انفجاراً علمياً كبيراً، وإذا كانت الأفعال تؤثر بهذه الدرجة فما بالك بالعقائد والذي لمْ يكتشفه البشر إلى الآن، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ المعصية قد تمنع قطر السماء أربعين يوماً.

فالأبدان تختلف والأفعال تختلف وما يمارسه أهل العصمة مِنْ الأفعال البشرية لا تكون على نفس النمط الذي يصدر مِنْ غيرهم؛ لِأَنَّ أفعالهم شفافة ونورانية، نظير اختلاف أكل وشرب الإنسان معَ الحيوانات والحيوانات بعضها عن بعض.

شدة لطافة أفعال المعصوم البشرية قياساً إلى أفعال غيره..... ٧١

فالجنبه البشرية أو قوة الخيال أو قوة الحس المشترك أو قوة الواهمة لدى النبي ﷺ والمعصومين عليهم السلام فوق البشر بل هم صنفوة البشر «السلام عليكم يا سلاله النبيين وصفوة المرسلين» «أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشاخحة والأرحام المطهرة». فهم في أعلى درجات البشرية.

فصحيح أن فيهم جنبتين كما مرّ في القاعدة الثانية ولكن يجب أن لا نغفل عن ما يأتي في القاعدة الرابعة وهي أن أكبر قدرة في طبيعة البدن البشري موجودة لديهم بحيث لا يضاهيهم أحد من البشر في قوة الخيال، وكذلك الجن بالرغم من قوة الخيال التي لديهم في باب عالم المثال.

بل كل حيوان بمشيئة الله له قدرة من قدرات النفس الجزئية أعظم من بقية الحيوانات ومن الإنسان، ومن الحيوانات ما له قدرة على تنبؤ الأمور المستقبلية كالزلازل وغيرها؛ ولذا كانت تستعمل الأقوام والحضارات السابقة بعض الحيوانات لكي تتفرس ما سيحصل في الزراعة أو التجارة أو الطب. وهي ليست تنبؤات بقدر ما هي معادلات فهي بالنسبة للحيوانات ليست غيباً بل هي حس محسوس. وذلك الحس يختلف في الحيوانات باختلاف القدرات وهي أنواع غريبة وعجيبة، فالسمع أقسام والبصر والشم والذائقة والعضلات كلها مختلفة المراتب والدرجات. وإن للهدد قدرة استكشاف للماء

قوية جداً لم تكن حتى عند سليمان عليه السلام؛ ولذا كان يستعين به في هذا المجال بينما الأمر عند أهل البيت عليهم السلام غير ذلك. فعن موسى بن جعفر عليه السلام في شأن سليمان عليه السلام والهدمد «وإننا غضب لأنه كان يده على الماء، فهذا - وهو طائر - قد أعطي ما لم يُعط سليمان، وقد كانت الريح والنمل والأنس والجن والشياطين والمردة لله طائعين، ولم يكن يعرف الماء تحت الهواء وكان الطير يعرفه إلى أن قال عليه السلام: (وقد ورثنا نحن هذا القرآن الذي فيه ما تسير به الجبال وتقطع به البلدان وتحبى به الموتى ونحن نعرف الماء تحت الهواء، وإن في كتاب الله لآيات ما يراد بها أمر إلا أن يأذن الله به مع ما قد يأذن الله مما كتبه الماضون جعله الله لنا في أم الكتاب إن الله يقول ﴿وَمِمَّنْ غَابَبَةِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِنْبِ مُبِينٍ﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِنْبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فنحن الذين اصطفانا الله عز وجل وأورثنا هذا الذي فيه تبيان كل شيء»^(١).

(١) الكافي: ج ١، كتاب الحجّة، باب أن الأئمة عليهم السلام ورثوا علم النبيّ وجميع الأنبياء: ج ٧ ص ٢٢٦.

القاعدة الرابعة:

إن المعصومين عليهم السلام صفوة البشرية طينة وروحا

إنَّ المعصومين عليهم السلام رغم كونهم بشراً وَلَكِنَّهُمْ صفوة البشر فالفاضل من طيبتهم تتشكّل منها أرواح المؤمنين فضلاً عن أبدان المؤمنين فضلاً عن طينة أعدائهم وأرواحهم، فالأبدان والأجسام تختلف وَهِيَ عَلَى درجات.

مثال على اختلاف الأجسام:

إنَّ الجسم حسب المصطلح الفلسفي هُوَ كُلُّ ما له امتداد في الأبعاد الثلاثة؛ ولذا فَإِنَّ الأشعة الموجية جسم بحسب الاصطلاح الفلسفي وإن كانت غَيْرَ مرئية. نعم الاصطلاح الفيزيائي عَلَى كون الجسم هُوَ المادة المتكثفة، أمَّا غَيْرَ الكثيف فلا يسمى جسماً بَلْ طاقة وأشعة وأمواجاً. وَقَدْ حصل الخلط بين المصطلحين عِنْدَ بَعْضِ كبار الفلاسفة، فلا بُدَّ مِنْ التمييز بينهما حتّى لا يقع الباحث في الخلط وعدم الاطلاع عَلَى المصطلح الفلسفي يوقع الإنسان في الكثير مِنْ الأخطاء

فينكر العديد من المسائل والقضايا ويرميها بالخرافة، وليس ذلك إلا من باب ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾^(١) «وأكثر العلم في الذي تنكروه» كما ورد في أحاديث أهل البيت عليهم السلام.

وَعَلَى كُلِّ فِئَةٍ مِنَ الْأَجْسَامِ مَا هُوَ شَفَافٌ وَعَيْرٌ مَتَكَثِفٌ وَخَوَاصِهِ تَخْتَلِفُ مِنْ خَوَاصِ الْمَادَّةِ الْكَثِيفَةِ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَجْسَامَ يُمْكِنُ أَنْ تَطْوِي الْمَسَافَاتِ الشَّاسِعَةَ فِي زَمَانٍ قَلِيلٍ. ففي ثانية أو أقل تعبر هذه الموجات من الشرق إلى الغرب، ويمكن لهذه الأجسام أن تخترق الأجسام الكثيفة، وإذا قيل اليوم لأحد المثقفين أن هذا الجسم يعبر من الجدار أو ينتقل من منطقة إلى منطقة بعيدة بسرعة ملح البصر ونحوها فإنه قد يرمي هذه الأمور بالخرافة، لبنائه على كون الجسم هو خصوص المتكثف الغليظ وهذا خلاف حتى معطيات العلم الحديث.

والأجسام المتكثفة في اليوم في العلم الحديث لا تقتصر على خصوص الأجسام الكثيفة ففي علم الصغائر اكتشفوا أجساماً صغيرة جداً مثل الكوانتم والنانو والفيمتو وهي أجسام وليست طاقة مجردة عن الجسم ويمكن أن يصنع منها أنواعاً عجيبة واكتشافها شكّل ثورة علمية كبيرة في علم الصغائر.

واكتشف العلم الحديث اليوم أن هناك جبلاً مغناطيسية في

٧٥ إن المعصومين عليهم السلام صفوة البشرية وروحا.....
الأرض وأنَّ هُنَاكَ جداراً مغناطيسياً يحيط بالأرض ويحفظها عَنْ
الشهب والنيازك وإذا تراءى هذا الجدار سيكون بشكل (قاف) وأثبت
أنَّ هُنَاكَ طاقات وأمواج تشكل حلقة وصل بين المنظومات والمجرات
ولها أشكال عجيبة مِنْ مخروطية وعتودية وغيرها وهذه النتائج يمكن
أن تتطابق (ولا نقول عَلَى سبيل الحتم) مَعَ تلك الروايات الَّتِي كَانَ
ينكرها المثقفون الإسلاميون قبل ثلاثين أو أربعين سنة وأنَّ الأرض
عَلَى جبل مِنْ قاف أو أُمَّهَا عَلَى قرني ثور فينعونها بالإسرائيلية، والحال
وجود إمكانية مطابقتها لنتائج العلم الحديث. فمفاد تلك الروايات
لَيْسَ ممتنعاً ولا يمكن الإسراع إلى إنكارها لمجرد عدم ملائمتها مَعَ
معلوماته البسيطة الجزئية وَمَعَ ذوقه الخاص.

الأبدان المختلفة:

إنَّ للإنسان بدنًا فِي هذه الدُّنْيَا يسميه العرفاء وأهل الكشْف بـ
(الجسم البخاري) ويمسى فِي العلم الحديث بـ(اكتوبلازما) ويمكن
اكتشافه بالأشعة تحت البنفسجية وهذا الجسم البخاري هُوَ الذي يدبُّ
الجسم الغليظ.

وَمِنْ خلال ذلك الجسم يتلاحم مَعَ الجن الذي لَهُ جسم
كهرومغناطيسي أثري. فالإنسان يتلاحم معه بذلك الجسم لا بالجسم
الدينوي الغليظ.

فالأجسام التي نخالطها أجسام عديدة، وتأثيراتها متفاوتة والاطلاع عَلَيْهَا مؤثر جداً في سير البحوث التجريدية والعقلية وَقَدْ أَكَّدَ الفلاسفة عَلَى دخالة بحوث الطبيعيات (الكيمياء والفيزياء والأحياء) عَلَى معرفة الحكمة الإلهية وَأَنَّ مَنْ فَقَدَ حَسّاً فَقَدَ علماً وما دام العديد من المحسوسات غَيْرَ مكتشفة فالعديد من العلوم مفقودة.

فالجسم الطاقى غَيْرَ هذا الجسم الغليظ وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ آدمية الإنسان لَيْسَ بهذا الجسم الغليظ بَلْ بالجسم الطاقى والأكتوبلازما، وَهُوَ البدن الأصلي، أمَّا البدن الكثيف فَهُوَ يتبدل كُلِّ سبع سنوات بَلْ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ. وَحَتَّى الجسم الطاقى فيه تجدد للطاقة، والذي نريد قوله هُوَ أَنَّ الأجسام مختلفة ولها آثار مختلفة مَعَ أَنَّ كلها أبدان وأجسام أرضية مادية، بَلْ بَعْضُ الأجسام لتطلفها تعدد كالروح بالنسبة للأجسام الأخرى، فالبدن الآدمى لَيْسَ هُوَ البدن الغليظ بل وهوية الإنسان هُوَ بالبدن الطاقى بَلْ نجد فرقاً حَتَّى بين بدن الإنسان وبدن الحيوان بالفرق فِي اللطافة والكثافة.

وَمِنْ هُنَا نلتفت لماذا تُؤكِّد الروايات عَلَى أَنَّ فاضل طينة أهل البيت عليهم السلام هِيَ بمستوى الرتبة الوجودية لأرواح المؤمنين، فطينة أبدانهم أعلى وأصفى مِنْ أرواح المؤمنين، مَعَ كون أبدانهم عليهم السلام بشرية مادية ولكن هذا لا يعني أنها مِنْ درجة واحدة وبأحكام واحدة متشابهة مِنْ جميع الجهات والحشيات.

تفسير طي الأرض:

إِنَّ هُنَاكَ أبحاثاً أكاديمية حديثة تحاول اكتشاف مسألة طي الأرض بمعادلات فيزيائية وكذلك طي السماء.

ويمكن أن نقول أثبت علم الأحياء أن البدن الكثيف هو كالنهر الجاري، أي دائم التغيير وبعبارة أخرى هناك قالب حاكم يأخذ هذه المواد الكثيفة فيصيغها وحاولوا أن يكتشفوا تلك القوة الحاكمة التي تأخذ المواد الجديدة وتستبدل بها المواد القديمة، فهل تستطيع تلك القوة أن تستبدل تلك المواد خلال ثانية واحدة؟ وهل يستطيع البدن الحاكم والحافظ أن يترك هذه المواد هنا ويأخذ مواداً أخرى أي يستبدل ويبدد البدن السابق وينشئ البدن الجديد في ثانية واحدة في موضع آخر ومكان آخر ويحصل بذلك انتقال من موضع لآخر ومن الأقصى إلى الأقصى بسرعة الموج.

وهذا هو أحد تفاسير طي السماء ومن خلال الروح في ذلك البدن الذي له قدرة على الطي بشكل سريع وهو الذي يشكل ويحفظ المواد الأخرى فقوة هذا البدن هو بسبب البدن الآخر الذي هو أشرف منه والطف.

وتكلم بعض علماء الغرب وهو البروفسور (يوخون روبكا) عن الإمام المهدي عليه السلام قائلاً - إن هناك أسرار علمية ضخمة في بدنه ولكن

الأسرار الَّتِي فِي رُوحِهِ أَعْظَمُ، فَهُوَ ذُو بَدَنِ فِيهِ مِنْ الْأَسْرَارِ شَيْءٌ عَظِيمٌ.

فللأبدان درجات ولكل درجة أحكام خاصّة، وجبروت طاقة بَعْضُ الْأَبْدَانِ أَنَّهَا تَنْتَقِلُ فِي الثَّانِيَةِ بَطْنِي الْأَرْضِ مِنْ أَقْصَى نَقْطَةٍ إِلَى أَقْصَى نَقْطَةٍ، فَلِلْمَلِكِ بَدَنٌ دُنْيَوِيٌّ يَتَكَثَّفُ وَبَدَنٌ مَعْصُومٌ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى التَّكَثَّفِ وَالتَّشْفِيفِ أَيْضًا. وَالْعِلْمُ الْآنَ فِي صَدَدِ اكْتِشَافِ كَيْفِيَةِ تَشْفِيفِ وَتَكَثَّفِ هَذَا الْبَدَنِ وَأَنَّ أَيْةَ مَعَادِلَاتِ فِيزِيَاوِيَّةٍ تَحْكُمُ هَذِهِ الْأُمُورَ.

وَعَلَى الْعُمُومِ لِأَبَدٍّ مِنْ مَعْرِفَةِ الْمَعَادِلَاتِ الْمَهَيْمِنَةِ عَلَى هَذَا الْبَدَنِ مِنْ قَبْلِ بَقِيَّةِ الْأَجْسَامِ وَمِنْ الْخَطَأِ الْفَادِحِ أَنَّ نَبِيَّ الْمَعْرِفَةِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى فِيزِيَاءِ الْقُرُونِ الْوَسْطَى أَوْ فِيزِيَاءِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ. وَالْمَشْكَلَةُ أَنَّ الْخَلْقَ يَقِيسُ الْأُمُورَ عَلَى حُدُودِ إِدْرَاكِهِ. وَالْحَالُ أَنَّ الْحَقَائِقَ وَالْوَاقِعِيَّاتِ أَعْظَمُ مِنْهُ وَمِنْ وَجُودِهِ وَمِنْ إِدْرَاكَاتِهِ؛ وَلِذَا لَا يَصِحُّ أَنَّ نَرُدَّ ظَاهِرَ الرُّوَايَاتِ الَّتِي لَا تَنْطَبِقُ مَعَ الْفِيزِيَاءِ الْحَدِيثَةِ، وَالَّتِي لَيْسَتْ كُلُّهَا حَقَائِقَ بَلْ بَعْضُهَا نَظَرِيَّاتٌ وَفَرَضِيَّاتٌ وَتَخْيَلَاتٌ، وَلَا يُمْكِنُ أَنَّ يَقَاسَ الْوَحْيَ مَعَ قَضَايَا لَمْ تُثَبِّتْ كَوْنَهَا حَقَائِقَ فَضْلًا عَنْ قِيَاسِهِ بِالذَّهْنِ الَّذِي لَمْ يَطَّلِعْ حَتَّى عَلَى الْاِكْتِشَافَاتِ الْجَدِيدَةِ وَإِنَّمَا يَرِيدُ أَنْ يَقِيسَ كُلَّ شَيْءٍ بِعَقْلِهِ وَذَهْنِهِ الْمَحْدُودِ وَذَوْقِهِ الْخَاصِّ.

وَمِنْ الْأُمُورِ الَّتِي تَمَيَّزُ الْإِنْسَانَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّ بَدَنَ الْإِنْسَانِ مَكْتَثَفٌ وَالْمَلِكِ مَشْفِيفٌ وَلِلْإِنْسَانِ قُوَّةٌ شَهْوِيَّةٌ مُرْتَبِطَةٌ بِالْجِسْمِ وَكَيْسَ لِلْمَلِكِ

إن المعصومين عليهم السلام صفوة البشرية وروحا..... ٧٩
هذه القوة كما أنّ الإنسان يتميّز عن الجن بامتلاكه للقوة العاقلة.
فالإنسان مبنى ذو طبقات عديدة يشاركه الملك في بعض الطوابق
العليا ويشاركه الجن في بعض الطوابق السفلى.

وللإنسان قدرات مختلفة قد يتصرّف في عالم الخيال ويتصرّف في
الأمواج الحسيّة ولكن كلّ ذلك لا ينفي آدميته وبشريته، فإنّ ما
اكتشف لنا من قدراتنا هو النزر القليل. وقد توصلت البحوث الحديثة
إلى اكتشاف بعض القدرات أصبحت لخطورتها من البحوث السرية؛
ولذا فمن الخطأ أن نقيس أبدان المعصومين عليه السلام بالأحكام الموجودة
المكتشفة، فقد وردت في الروايات أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان ينظر من خلفه ولم
يكن له ظل، ففي صحيحة محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام عن
رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا أيها الناس، إني أراكم من خلفي كما أراكم من بين
يدي لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم»^(١) والروايات
بذلك ومثلها في مصادر الفريقين عديدة وكثيرة ومتواترة، ولذلك
سرت حتّى إلى المصادر التي تتعمد إخفاء الفضائل والأُمور الغريبة،
وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «لنا أعين لا تشبه أعين الناس وفيها نور
وليس للشيطان فيها شرك»^(٢) فهم بشر وأبدانهم بشرية ولكن للبشرية
ولأبدان البشر درجات وليست كلها بحكم واحد.

(١) بصائر الدرجات: ج ٢ ص ٢٥٧ ح ١٤٥٢.

(٢) بصائر الدرجات: ج ٢ ص ٢٥٧ ح ١٤٢١.

تنبيه استطرادي:

وكملاحظة استطرادية لا بأس بالإشارة إلى بعض النقاط المرتبطة

بالروايات:

(١) تَقَدَّمَ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ رَدُّ الرِّوَايَاتِ لِمَعْلُومَةٍ فِيزِيَائِيَّةٍ قَدْ يَنْكَشِفُ خَطَأُهَا وَزَيْفُهَا بِمَرُورِ الزَّمَنِ وَبِتَطَوُّرِ الْعِلْمِ؛ وَلِذَا قَلْنَا لَا يُمْكِنُ بِنَاءُ الْعِلْمِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى فِيزِيَاءِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ.

(٢) أَنَّ تَطْبِيقَ مَفَادِ بَعْضِ الرِّوَايَاتِ عَلَى بَعْضِ النِّظَرِيَّاتِ مُحْتَمَلٌ وَلَا نَبَتْ بِذَلِكَ.

(٣) إِنَّ الاسْتِظْهَارَ مِنَ الرِّوَايَاتِ يَخْضَعُ لِأَلْيَاتٍ وَمَوَازِينٍ مَنْضُبَّةٍ، وَمِنْ تِلْكَ الضُّوَابِطِ هِيَ قَاعِدَةُ (خِذِ الْغَايَاتِ وَاتْرِكِ الْمَبَادِيَّ).

وَمِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ تَتَسَّعُ مَدَالِيلُ الْأَلْفَاظِ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ نَحْصِرَ الْمَدَالِيلَ الْمُحْتَمَلَةَ فِي مَعْنَى أَوْ تَطْبِيقِ مَعْيْنٍ فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا أَوْ لَا، بَلْ بِمَقْتَضَى قَاعِدَةِ خِذِ الْغَايَاتِ يُمْكِنُ اكْتِشَافُ مَدَالِيلٍ جَدِيدَةٍ.

مثال ذلك (لفظة الجبل) فإنها ظاهرة في الجبل العادي الذي له صخور كثيفة، ولكن الغاية من تسميته هو هذا الاستحكام والتولية فيه فالصخور الكثيفة مبادئ ولكن الغاية هو الاستحكام. فهل الجبل حقيقة وموضوع للمبادئ أم للغاية؟ وكمثال اليد فإن مبدأها هو هذا العضو من البدن وغايتها البطش فهل اليد موضوعة للمبدأ أو الغاية

إن المعصومين عليهم السلام صفوة البشرية وروحاً ٨١

وبتعبير الملا صدرا روح المعنى.

فإذا بنينا على قاعدة (خذ الغايات) فإنه يمكن حمل الألفاظ على ما فيه الغايات وإن لم تحتو على المبادئ، فنحمل الجبل في الرواية على الجبل المغناطيسي مثلاً.

وما نراه في المنام من جبال وصخور هي جبال ولكن مادتها مثالية وليست من سنخ المادة الثخينة الخارجية والحال أنها جبل، فهي ذات مواد وأجسام ولها طول وعرض وعمق ولكن المادة أشف وألطف والغاية مشتركة.

علم المعصوم بما يكون وفضيلة الاختيار:

من الإشكاليات التي تطرأ في الذهن هو أن المعصوم إذا كان عالماً بثبوت الأشياء قبل حدوثها، وبما يقع وما لا يقع من المخاطر فكيف يكون القاؤه لنفسه في المخاطر من الفضيلة وهل يمكن تصوير الفضيلة والصبر مع العلم بالسلامة؟ فعلى عليه السلام إذا كان يعلم بأنه لا يقتل في الحروب بل سيقتل على يد ابن ملجم (لعنه الله) في المحراب فكيف يكون توغله في صفوف الأعداء في صفين والجمل والنهران وفي حروب النبي صلى الله عليه وآله شجاعة؟

والجواب: يتضح الجواب من خلال بعض ما تقدّم من القواعد التي تتحدث عن تعدد مراتب وجود المعصوم عليه السلام واختلاف أحكامها.

بيان ذَلِكَ: إِنَّ العلم في مرتبة العقل أو القلب يختلف عَنْ شؤن النفس الجزئية والغرائز النازلة وبالتالي يختلف الامتحان، فما تتأثر به الطبقات النازلة لَيْسَ خصوص العلم في العقل أو القلب. وَإِنَّمَا تتأثر بالجوانب الحسّية وبما يباشر تلك الغرائز والطبقات؛ ولذا نجد النفس النازلة تتأثر وتتفعل عَنْ الجانب الحسّي ولو كَانَ لديها ألف نبأ بعدم الضرر والتلف.

ليس البيان كالعيان:

ويستشهد الإمام الصادق عليه السلام لهذه الضابطة أو القاعدة (لَيْسَ البيان كالعيان) بما حكاه القرآن عَنْ قِصَّة موسى عليه السلام وقومه حينما عبد بنو إسرائيل العجل.

فَإِنَّ الله تَعَالَى أَخْبَرَ موسى بما جرى عَلَى قومه قبل أَنْ يراهم ولكنه لَمْ يَغْضَبْ، ولكن حينما ذهب ورآهم غضب وَإِنْ كَانَ غَضْبَهُ عقلياً. وَهَذَا الفرق بين المقامين، أَنَّ النفس الجزئية تختلف عَنْ النفس والروح الكلّيين فِي أَنَّهَا تتأثر بالمشاهد الحسّية بخلاف تلك الطبقات العليا الَّتِي لَا تتأثر بالحسّ وَلَا تفعل به.

سكوت الغضب أم سكونه:

عَبَّرَت الآية عَنْ غضب موسى عليه السلام بأنه (سكت) وَلَمْ تعبر أَنَّهُ (سكن)، وَهَذَانِ معنيان مختلفان، فالأوّل يقابله النطق والثاني يقابله

إن المعصومين عليهم السلام صفوة البشرية وروحا ٨٣
الحركة. والذي يعبر عنه في غضب الناس، أنه يتحرك غضبه ويسكن،
ولكن في غضب موسى عليه السلام الغضب لا يتحرك وإنما ينطق ويسكت،
وهذا نظير كلام زين العابدين عليه السلام لعمة العقيلة عليها السلام «يا عمة اسكتي
فإنك عالمة غير معلمة وفهمة غير مفهمة» ولم يقل اسكتي.

فما هو الفرق:

والفرق يتضح مما تقدم أن أفعال المعصوم حتى البدني منها هي
أفعال نورية شفافة وليست أفعالاً بهيمية غليظة حيوانية، فمعنى
سكوت الغضب ونطقه أن غضبه ينشأ بتدبير من الرتبة العقلية لا
بانفلات من الغرائز النازلة.

وعلى كل فالنفس الجزئية طبيعتها التأثر بالمشاهد الحسية أما
العقل والقلب والروح الكلية فلا تتأثر بها.

وهنا مثال لطيف يذكره المرحوم المظفر فيقول: عقل الإنسان
يدرك بأن الميت لا حول له ولا قوة، ولا خطر فيه بل الإنسان الحي
أخطر وأكثر تهديداً منه ومع ذلك لو قيل لشخص بت هذه الليلة في
هذه الغرفة المظلمة مع جثة ميت فهو لا يفعل، فلا يدعه الوهم
والنفس الجزئية أن يفعل ذلك مع إدراك عقله بعدم الخطر.

ففرق بين علم العقل وبين إدراك الوهم والمتخيلة وبين الحس
المشترك، فلو وصف للإنسان مشهد بشكل نظري فقد لا يتأثر بنفس

الدرجة التي يتأثر بها من يعاين ويشاهد الموقف بحواسه.

نعم، العقل قد يروض النفس ولكن لا يعني ذلكَ عدم انفعال النفس وإثارتها ومكاببتها. نعم بحكم سيطرة العقل لا تنساق النفس وراء تلك الإثارة، فمجرد علم المعصوم بلحاظ عقله وقلبه لا يلغي إثارة النفس وانفعالها بل تثار نفسه وَعَلَيْهِ أَنْ يصبر، وهذا هو معنى الامتحان والتدبير نظير ما تصفه الروايات عَنْ حالة أمير المؤمنين عليه السلام فِي ساعة الهجوم عَلَى دار الزهراء عليها السلام: «وقادوه إلى بيعتهم مصلته سيوفها مشرعة أستتها، وَهُوَ ساخط القلب هائج الغضب، شديد الصبر، كاظم الغيظ يدعونه إلى بيعتهم التي عمَّ شؤمها الإسلام»^(١).

فما حصل مِنْ تَوْهَمٍ هُوَ نتيجة الخلط والمزج بين أحكام العقل والقلب وأحكام النفس الجزئية، وهذا خطأ يوقع في توهمات وإشكاليات.

ولذا لا بُدَّ مِنْ الالتفات إلى أَنَّ علم العقل والقلب شيء. وتأثر النفس الجزئية شيء آخر. وتقدم فيما سبق أَنَّهُ لا مانع مِنْ اختلاف الأحكام والآثار بلحاظ اختلاف الطبقات، فالنفس تتأثر أَمَّا العقل والقلب فلا، نعم النفس والقوى النازلة تعتصم بما فوقها مِنْ الطبقات، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ المعصوم عليه السلام لا يهتدي ولا يعتصم بهداية أحدٍ غَيْرِ معصوم ولكن يعتصم ويهتدي بمن فوقه مِنْ معصوم أكبر أو بالله

(١) مفاتيح الجنان، الزيارة الجامعة لأئمة المؤمنين.

إن المعصومين عليهم السلام صفوة البشرية وروحا..... ٨٥
تَعَالَى.

وَمِنْ مَوَارِدِ ذَلِكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قِصَّةِ السِّحْرِ وَالسَّحَرَةِ الَّذِينَ وَقَفُوا
ضَدَّ مُوسَى حَتَّى ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ وَقِصَّةِ مَرَضِ أَيُّوبَ
وغيرها.

فَإِنَّ هَذِهِ الْمَكَابِدَاتِ كُلَّهَا عَلَى مَسْتَوَى النَّفْسِ النَّازِلَةِ وَالْقَوَى
النَّازِلَةِ وَلَيْسَتْ بِأَكْثَرَ مِنْ وُرُودِ الْجُرُوحِ وَالطَّعْنَاتِ فِي الْحُرُوبِ عَلَيْهِمْ.
وَلَكِنْ قَلْبُ الْمَعْصُومِ وَعَقْلُهُ أَشَدَّ مَنَعَةً مِنْ هَذِهِ الْمَكَابِدَاتِ، وَبِهِ تَعْتَصِمُ
نَفْسُهُ وَرُوحُهُ الْجَزْئِيَّةُ وَقَوَاهُ النَّازِلَةُ.

القاعدة الخامسة:

الفرق بين العصمة الإلهية والعصمة الخلقية

إنَّ العديد من الإشكالات والتوهّمات حول عصمة المعصومين تنشأ من توهم كون عصمتهم إلهية والحال أن هذا لا نقول به فعصمتهم ليست هي عصمة الله تَعَالَى.

العصمة الإلهية:

والمراد من العصمة الإلهية هي الكمالات اللامحدودة الذاتية، وهذه مختصة بالله تَعَالَى وتحدّث عنها العديد من الآيات نحو قوله تَعَالَى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾^(١). ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٢) وهذه الصفات والكمالات من الذات وبالذات وأزلية ومطلقة ولو اتصفت بها أفعاله التي هي مخلوقة له فَإِنَّكَ لا تلاحظ فيها أيّ شائبة مخلوقية، والخلاصة أن العصمة الإلهية هي اللامحدودية في الكمالات

(١) سورة النساء: الآية ١٢٢.

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٦.

واللاتناهي في التنزه والتسييح، وتنشأ كل هذه الأمور من ذاته وبذاته أولاً وقدماً، وهذا البحث لم يطرحه المتكلمون بهذا الاصطلاح.

عصمة النبي:

أما العصمة النبوية فما هو فرقتها عن عصمة الله تعالى وكذلك ما هو فرقتها عن اعتصام غير المعصومين.

إحدى الآيات التي تحيب عن ذلك هو قوله تعالى: ﴿أَفَنَنْهَيْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقَّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ﴾^(١) ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾^(٢) ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّٰثَ عَلَيْهَا﴾^(٣) ويمكن أن نبين الجواب في عدة نقاط:

(١) الفرق بين عصمة المعصوم وبين عصمة الله تعالى هي أن عصمة الله ذاتية منه وبه تعالى، أما عصمة النبي أو الإمام فليست عصمة ذاتية وإنما هي عصمة مستفادة من الله تعالى، فهي ليست عصمة ذاتية لهم ﷺ وإنما عصمة بالغير أي بالله تعالى، وحاجة المعصوم إلى هداية الله تعالى هي مقتضى عبوديتهم كما في الحديث المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: (فوالله ما كذبت ولا كذبت، ولا ضللت ولا ضل بي، ولا نسيت ما عهد إلي، إني إذن لنسي، وإني لعلي

(١) سورة يونس: الآية ٣٥.

(٢) سورة طه: الآية ١٢١.

(٣) سورة البقرة: الآية ٣٧.

بينه من ربي بينها لنبيه ﷺ، فبينها لي، وإني لعلى الطريق الواضح، ألقطه لقطاً^(١) وإن استرفادهم العصمة من الله تعالى هي لمحل فقرهم وحاجتهم إليه تعالى.

(٢) العصمة في النبي والإمام رغم كونها من الله تعالى ولكنها ليست جبرية بل هي داخلة في قاعدة (لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين) كما سيأتي بسط ذلك إن شاء الله، فالمدد من الله تعالى والاختيار من البشر على نحو الأمرين الأمرين، بينما عصمة الله تعالى هي عصمة ضرورية ذاتية أزلية لا محدودة.

(٣) إن العديد من الإشكالات التي وقع فيها النصارى والعرفاء والعديد من المذاهب الإسلامية في تفسير العصمة هو نتيجة عدم الالتفات إلى أن هذه الهداية التي في روح المعصوم إنما تسترشد من الله عز وجل، لا من غير المعصوم؛ ولذا وقعوا في إشكاليات كيفية تفسير ترك الأولى ونحوه.

فالمعصوم في حالة تأييد وتسديد إلهي بخلاف غيره الذي ﴿لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى﴾^(٢) ولا يمكن للمعصوم أن يسترشد الهداية من غير المعصوم وإنما يسترشد من الله تعالى، أو من معصوم أكبر والذي يوصله إليه تعالى كما في اعتصام كل الأنبياء بخاتم الأنبياء وكذلك

(١) أمالي الصدوق: ص ٤٩١ المجلس ٦٣ ح ١٠.

(٢) سورة يونس: الآية ٣٥.

اعتصام أمير المؤمنين عليه السلام بالنبي صلى الله عليه وآله وهذا لا مانع منه.

(٤) إن عصمة النبي والإمام في حالة تكامل والاستفاضة المستمرة من الله تعالى بينما عصمة الله تعالى عصمة لا متناهية في الكمال أزلية ذاتية، غاية الأمر إن المعصوم أكمل كمال بلحاظ ما دونه من المخلوقات، وإن كان هو دون خالقه بفارق العبودية والربوبية، وهو أعظم فارق، وبهذا اللحاظ فهو في حالة تكامل مستمر، وهو أحد وجوه تفسير ترك الأولى كما يأتي.

(٥) إنَّ مما يُفسَّر الفرق بين العصمة الإلهية والعصمة النبوية والولوية هو الالتفات إلى شدة واشتداد الكمالات واختلاف درجاتها فالله عزَّ وجلَّ يوصف بـ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾^(١)، فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَصْدَقُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ولكن لا يعني ذَلِكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ يَكْذِبُونَ - والعياذ بالله - بَلَّ الصِّدْقِ فِي اللَّهِ أَوْسَعُ مِنَ الصِّدْقِ فِي الْأَنْبِيَاءِ.

وكمثال لذلك يُقال في علم المنطق أَنَّ القضية الشرطية أقل صدقاً مِنَ القضية الذاتية. ولا يعني ذَلِكَ أَنَّ القضية الشرطية كاذبة وَإِنَّمَا المراد أَنَّ إراءتها للواقع ليست بسعة القضية الذاتية؛ ولذا يقال للثانية أنها أَصْدَقُ، والقضية الأزلية صدقها أكبر من الذاتية لأنَّ إراءتها للواقع أَرْزَلِي، فمراتب الصِّدْقِ هِيَ بلحاظ سعة وضيق الإراءة ولا

تعني الكذب في بَقِيَّةِ الدرجات. فصدق الله شيء غير صدق النبي ﷺ لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١) ولكن لا يعني هذا أن النبي ﷺ - والعياذ بالله - يكذب فهو ﷺ فهو لا ينطق إلا بالصدق والحق.

توجيه ترك الأولى:

(٦) أمَّا كيفية توجيه (ترك الأولى) وَبَعْضُ مَا يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ يَنَافِي

العصمة فيبانه:

إِنَّ تَوْهَمَ مُحَالَفَةِ تِلْكَ الْأُمُورِ وَمَنَافَاتِهَا لِلْعَصْمَةِ إِنَّمَا يَنشَأُ مِنْ تَوْهَمِ أَنَّ عَصْمَتَهُمْ هِيَ عَصْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَالْحَالُ أَنَّهَا لَيْسَتْ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ مَعْنَى تَرْكِ الْأُولَى أَنَّهُ تَرَكَ مَا يَنْبَغِي فَعَلَهُ بِالْقِيَاسِ إِلَى الْعَصْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ لَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَصْمَةِ غَيْرِ الْإِلَهِيَّةِ، وَتَوَقَّفَ لِحُظَّةِ مَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَصْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ فَلَيْسَتْ الْخَطِيئَةُ فِي تَرْكِ الْأُولَى بِمَعْنَى الْخَطِيئَةِ الْمَعْهُودَةِ عِنْدَ الْآخَرِينَ، وَإِنَّمَا بِمَعْنَى وَجُودِ كِمَالَاتٍ أَعْلَى مِنْهَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا، وَإِلَّا فَالْكِمَالُ الْمَعْهُودُ فَقَدْ وَصَلَ إِلَيْهِ وَتَجَاوَزَهُ، أَمَّا الْكِمَالُ الْمَطْلُوقُ فَهُوَ كِمَالٌ لَا مَحْدُودَ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُوَصَلَ إِلَى نَهَائِهِ لِأَنَّهُ لَا نَهَايَةَ لَهُ، وَإِنَّمَا النَّبِيُّ وَالْإِمَامُ فِي حَالَةِ تَرَقُّقٍ مُتَوَاصِلٍ لَا حُدُودَ وَلَا أَمَدَ، وَالتَّرْنِيمَةُ الدَّائِمَةُ هِيَ (اقْرَأْ وَارْقَأْ) ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. ﴿وَنَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

وهكذا يتبين أن قوله تعالى ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ تعني ماذا؟
 فَلَيْسَ معنى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَسُدِّدْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى بَلْ آدَمُ بِالْقِيَاسِ إِلَى عِلْمِ
 اللَّهِ تَعَالَى يَقُولُ دَائِمًا ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ وكذلك رسول الله ﷺ
 دَائِمًا فِي ذِكْرِ ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، فالله تَعَالَى المعصوم ذاتياً وأزلاً
 وأبداً ولا نهائياً يهدي أوليائه، وهذا هو الفرق بين عصمة الله
 وعصمتهم، فصدق الله ذاتي أمّا صدق النبي فهو ذاتي بالله، وهداية الله
 ذاتية، أمّا هداية الرسول فهي ذاتية بالله وعلم الله ذاتي بينما علم
 الرسول بالله وسداد الله ذاتي وسداده ﷺ ذاتي بالله، فالله تَعَالَى هو الذي
 سدّده وعصمه واصطفاه وطهره «فَلَمْ تَنجَسْهُ الْجَاهِلِيَّةُ بِأَنْجَاسِهَا وَلَمْ
 تَلْبَسْهُ مِنْ مَدَّهَاتِ ثِيَابِهَا» وكما في احتجاج النبي ﷺ على قريش أَنَّهُ
 كيف يمكن لشخص أن يعيش في بيئة جاهلية موبوءة بكل أنواع
 الفواحش والرجاسات والظلم والمفاسد والاستفزازات الغرائزية ولم
 يعهد منه كذبة في قول ولا إثم في عمل إلا بتسديد من الله تَعَالَى وعناية
 منه فهو «الثابت القدم على زحاليها في الزمن الأوّل» كما يصفه أمير
 المؤمنين عليه السلام فعصمته ﷺ هي بالله تَعَالَى.

وكذلك توبة آدم هي من الله تَعَالَى ﴿فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ
 فَتَابَ عَلَيْهِ﴾^(١) وهذا هو استرفاد العصمة من الله تَعَالَى.

الفرق بين عصمة المعصوم وعدالة غيره:

(٧) الفرق بين عصمة المعصوم وعدالة غير المعصوم نراها في قوله تَعَالَى ﴿أَفَنَنْهَىٰ إِلَىٰ الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي﴾ وهذه الآية قاعدة في بيان عصمة المعصوم.

فعصمة المعصوم إنما هي باسترفاد من الله تَعَالَىٰ أو بمعصوم أكبر منه يوصله إلى الله تَعَالَىٰ ولا يأخذ تلك العصمة من غيره؛ ولذا لا يمكن لعقولنا التي «لا تهدي إلا أن تهدي» أن تعترض على المعصوم «الذي يهدي إلى الحق» فعصمة النبي والإمام تختلف عن عدالة العدول أو تقوى المتقين أو يقين أهل اليقين، وعصمة المعصوم فوق ذلك بكثير، وتلك المؤاخذات على المعصومين إنما هي قياساً إلى العصمة الإلهية كما تقدّم، أمّا المعاصي والذنوب فهم بعيدون عنها كل البعد.

فالمعصوم وإن لم تكن له عصمة بذاته ولا غير محدودة كما في عصمة الله تَعَالَىٰ ولكن عصمته متكاملة بالله، ولا مانع من ذلك فالفرق بين العصمة النبوية والولوية عن غيرهم هي قوله تَعَالَىٰ: ﴿أَفَنَنْهَىٰ إِلَىٰ الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي﴾ وقوله تَعَالَىٰ ﴿فَلَقَّيْنَاهُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ وقوله تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ يَسُوعُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ الآية، فالمعصوم هدايته من الله تَعَالَىٰ وهداية الله تفاض عليه، وتكون لهداية ولا يهتدي بغير المعصوم بخلاف غير المعصوم فهدايته من غيره، أمّا المعصوم فلا يطلب الهداية من غيره.

نعم، لا مانع من تكامل معصوم واهتداء معصوم بمعصوم أعلى

مِنَهُ وَأَكْمَلُ مِنْهُ فَالْمَعْصُومُونَ عَلَىٰ دَرَجَاتٍ وَبَيْنَهُمْ تَفَاضُلٌ كَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿تِلْكَ أَلْسُنٌ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾^(١) والأفضل يهدي المفضول وما نشاهده من حالات المعصومين الأربعة عشر أن الأكمل منهم والأفضل منهم يهدي الآخر، وهذا لا مانع منه فالعصمة أن لا يهتدي بغير المعصوم، أمّا هداية المعصوم لمعصوم آخر فلا بأس بها لأنها هداية لدنية نظير بيانات جبرائيل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله.

(٨) إن العادل ليس عدله واقعياً، بل إنما هو محدود ومقيد بحسب ما وصل إليه علمه سواء من جهة علمه بالأحكام أو علمه بالموضوعات الخارجية، وهو في حين أنه علم محدود وذو قصور فهو يخطأ ويصيب في تلك الدائرة المحدودة، فكيف بما وراءها.

ومن ثمّ كان تسمية صفته بالعدالة صورياً ونسبياً، بمعنى أنه لا يعتمد المعصية. لا أنه لا يعصي أو لا يخطأ قصوراً أو تقصيراً لا سيما بلحاظ التقصير بلحاظ المقدمات البعيدة أو القريبة أو المتوسطة البعد، وأما القصور فحدث ولا حرج، وهذا بخلاف المعصوم فإن لديه علم لدني يسدده ويؤيده تنظيراً وموضوعاً بحسب مرتبته في العصمة.

(٩) إن العادل مهما بلغ علمه وزهده وورعه فلا قدرة له على تخطئة المعصوم أو الاستدراك عليه.

القاعدة السادسة:

تكامل المعصوم

وهذه القاعدة من القواعد المهمة والخطيرة التي إن لم يتقنها الباحث سيقع في تساؤلات عديدة وعدم وضوح في قراءة أحوال المعصوم مما يؤدي إلى تشابه ذلك لديه.

ومجمل بيان هذه القاعدة:

إن المعصومين عليهم السلام يتكاملون ولا يس ذلك معناه أنهم أنقص من غيرهم وإنما مع الحفاظ على أفضليتهم على غيرهم ولكنهم في طور التكامل بالقياس إلى كمالات الباري تعالى. فقد تقدم أن كمالات الباري تعالى غير محدودة وذاتية له أولاً وأبداً، بخلاف عصمة الأنبياء والأئمة فهي عصمة مستمدة منه تعالى.

تكامل المعصوم في أي مرتبة:

وتقدم أن وجود المعصوم ذات مراتب مختلفة من نور وعقل وروح ونفس كليين ثم الروح والنفس الجزئيين وبدنه الجزئية، فهل

التكامل هُوَ بلحاظ كُلِّ المراتب النازلة والصاعدة، أم لخصوص المراتب النازلة؟

والتكامل افترضناه في أيِّ مرتبة لأبَدٍ مِنَ الحفاظ عَلَى أَنَّهُمْ صفوة الخلق في أرواحهم وأبدانهم ولكن مَعَ ذَلِكَ يوجد فيهم سير تكامل بمراحل طبيعية ولو بحسب طبيعة المعصوم عليه السلام.

الجهة الأولى للتكامل:

تعدد مراتب وجود المعصوم وتكامل المراتب النازلة بالصاعدة:

مِنَ المقرر في الأبحاث الفلسفية أَنَّ البدن وما فيه مِنْ أرواح وقوى بدنية - وَالَّتِي هِيَ مِنْ النفوس النازلة والغرائز النازلة المتعلقة بالبدن - ليست قابليتها وسعتها الوجودية كقابلية وسعة المراتب العليا.

وكذلك الحال في مراتب وجود المعصوم فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كانوا صفوة الخلق طينة وخلقة وبدناً، ولكن غرائز المعصوم وقواه البدنية النازلة ليست قابليتها وسعتها بدرجة المراتب العليا مِنْ وجوده عليه السلام.

وَمِنَ الواضح أَنَّ تحمُّل هذه المراتب النازلة مِنْ وجوده الشريف لفيوضات المراتب العليا لَيْسَ تحمُّلاً دفعياً وسيعاً بسعة المراتب العليا، وَإِنَّمَا هُوَ تحمُّل تدريجي غَيْرَ آني وَغَيْرَ دفعي وَمِنْ ثَمَّ لأبَدٌ أَنْ تأخذ تلك المراتب النازلة مسير التكامل بالتدرج.

وَعَلَيْهِ فَلأبَدٌ لهذه المراتب النازلة أَنْ تتوسَّع وتتكامل وتتصاعد

لتحمل تلك الفيوضات من الدرجات العالية.

ولذا ورد في بعض النصوص أن المعصوم أول ما يولد، يكون له سهم من روح القدس وكلما يشد ويشتد يزداد له في ذلك.

وقد تكرر النص القرآني ببلوغ الأشد بالنسبة للأنبياء عليهم السلام، ففي وصف يوسف عليه السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۚ ءَأْتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١). وفي موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَسْتَوَى ۚ ءَأْتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢) وفي سائر الناس ﴿وَحَمَلُهُ ۚ وَفِصْلُهُ ۚ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۚ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ (٣) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ (٤) والمراد من بلوغ الأشد، هو اشتداد البدن والغرائز والقوى النازلة، تهيئة وإعداداً لتحمل المراتب العليا.

الارتباط بين المراتب الصاعدة والنازلة في الإنسان:

وإذا أردنا أن نستوضح فكرة التكامل في المعصوم لأبد أن نلاحظ أمثلة عديدة تساعدنا على فهم ذلك.

نلاحظ في القيام ببعض الأعمال والرياضات الروحية أنها إذا

(١) سورة يوسف: الآية ٢٢.

(٢) سورة القصص: الآية ١٤.

(٣) سورة الأحقاف: الآية ١٥.

(٤) سورة الأسراء: الآية ٣٤.

كانت أثقل مِنْ قابليات النفس والبدن، فإنها قَدْ تسبب إعاقه أو شللاً أو لا أقل مِنْ خلل جزئي فِي البدن أو النفس أو آلام وأوجاع فِي الرأس أو سائر أعضاء البدن، أو تحدث لَهُ حالة مِنْ الاختلال فِي الأعصاب أو الغرائز أو القوى النازلة، أو أن يصاب بصدمة فيبتلى بمرض السكري كما فِي الأخبار المفاجئة بالمصيبة، أو قَدْ يصل الخلل إلى ما فوق البدن فيحصل خلط فِي عقله بأن يهذي ونحوه.

وعموماً إن الأعمال والرياضات الروحية إذا كانت أثقل مِنْ قابليات البدن والنفس فإنها قَدْ توجب صدمة وخللاً فِي البدن وقواه والنفس وقواها. وسبب ذَلِكَ أَنَّهُ ليست كُلُّ روح وبدن لها قابلية تحمّل كُلُّ شيء، فإذا حملتها فوق طاقتها فإنها ستصاب ببعض الخلل والإعاقات. فَإِنَّ الأبدان والغرائز والنفوس تختلف فِي قابلياتها.

صلاة الليل عبادة لتوسيع القابليات:

وَرَدَ فِي وصف صلاة الليل: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ قُرْأَيْلًا لِقَلِيلًا نِصْفَهُ وَأَنْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا إِنْ أَسْنَقِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَفِيلاً إِنْ نَاشِئَةُ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْكَ وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾^(٢).

(١) سورة المزمل: الآية ١ - ٦.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٩.

فقيام الليل والتهجد فيه عبادة توسع قابلية الروح للاسترفاد من فيوضات المراتب العالية؛ ولذا فسيد الأنبياء ﷺ بما له من عظمة إذا أراد تلقي القرآن الكريم الذي وصف بأنه «قول ثقيل» فلا بُدَّ أن يروّض نفسه ويعدها.

ولذا فإنَّ بعض المراتب لا يوصل إليها إلاَّ برياضات صعبة وشاقة حتّى أن تصوّر تلك الرياضات والعبادات يوجب استثقلاً في النفس فضلاً عن القيام بها كبعض أعمال ليلة القدر، ويوم عرفة وليلة عيد الأضحى من أذكار وختومات وصلوات ونحوها لا يستطيع الكل أن يأتي بها بل يثقل على البعض تصوّرها.

اختلاف القابليات في الاسترفاد من العوالم العلوية:

إنَّ القابليات في الأبدان والغرائز والنفوس مختلفة، وعليه فتحملها لما يأتيها ويرفدها من المراتب العالية سيختلف والأمثلة على ذلك عديدة.

منها: ما روي أن شخصاً جاء لسيد الشهداء فسأله عن بعض فضائلهم، فقال له «لا تقدر على تحمّل ذلك» فألح عليه ولو بكلمة، فهمس الإمام عليه السلام في أذنه فايض رأس الرجل ولحيته، فبدنه لم يتحمّل كلمة واحدة من فضائلهم حتّى أبيض شعر رأسه ولحيته.

ومنها: ما روي في مرور الإمام الصادق عليه السلام بجبل الكمد مع أحد

١٠٠..... الإمامة الإلهية - قواعد في العصمة
أصحابه يقول عبدالله بن بكير الأرجاني، صحبت أبا عبدالله عليه السلام في طريق مكة من المدينة، فنزلنا منزلاً يُقال: عسفان ثم مررنا بجبل أسود عن يسار الطريق موحش، فقلت له: يا ابن رسول الله ما أوحش هذا الجبل ما رأيت في الطريق مثل هذا، فقال لي: «يا ابن بكير أتدري أي جبل هذا، قلت: لا، قال: هذا جبل يُقال له الكمد، وهو على وادٍ من أودية جهنم وفيه قتلة أبي الحسين عليه السلام استودعهم فيه، تجري من تحتهم مياه جهنم من الغسلين والصديد والحميم» والرواية طويلة يصف فيها الإمام أنواع العذاب ومن يعذب في هذا الجبل من فلان وفلان وأتتهما يستغيثان به فسأله الراوي: جعلت فداك. فانت تسمع ذا كله ولا تفرع، قال: «يا ابن بكير، أن قلوبنا غير قلوب الناس، إنا مطيعون مصفون مصطفون، نرى ما لا يرى الناس ونسمع ما لا يسمعون»^(١) الحديث.

فالأوعية مختلفة والقلوب والنفوس مختلفة في القابلية سعة وضيقاً وهذا هو الذي يسبب التحمل أو عدمه.

ومنها: ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في سبب بطئته عليه السلام: «وأما كبر بطني فإن رسول الله صلى الله عليه وآله علمني باباً من العلم ففتح لي ذلك الباب ألف باب فازدحم العلم في بطني فنفجت عنه عضوي»^(٢) والحديث وإن لم يقبله البعض ولكن ليس فيه أمر غير معقول، فتأثير الجوانب

(١) كامل الزيارات ب ٨ نواذر الزيارات: ح ٢، ص ٥٣٩.

(٢) الخصال للصدوق، ح ٢٦١ ص ١٨٩.

الروحية عَلَى البدن لَيْسَ ممتنعاً ولا غريباً، بَلْ إِنَّ العديِدَ مِنْ أهل المعنى لَمْ يصلوا إلى بَعْض المراتب إِلَّا وأصابتهم رعشة في اليد أو في البدن، أو سماجة وغلظة وَحِدَّة في الخلق، نعم التأثر إلى هذا الحدَّ إِنَّمَا هُوَ في غَيْر المعصومين ﷺ ولكن فيهم فالأمر يختلف.

فأوغل فيه برفق...

وَمِنْ الوصايا النبوية المُهِمَّة المرتبطة بهذا الباب هُوَ ضرورة التدرج والرفق في الرياضات الشرعية، روى الكليني بإسناده عَنْ أَبِي عبد الله عليه السلام قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يا علي إِنَّ هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك فَإِنَّ المُنْتَبِت - يعني المفرط - لا ظهراً أبقي ولا أرضاً قطع»^(١). فالمسرع بالدابة، سيتلف الدابة ولا يقطع شيءً مِنَ الطريق ولا يصل إلى مقصده وغايته.

وهذا البدن، وما فوقه مِنَ الأبدان الأثيرية وغيرها وَحَتَّى النفس إِنَّمَا هِيَ دواب يركبها الإنسان، فالنفس أيضاً ليست هي حقيقة الإنسان وَإِنَّمَا هِيَ دابة للإنسان كَمَا في التعبير النبوي «والنفس مثل أخبث الدواب، فَإِنْ لَمْ تعقل حارت»^(٢) أو كما في التعبير العلوي «إِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يَوْم الخوف الأكبر»^(٣) ففي كل

(١) الكافي: ج ٢، باب الاقتصاد في العبادة: ج ٦ ص ٨٧.

(٢) تحف العقول: ص ١٥ وعنه بحار الأنوار: ج ١، ص ١١٧.

(٣) نهج البلاغة، الكتاب رقم ٤٥.

عالم الحيوان لا تجد في الخبث مثل نفس الإنسان (لا عقله وقلبه وروحه) وَلَيْسَ المراد أَنَّ النفس لا تكون طاهرة أو خيرة أو مطمئنة، وَإِنَّمَا خبثها مِنْ عِدَّة جهات:

منها: أَنَّ النفس بطبعها ذَاتَ غرائز ولو لَمْ تهذب وتعقل بعقل العقل وَلَمْ تروّض ستكون أخبث الدواب.

وَمِنْ جهة أخرى فَإِنَّ فيها بهيمية وغلظة وشدة وشره ونهم؛ ولذا وصفت في النبوي «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»^(١). فأعدى الأعداء ليست الزوجة ولا الصديق ولا العدو المتربص بل هي نفسه التي بين جنبيه، فإنها لو تركت وغرائزها لألقت الإنسان في المهالك والمهاوي.

ولكن مَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ النفس دابة لأبَدَ للإنسان أَنْ يستثمرها ولا يفرط فيها ولا لها، وهذه مِنْ الموازنات الصعبة؛ لأنه إِذَا زاد العبء عَلَيْهَا أو أثقل عَلَيْهَا فَإِنَّهَا ستنفر وتستعصي وتتحطم وتهلك، وسيفقد الإنسان فرصة السير في التكامل فلا يستطيع أَنْ يأتي بعبادة ولا أَنْ يتلقى المعارف والعقائد أبدأً، وَمِنْ جهة أخرى يجب أَنْ لا يترك حبل النفس على غاربها مَعَ ما فيها مِنْ الغرائز، بل الواجب هُوَ التوازن والاعتدال في التصرف مَعَ النفس، وهذا هُوَ ما تعبر عنه الوصية النبوية «فأوغل فيه برفق».

(١) البحار: ج ٦٧ ص ٦٤ عن عدة الداعي.

فللنفس إقبال وإدبار تقبل في بعض الحالات على العبادة والاجتهاد وتدبر في بعض الحالات عنها، والمهم هو السير معها بميزان من الحكمة والسياسة حتى لا يفرط في طاقتها ولا يشدد عليها فيوجب نفرتها؛ ولذا ورد في الوصية النبوية: «إنَّ للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فتنفلوا وإذا أدبرت فعليكم بالفريضة»^(١). فالنفس تحتاج إلى وقت استراحة ومن الخطأ أن تحمل في وقت راحتها على العمل والجهد وإلا فستنفر؛ ولذا في حين التوصيات الأكيدة القرآنية والروائية بعدم الاستجابة لرغبات النفس وعدم الانقياد لها، وردت توصيات أخرى في عدة موارد بالاستجابة للنفس وإعطائها رغبتها^(٢)، حتى لا تتحطم وتهلك.

فللروح لياقات وقابليات وهذه اللياقة والقابلية لم تتحصّل دفعة وإنّما حصلت بالتدرّج كاللياقة البدنية في جسم الرياضي فإنّها تحتاج لفترة حتى تحصل؛ وقد يترك التمرين الذي يحافظ على تلك اللياقة فيحصل تقهقر فيها، فأرجاع تلك اللياقة للأبدان يكون أيضاً بتدرج

(١) الوسائل: ج ١٦، ص ٦٩، ب ١٦ أبواب إعداد الفرائض ونوافلها: ح ٨.

(٢) ومن طريف ما ينقل أنهم وجدوا أحد كبار المجتهدين من أهل المعنى في كربلاء، يشرب الشاي في مقهى، فقالوا له سيدنا كيف تفعلون ذلك وأن هذا لا يليق بكم، فأجابهم: إن عندي أوراداً وأذكّاراً والآن استعصت نفسي، وألّحت على شرب الشاي فقلت أشربها الشاي حتى أريحها ثم أحملها على الورد والذكر، وهذه هي طبيعة النفس بين أخذ وإعطاء.

وتكامل تدريجي، وَقَدْ وَرَدَ «وتخير لها من كل خلق أحسنه، فإن الخير عادة»^(١) و «إنَّ الخير عادة والشر لاجاة»^(٢). «عودوا أنفسكم الخير»^(٣).

تخليص ونتيجة:

ويتلخَّص مما تَقَدَّمَ أَنَّ البدن والنفس وقواها لها قابلية وسعة معينة ومحدودة، ولا يمكن أن يحاسب تكامل النفس والبدن بحساب قدرة وقابلية المراتب العليا، فنوع التكامل يختلف بحسب اختلاف المراتب.

بَلْ قَدْ نَجِدُ أَنَّ البعض قَدْ يكون فاقداً لأي مهارة في المراتب الدُّنيا ففي المهارات البدنية مترجّل جداً، ولكنه مِنْ جهة القدرات العلمية ومهاراتها متبحر وضليع ومتمرس، فالمراتب في الذات متعددة والكمالات متفاوتة.

ومما تَقَدَّمَ من الآيات في بلوغ الأنبياء أشدهم ثمَّ إعطاؤهم الحكمة والعلم، يستفاد رابطة قوية بين العلم والحكمة وبين اشتداد البدن وقواها وغرائزها النازلة، وَعَلَى تعبير بعض المحققين «إنَّ الروح العظيمة لا يمكن أن تنفخ في بدن ضعيفة هزيلة» والفارس القوي يحتاج إلى فرس قوية ولا يمكن أن تحمله فرس هزيلة، فَلأبْدُ مِنْ ترابط وتناسب بين نوع الدابة وقابليتها وبين سعة الروح وقوتها.

(١) تحف العقول: ص ٨٦.

(٢) ميزان الحكمة: ج ٣، ص ٢١٩١ عن كنز العمال.

(٣) الخرائج والجرائح: ج ٢، ص ٥٩٦.

فالحكمة والعلم اللدنيان يحتاجان إلى قابلية وأرضية مناسبة،
 وبعبارة أخرى (مهبط) وليست كـُلُّ الأبدان والأنفس مهبطاً للملائكة
 وَهَذَا هُوَ مَعْنَى ﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ﴾ فمقتضى البشرية الموجودة في
 المعصومين هُوَ التكامـل والرقي في الجنة البشرية فيهم إعداداً
 واستعداداً لهبوط الوحي وفيوضات العالم العلوي عليهم ﴿إِنَّا سَأَلْنَا
 عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾^(١).

الجهة الثانية للتكامـل:

تكامـل العقل والنور في المعصومين عليهم السلام:

الجهة الأخرى للتكامـل في المعصومين هي التكامـل بلحاظ
 العقل والنور، وإنَّ هُنَاكَ نظريتين كلاميتين فلسفيتين بَلْ عِنْدَ المحدثين
 وعموم المدارس المعرفية.

إحداها: وَهِيَ المعروفة بالمصطلح الفلسفي بنظرية (التذكر) وَهُوَ
 مصطلح قرآني كَمَا سَيَأْتِي، وتشهد له العديد من الروايات. ومجملها أَنَّ
 كـُلَّ ما لدى الإنسان مِنْ عِلْمٍ فَهُوَ مَخْبُوءٌ وَمَطْوِيٌّ فِي ذَاتِهِ أَوْ فِطْرَتِهِ أَوْ
 مِيثَاقِ فِطْرَتِهِ وَعَمَلِيَّةُ التَّعَلُّمِ هِيَ تَذَكُّرٌ لَتِلْكَ الخبايا.

وَقَدْ وَرَدَ عَنْ أمير المؤمنين عليه السلام: «فبعث فيهم رسله وواتر فيهم
 أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسي نعمته ويحتجوا

عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم دفائن العقول»^(١). فالفطرة فيها ميثاق ووثاق وهما كالحبل بما فيه من طيّات، ففي الفطرة معلومات ومستندات مطوية؛ جاء الرسل والأنبياء لكي يستأدوا أي يطلبوا أداء ذلك الميثاق من كنز الفطرة.

فمرتبة العقل ومرتبة النور والفطرة عند الإنسان - لا مرتبة النفس الجزئية - ليست أوعية فارغة وخاوية، بل أعطى الله الإنسان في هذه المراتب قدرات كامنة ومكدّسة، وإنّها تحتاج إلى فتق وتفصيل بعد أن كانت رتقاً ومجملة.

ومعنى الإجمال هنا ليس الإبهام بل بمعنى التكديس والدمج والتخزين الذي يحتاج إلى نشر وتفصيل.

وكشرح لهذه النظرية يُقال إنّ البديهيات التصورية والتصديقية هي رأس مال الإنسان في الوصول إلى كلّ المعلومات بما فيها النظريات البعيدة الساحقة والمتوغلة في البعد، والبرهان على ذلك: إنّ الإنسان في كلّ علم إنّما يستخرج المجهولات من إرجاع مراحل الاستدلال إلى التصرّ والتصديق البديهي الأوّل فكأن هذا المبدأ الأوّل قد عبأ وكُدّس وخزن فيه كلّ تصورات وتصديقات ذلك العلم، ولكن أين الرجل الذي له القدرة على استخراج ذلك.

وقد شرحنا رجوع التصديقات إلى التصديق الأولي البديهي في

كتابنا (العقل العملي) وذكرنا نقداً على نظرية المرحوم الشهيد الصدر عليه السلام في كتابه الاستقراء، من أن مصدر الضرورة في الاستقراء هو طفرة خفية يقوم بها عقل الإنسان، وأن هذا هو عمدة مصدر البدييات واليقينات.

وهذه النظرية رغم جدارتها وقوتها ورغم الجهد الذي بذله الشهيد الصدر عليه السلام في بلورتها ولكن لم تبيّن المصدر الأساسي للمعلومات فالصحيح هو ما ذكرناه وأما الطفرة فهي إحدى أدوات الإنسان في عملية التفكير وليست مبدأ المبادئ.

إذن نظرية التذكر تتلخّص في أن اكتساب المعلومات هو على نحو تفتق الرتق وتفصيل الشيء المجمل والمندمج، فالمعنى البديهي التصوري الأوّل تنشعب منه كلّ التصورات النظرية، والمعنى التصديقي البديهي الأوّل، تنشعب منه كلّ التصديقات النظرية اللاحقة، فالتصور الأوّل، والتصديق الأوّل عبارة عن معنى مدمج فيه قابلية أن تفتق منه وتفصل وتتشع ما لا نهاية من التصورات والتصديقات.

النصوص الدالة على نظرية التذكر:

من النصوص التي يستفاد منها نظرية التذكر أن القرآن الكريم يعبر عن نفسه دائماً بأنه ذكر وتذكر، ﴿أَوْعِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(١). ﴿وَمَا

تَسْتَلْهُمَ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١﴾ ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿٢﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٣﴾ ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٤﴾ وغيرها من الآيات الكثيرة في القرآن.

وأيضاً ما ورد في وصف طينة المعصومين والمؤمن والكافر في المجاميع الحديثة من أن طينة أرواح وأبدان الأنبياء والأئمة خلقت من عليين وأن أرواح المؤمنين خلقت من تلك الطينة وأن أبدانهم من دون ذلك. أما طينة الكفار فهي من سجين، وأبدانهم مما دون ذلك. وإن الحدة والغضب هي من طينة سجين، إلا أن هذه الطينة خلطت بطينة العليين ليكون هناك نوع من العشرة بين المؤمن والكافر، وإلا لما كان هناك أي إمكان للمعاشرة بينهما.

وعلى العموم فإن مفاد هذه الأخبار مع تفاصيلها تبين أن الأرواح مخلوقة قبل الأبدان بألفي عام، وأن الأرواح مرت بعوالم عديدة سابقا وفي تلك العوالم أخذ منها موثيق، وأشهدت على حقائق، ومر عليها جملة من الامتحانات كعالم الميثاق وعالم الذر وعوالم الأظلة والأشباح، إلا أن وجود هذه المعلومات في الروح في العقل الباطن، أي في الإرتكازات المدججة بالمعلومات، وهذا نفس مفاد نظرية التذكر.

(١) سورة يوسف: الآية ١٠٤.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٥٠.

(٤) سورة يس: الآية ٦٩.

التذكر والتكامل في المعصوم:

وبناءً على نظرية التذكر يكون أول ما خلق الله تعالى المرتبة العليا من الحقيقة المحمدية وهي نور النبي ﷺ وأنوار الأئمة عليهم السلام، وهذا كله بلحاظ أصل الطينة وأصل النور الذي هو بشكل مجمل ومخزن ومرتق، وإن تفتق هذا النور وتفصيله نوع من التكامل.

ولكن هذا التكامل لا يعني عدم الوجدية للكمالات في تلك المراتب وأنه غير متوفر على خطوة ذلك المقام العالي، وإنما التكامل هو بتفصل ذلك المجمل منه. وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام في وصف معراج رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ بلغ ما بلغ في معراجه بل وصل إلى مرتبة لم يطبقها مخلوق قبله قط، وأن جبرائيل لو دنى قدر أنملة لاحترق فوصل ﷺ إلى تلك المرتبة من القرب ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ لأنه كان من تلك المرتبة وجاء منها وأنه بلغ ما ههناك لأنه جاء من ههناك.

فالوصول إلى تلك المرتبة تكامل، وهذا التكامل في المعصوم عليه السلام في جانب الفتق والتفصيل والصعود لا يعني أنه ليس من ههناك. بل هو من ههناك ولكن التكامل في المراتب النازلة أن يفصل لها مما ههناك.

إذن فهذا لا يعني عدم حظوته لذلك المقام العالي، وإنما يفصل لديه ذلك ولو لم تكن لديه القابلية والقدرة على قبول تلك الفيوضات

لما وصلت إليه، فقابليته تختلف عَنْ البقية رفعة وعلواً وكمالاً وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ تكامله يختلف عَنْ الآخرين، ففي عين تكامله وسيره الصعودي لا يفقد امتيازه واصطفاءه عَلَى الآخرين. فمعنى الاصطفاء هُوَ كونه ذا علو وميزة وقدرة فِي سير هذا التكامل، غاية الأمر هُوَ فِي عين اصطفائه يتكامل ويتصاعد.

وما يفيض الله عَلَيْهِ فِي سيره التكاملي إِنَّمَا يفيضه عَلَيْهِ مِنْ نافذة المرتبة العليا من ذاته، فيجعل الله ذَاتَ النَّبِيِّ ﷺ فِي مرتبتها العليا نافذةً وواسطةً فيض لهُ، فما فِي مكان ذَاتِ النَّبِيِّ بِشكل مرتق ومجمل أعظم مما كَلَّ المراتب مما دونها؛ ولذا وَرَدَ أَنَّ رسول الله ﷺ لَمْ يكلم أحداً بكنهه عقله قط، فما فِي كنهه عقله مِنْ دفائن العقول وموathيق الفطرة لا توجد فِي غيره قط.

وأوّل ما خلق الله تَعَالَى مِنْ نور النَّبِيِّ ﷺ يكون بلحاظ تلك الكمالات المخزّنة والمكدّسة والمرتقة ودفائن العقول وموathيق الفطرة، أمّا التكامل فَهُوَ بلحاظ التفاصيل ولا منافاة بين الأمرين، فَإِنَّ ما فِي مكان فطرته مِنْ موathيق ودفائن وكنوز للعقول باستطاعته أن يفقتها.

مراتب علم المعصوم:

وَمِنْ الإشكالات الَّتِي تطرح وتعالج بما تقدّم مِنْ هذه القاعدة هُوَ السؤال عَنْ حاجة المعصوم إِلَى التعلم، فَالنَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَانَ أوّل ما

خلق الله وفي أوج الكمال، فما حاجته إلى أن يسأل جبرائيل أو الوحي؟
 وإذا كَانَ أمير المؤمنين والصدّيقة الطاهرة والحسنان عليهم السلام أولى
 الأنوار المخلوقة فما الحاجة في أن يتعلموا ويسألوا من فوقهم من
 المعصومين.

والجواب هُوَ عدم المنافاة بين الأمرين ويتبين جوابه مما تقدّم.

وبيان ذلك:

لدينا في علم المعصوم طائفتان من الروايات وَقَدْ جمع وسرد هذه
 الروايات بعض المحققين المتتبعين في كتاب له حول علم الإمام^(١)،
 فجملة من الروايات تبين إحاطة علم المعصوم فعلاً بكل ما دون
 العرش إلى سابع الأرضين، فَهِيَ كراحة كفة ينظر إليها أمامه، وما يطير
 من طائر في مشرق أو مغرب إلّا وَهُوَ يعلم به ويبصر ما تحت إبطي
 جناحيه وحفيفه.

والطائفة الأخرى تدلّ على أن علم الإمام عليه السلام بالمشيئة إذا شاء
 علّم وإذا طلبوا من الله تَعَالَى العلم علّمهم، وهاتان طائفتان
 مستفيضتان، وَقَدْ حاول العديد من الباحثين أن يجمعوا بين الطائفتين
 بجموع شتى مختلفة أو أن يرجحوا إحداهما على الأخرى، وَقَدْ تكون

(١) المحقق المتتبع السيّد عبدالحسين الدزفولي اللاري في كتاب لطيف له في علم الإمام
 بعنوان (المعارف السليمانية).

جَلَّ تلك الجموع صحيحة وَغَيْر متناقضة ولكن مِنْ حيثيات متعددة.

بل وهناك طائفة ثالثة ربما لم يتعرض لها المحقق المذكور دالة على
تداوم ازدياد علمهم كل سنة بل كل ليلة جمعة بل في الليل والنهار بل
في كل ساعة، ولولا استزادتهم لنفد ما عندهم^(١).

وَإحدى الجموع القديمة الَّتِي كُنَّا نبني عَلَيْهَا وَهِيَ متينة فِي نفسها
وَإِنْ لَمْ يَكُن فِيهَا استقصاء كامل: إِنَّ علم الإمام عليه السلام بلحاظ مراتبه
العليا مِنْ نور أو عقل يكون فعليا إحاطياً لِأَنَّ الوجود العلوي لَهُ عليه السلام
وسيع جداً وَمِنْ ثَمَّ يَكُون العلم فيه فعلياً، والتعلم التدريجي إِنَّمَا هُوَ
بالنسبة إِلَى مراتبه النازلة مِنْ وجوده الشريف.

وَمِنْ الشواهد المِهْمَّة عَلَى فعلية علم المعصوم الإحاطي بلحاظ مرتبته
العليا هُوَ ما وَرَدَ فِي بَعْض أدعية الإمام السَّجَّاد عليه السلام مِنْ مدح للنبي صلى الله عليه وآله
«وَقَلْتَ جَلَّ قَوْلِكَ لَهُ حِينَ اخْتَصَصْتَهُ بِمَا سَمِيَتْهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ ﴿طه﴾ مَا أَنْزَلْنَا
عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿﴾ وَقَلْتَ عَزَّ قَوْلِكَ ﴿يس﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمِ ﴿﴾ وَقَلْتَ
تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُكَ ﴿ص﴾ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ﴿﴾ وَقَلْتَ عَظُمْتَ الْآوَكُ
﴿ق﴾ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ ﴿﴾ فَخَصَصْتَهُ أَنْ جَعَلْتَهُ قَسْمَكَ حِينَ اسْمِيَتْهُ
وَقَرَنْتَ الْقُرْآنَ بِهِ فَمَا فِي كِتَابِكَ مِنْ شَاهِدٍ قَسَمَ وَالْقُرْآنَ مَرْدَفَ بِهِ إِلَّا وَهُوَ
اسْمُهُ وَذَلِكَ شَرَفٌ شَرَفْتَهُ بِهِ وَفَضْلٌ بَعَثْتَهُ إِلَيْهِ... الخ»^(٢).

(١) بصائر الدرجات المجلد ٢ ص ٧١٣ ج ٨ ب ١٠.

(٢) الصحيفة السجادية للسيد الأبطحي دعاؤه في يوم الفطر ص ٣١٠.

فَيَنْ عَلِيًّا لَنَا أَنْ مَقَامَ النَّبِيِّ ﷺ فَوْقَ مَقَامِ الْقُرْآنِ؛ وَلِذَا فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَقْرَنُ بِهِ وَيَتْلُوهُ وَيُرَدِّفُهُ، فَجَعَلَ النَّبِيَّ أَوْلَىٰ بِالذِّكْرِ ثُمَّ الثَّنِيَّةَ بِمَقَامَاتِ الْقُرْآنِ لَيْسَ تَفْتَنَانِي فِي التَّعْبِيرِ بَلْ هَذِهِ تَرَائِبٌ لَهَا مَدَالِيلُهَا اللَّطِيفَةُ.

فمقام حقيقة النبي ﷺ يستوعب كل مقامات القرآن الذي يوصف بقوله تعالى ﴿وَمَا مِنْ غَابَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وهذه إحدى منازل القرآن الغيبية نظير القرآن الكريم والقرآن المجيد واللوح المحفوظ، فإذا كَانَ الْكِتَابَ الْمُبِينِ يستطر فيه كُلُّ شَيْءٍ فكيف بك بحقيقة النبي ﷺ التي هِيَ أَعْلَىٰ مِنْ حَقِيقَةِ الْقُرْآنِ.

وَمِنْ النُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ فِي حَدِيثِ الثَّقَلَيْنِ «إِنِّي مَخْلُفٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ» ثُمَّ قَالَ: «وَأَمَّا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّىٰ يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ» بل في معتبرة شعيب الحداد عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: «أنا أول قادم على الله، ثم يقدم علي كتاب الله، ثم يقدم علي أهل بيتي» الحديث^(١). فَهُوَ الَّذِي خَلَفَهُمَا، وَمَرَجَعُهُمَا إِلَيْهِ وَوَرُودُهُمَا عَلَيْهِ فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ، وَهَذَا الْمَبْدَأُ وَالْمُنْتَهَىٰ فِي دَوْرِ الثَّقَلَيْنِ يَبِينَانِ إِشْرَافَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِمَا وَبِالتَّالِيِ عِلْمُ مَقَامِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ مَقَامِهِمَا.

وَعَلَى الْعُمُومِ فَالْعِلْمُ الْإِحَاطِيُّ فَعَلِيٌّ بِلِحَازِ الْمَرَاتِبِ الْعُلُويَّةِ بِحَسَبِ بَيَانَاتِ الْوَحْيِ وَمَقْتَضَى الْقَوَاعِدِ الْعَقْلِيَّةِ، أَمَّا بِلِحَازِ الْمَرَاتِبِ النَّازِلَةِ فَطَبِيعَتِهَا

هُوَ القبول والاستفاضة التدريجية للكمالات الفوقية لا القبول الدفعي الواسع بسعة وجود المراتب العليا. وسبب ذَلِكَ أَنَّ بدن المعصوم ونفسه الجزئية لَيْسَ فيها سعة وقدرة وقابلية نور المعصوم وَحَتَّى بدن الإنسان الاعتيادي ونفسه لَيْسَتْ بقدرة روحه؛ ومثال ذلك فيه أَنَّ ما درسه الإنسان مِنْ الكتب وباحثها وخزنها في ذاكرته وعقله الباطن لو أراد أَنْ يستحضرها دفعة واحدة، ربما يصيبه عوق أو خلل في بدنه لِأَنَّ البدن لا يستطيع أَنْ يستقبل كُلَّ ما هُوَ موجود في الذاكرة أو العقل الباطن دفعة واحدة وَهَذَا شبيه ما هُوَ في الحواسب الآلية - الَّتِي قِيلَ أَنَّها صممت وفقاً لخريطة الإنسان - فَإِنَّ ما هُوَ موجود في الحافظة الداخلية للحاسوب معلومات كثيرة وثقيلة جداً ولكن إِذَا أراد أَنْ يفتح كُلَّ تلك الملفات في سطح المكتب أو الصفحة الأولى، لاختل عمل الحاسوب وربما توقف عَن العمل، فَكُلَّ تلك المعلومات لأَبَدٍ مِنْ استحضارها تدريجاً في الصفحة الظاهرية للحاسوب.

فطبيعة عالم المادة طبيعة لا تتحمل كُلَّ قدرات العوالم الأعلى منها كالمثال وما فوقه؛ ولذا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾^(١)، فطبيعة المادة، مقدرة بأطر وقوالب وأبعاد ولا تتحمل القبول الدفعي الواسع للكمالات العوالم الأعلى منها فَلأَبَدٍ مِنْ التدريج والتكامل، وَهَذَا جواب متين وصحيح ولكن غَيْر شامل

لِكُلِّ الزوايا.

وبعبارة أخرى: يتلخص هذا الجمع بأن نحمل العلم الفعلي الإحاطي عَلَى ما هُوَ موجود في المراتب العليا للذات بنحو الرتق والإجمال بمعنى الاندماج لا الإبهام، والتكامل هُوَ تفصيلها وخروجها مِنْ هذا الإجمال إلى التفصيل الفعلي في المراتب النازلة، وإن كَانَ في الإجمال فعلية بنمط آخر.

الوجه الثاني للجمع:

إِنَّ ذَاتَ المعصوم عليه السلام إِذَا لوحظت بالنسبة إلى ما فوقها وَهُوَ الباري تَعَالَى فَهِيَ ذَاتٌ محدودة مُحاطة وفقيرة ولا يُقاس بين الخالق والمخلوقات؛ ولذا وَرَدَ في أدعية شهر رجب «لا فرق بينك وبينها إِلَّا أَنهم عبادك وخلقك»^(١) الحديث، في إشارة إلى أَنَّ عبوديتهم ومخلوقيتهم لله هِيَ ملاك الحاجة والفقير إليه تعالى، وهذا شامل لِكُلِّ مراتب وجود المعصوم عليه السلام حَتَّى العالوية وَحَتَّى الصادرة أَوْلًا فَهِيَ محتاجة وفقيرة إليه تَعَالَى، ولازم ذَلِكَ أَنَّ استفاضتها مِنْ الله وإفاضة الله لها مستمرة لا تنقطع، فيحمل مفاد الطائفة الأولى عَلَى سطح ودرجة مِنْ العلم الفعلي في تلك المراتب العليا، ومفاد الطائفة الثانية عَلَى هذه الاستفاضة والاستزادة حَتَّى في المراتب العليا مِنْ الله تَعَالَى.

(١) مفاتيح الجنان، ما يدعى به في كل يوم من رجب، الدعاء الخامس.

وهذا لا ينافي أن تلك المراتب العليا هي مراتب مطلقة ولا متناهية وذلك لأن اللامتناهي على معانٍ وأنواعٍ وأصنافٍ عديدة، فهذا القرآن يصف نفسه في آيتين بعدم التناهي والنفاذ، كما في قوله تعالى ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾^(١) وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢) فهذه لا محدودية ولا تناهي ولكنها لا محدودية ولا تناهي مخلوقية، وليست خالقية، ولا محدودية المخلوق تختلف عن لا محدودية الخالق، والمخلوق اللامحدود غير متناهٍ بلحاظ ما تحته ولكن بلحاظ ما فوقه فهو محدود ومحاط لأنه مخلوق فكل شيء بالنسبة إلى الله تعالى محدود ومحاط وفقير لأنه مخلوق له، ومقتضى محدوديته وفقره وتعلقه بالخالق هو دوام استفاضته واستمداده منه تعالى، وتوهم الانقطاع والاستغناء ناشئ من ذهنية تفويضية تفترض استقلالاً للمخلوق المعلول عن خالقه.

ومن الشواهد على هذا الوجه الثاني هو ما ذكرناه من أن كل مخلوق بالنسبة إلى خالقه محدود، وأهم معاني المحدودية هي الفقر والتقوّم، فالذات الإلهية لا يقاس بها أي مخلوق حتى الصادر الأوّل؛

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٩.

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٧.

ولذا وَرَدَ فِي تَفْسِيرِ التَّكْبِيرِ تَخْطِئَةُ تَفْسِيرِهِ بِ(أَنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) وَأَنَّ هَذَا التَّفْسِيرَ يَسْتَلْزِمُ نَوْعًا مِنَ الشَّرْكِ لِمَا فِيهِ مِنْ جَعْلِ النَّدِّ لِلَّهِ وَبِالتَّالِيِ فَرَضَ الْمَحْدُودِيَّةَ لَهُ تَعَالَى، بَلَّ الْمَرْضِي عِنْدَ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ (أَنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ)؛ لِأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُقَاسَ وَكَيْفَ يُقَاسَ إِلَى مَنْ لَيْسَ لَهُ شَرِيكَ وَلَا كَفْوٌ مِنْهُ هُوَ مَحْتَاجٌ إِلَيْهِ فِي ذَاتِهِ، إِذِ الْمَقَاسِيَّةُ تَتَضَمَّنُ تَحْدِيدَهُ تَعَالَى، وَإِلَّا فَلَا تَتِمُّ الْمَقَاسِيَّةُ مَا لَمْ تَفْتَرِضْ حُدُودَ لَطَرَفِيهَا، كَمَا أَنَّ الْمَقَاسِيَّةَ تَسْتَلْزِمُ إِحَاطَةَ مَنْ يَقُومُ بِالْمَقَاسِيَّةِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَإِلَّا لَا تَتِمُّ الْمَقَاسِيَّةُ، فَالْصَّادِرُ الْأَوَّلُ دُونَ الْخَالِقِ، وَلَا يُمْكِنُ الْمَقَاسِيَّةُ، بَلْ لَا يُقَاسُ بِهِ عَالَمُ الْأَسْمَاءِ، إِذْ كَلَّهَا مَمْلُوكَةٌ لَهُ تَعَالَى ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (١)

وَمِنْ شَوَاهِدِ هَذَا الْأَمْرِ مَا وَرَدَ فِي النُّصُوصِ مِنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخَذَ الْبَدَاءَ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ (٢)، وَأَنَّ عِلْمَ اللَّهِ عَلِمَانٌ كَمَا وَرَدَ فِي عِدَّةِ نُّصُوصٍ مِنْهَا مَا عَنِ أَبِي بَصِيرٍ عَنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ عِلْمَيْنِ عِلْمٌ مَكْنُونٌ وَمَخْزُونٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ، مِنْ ذَلِكَ يَكُونُ الْبَدَاءُ وَعِلْمٌ عَلَّمَهُ مَلَائِكَتُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنْبِيَآئُهُ فَنَحْنُ نَعْلَمُهُ» (٣).

وَمِنْ نَفْسِ النَّسْقِ الرَّوَايَاتِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ خَلْقِ الْأَسْمَاءِ وَعَنْ

(١) سورة الإسراء: الآية ١١٠.

(٢) الكافي: ج ١، ص ١٤٧، باب البداء ح ٣-٢٣، وح ١٥.

(٣) الكافي: ج ١، ص ١٤٨، باب البداء ح ٨.

الاسم المستأثر الذي لم يظهره لأحد فَهُوَ غَيْبٌ فِي ذَاتِهِ لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، كَمَا فِي خَبَرِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَمْرٍو عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ اسْمًا بِالْحُرُوفِ غَيْرِ مَتَّصُوتٍ - إِلَى أَنْ قَالَ - فَجَعَلَهُ كَلِمَةً تَامَةً عَلَى أَرْبَعَةِ أَجْزَاءٍ مَعًا لَيْسَ مِنْهَا وَاحِدٌ قَبْلَ آخِرٍ، فَأَظْهَرَ مِنْهَا ثَلَاثَةَ أَسْمَاءٍ لِفَاقَةِ الْخَلْقِ إِلَيْهَا وَحَجَبَ مِنْهَا وَاحِدًا وَهُوَ الْاسْمُ الْمَكْنُونُ الْمَخْزُونُ فَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ الَّتِي ظَهَرَتْ فَالظَّاهِرُ هُوَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى أَنْ قَالَ، وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ الثَّلَاثَةُ أَرْكَانٌ وَحَجَبَ الْاسْمُ الْوَاحِدَ الْمَكْنُونُ الْمَخْزُونُ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ» الحديث^(١).

وَمِنْ هَذَا الْاسْمِ الْمَخْزُونِ يَكُونُ الْبَدَاءُ الْأَعْظَمُ، وَحَاصِلُ أَحَدِ وَجُوهِ الْبَدَاءِ هُوَ تَدَاوُمُ الْإِفَاضَةِ بِالشَّأْنِ الْجَدِيدِ مِمَّا يَحْدُثُ فِيهِ تَفْصِيلٌ جَدِيدٌ لِلْمَجْمَلِ.

فَالْبَارِي تَعَالَى مُحِيطٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ وَلَا يَحِيطُ الْمَخْلُوقُ بِالْخَالِقِ، وَأَشَدُّ فَرْقٍ بَيْنَهُمَا هُوَ الْعِبُودِيَّةُ الْمَوْجِبَةُ لِلْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ وَالتَّقَوُّمُ بِالْخَالِقِ الْمَعْبُودِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْفُقْرَةِ الْمَذْكُورَةِ مِنْ أَدْعِيَةِ شَهْرِ رَجَبٍ، فَبِمَقْتَضَى هَذَا الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ وَلَا نِهَائِيَّةِ عِظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَبَدٍ أَنْ تَكُونَ الْإِسْتِرَادَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مُسْتَمِرَّةً.

والفرق بين هذا الوجه والوجه السابق أن هذا الوجه بلحاظ

(١) الكافي: ج ١ ص ١١٢، باب حدوث الأسماء: ح ١.

المراتب الصاعدة، والتكامل والاستزادة بحسب المراتب العليا، وذلك الوجه هُوَ بلحاظ المراتب النازلة، بأن يصير ما هو مدمج ومرتق في المراتب العليا مفصلاً بالتدرج في المراتب النازلة، فالمراتب العليا علمها اندماجي والنازلة تكاملها بالتفصيل.

موازنة وجهي الجمع:

إِنَّ مَا تَقَدَّمَ مِنْ وَجْهِ الْجَمْعِ لَا تَنَافَى فِيهَا بَيْنَهَا، بَلْ تَتَأَلَفُ وَيَكْمَلُ بَعْضُهَا بَعْضًا مِنْ الزَّوَايَا الْمُخْتَلَفَةِ فَبَعْضُ مَا تَقَدَّمَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْجِهَةِ الْفَاعِلِيَّةِ وَالْبَعْضُ عَنِ الْجِهَةِ الْقَابِلِيَّةِ، كَمَا أَنَّ هُنَاكَ وَجْهَ جَمْعٍ أُخْرَى مُورِدِيَّةٌ. بِأَنَّ تَحْمِلَ الطَّائِفَةِ الْأُولَى عَلَى مَا عِلْمٌ مِنَ الْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ، وَالطَّائِفَةِ الثَّانِيَّةِ عَلَى الْقَضَاءِ غَيْرِ الْمُبْرَمِ، وَلَا مَنَافَاةَ بَيْنَ هَذِهِ الْوُجُوهِ.

بيان ذلك:

إن الفرق بين الجمع الأوّل والجمع الثاني أنّ الأول يرجع إلى نظرية التذکر المتقدمة، ولكن الجمع الثاني ليس مبنياً على التذکر بل على الاستزادة بمعنى الكسب.

ونظريتا التذکر والكسب قابلتان للجمع لأنّ في النظرية الأولى لا يهمل دور الكسب وكذلك العكس وَقَدْ وَرَدَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «العلم علمان، مطبوع ومسموع ولا ينفع المسموع إذا لم يكن المطبوع»^(١)

ولا تنافي بين القسمين لِأَنَّ العلم المسموع هُوَ الَّذِي يُفْتَقِ المطبوع والمرتكز المُرتَقِ مِنَ العلوم إِنَّمَا يَصَارُ إِلَى تفصيله بالكسب والعلم المكتسب، نعم مِنْ جهة أُخرى فَإِنَّ المكتسب لا ينتج إِلَّا بالمطبوع؛ ولذا أُمر بالكسب والسمع وَلَمْ يَكْتَفِ بالمطبوع، وكذا العكس.

وهذا راجع إلى قاعدة «لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين» فلا جبر أي لا يرجع كُلُّ شيء إلى ما طبع وفطر عَلَيْهِ الشخص مِنْ علم، ولا تفويض أي لا يكون كُلُّ شيء بالكسب، بَلْ أمر بين أمرين وجانبين، جانب ربّاني بالخلق والطبع وجانب خلقي بالفعل والاختيار، وَقَدْ وَرَدَ عَنِ الإمام الرضا عليه السلام أَن لا تعتمدوا عَلَى أعمالكم مِنْ دون مودتنا وشفاعتنا، ولا تعتمدوا عَلَى مودتنا وولايتنا مِنْ دون العمل الصالح.

وهذه الثنائية كَيْسَتْ فَقَطْ فِي النجاة الأخروية، وَإِنَّمَا حَتَّى فِي كسب العلم وسائر الكمالات، فالوصول لا يكون بمجرد توسل ودعاء مِنْ دون عمل ولا العكس.

وهذا فِي كُلِّ الكمالات ولا يترك السعي بمجرد ما قدر الله وكتب لشخص مِنْ وصول إلى الكمال حَتَّى فِي المعصومين، فبرغم ما قدر الله لهم مِنْ كمالات ومقامات فَإِنَّ ذَلِكَ لا يعني تركهم للسعي والمجاهدة والمكابدة، فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سَلَّمَ عَلَيْهِ كُلُّ حَجْرٍ عِنْدَمَا ولد بأنه أشرف المخلوقين وَمَعَ ذَلِكَ قَالَ: «ما أُوذِيَ نبي مثلما أُوذيت»، ولا تنال المعالي إِلَّا بالتعب والجهد لا بالترف والتواكل، كَمَا أَنَّ كُلَّ شيء

لَيْسَ بالتعب والجهد والكسب والسعي بَلْ لأبَدٍ مِنْ الاستمدادِ مِنْ الله والتوسل بأوليائه والطهارة والنظافة الروحية وأداء الأعمال الصالحة الَّتِي توجد القابلية فِي وعاء التعلم.

فَهَذَا جنبتان فِي التكامل وَهذا بيان آخر وصياغة أُخرى لقاعدة الأمرين أمرين.

وَعَلَى كُلِّ لَيْسَ كُلُّ شيءٍ بالعلم المطبوع ولا كُلُّ شيءٍ بالعلم المسموع.
وَمِنْ هُنَا نصل إلى جمع بين النظريتين.

الجمع بين نظريتي التذكر والاستزادة:

والجمع هُوَ بنظرية ثالثة تآلفية وَهِيَ أَنَّ التعلم استزادة وما هُوَ موجود فِي الطينة مُعَدِّ وَمُهَيِّأً لقبول هذه الزيادات، فَمَا فِي الطينة لَهُ دخل إعدادي فِي هذا التكامل وربما يكون هذا تفسيراً لفتق الرتق وتفصل المجمال، فالفتق استزادة والنسبة بين الفتق والرتق هِيَ نسبة الزائد والناقص، ولكن بينهما علاقة المستعد والمستعد لَهُ، أَيَّ علاقة إعدادية.

فالاستزادة حقيقة موجودة ولها ارتباط وثيق بمكنون الطينة والظفرة بما فيها مِنْ موثيق، وَهذا الارتباط هُوَ علاقة الإعداد والقابلية.

تلخيص القاعدة السادسة:

تحصل عدة نقاط:

(١) إِنَّ تكامل المعصوم عليه السلام بلحاظ مراتب ذاته وَكُلِّ مرتبة تختلف

عن المرتبة الأخرى ويجب أن لا يُقاس الجميع بمعيار واحد.

(٢) إنَّ التكامل يمكن أن يصوّر في المراتب الصاعدة كما يصور في المراتب النازلة؛ وَذَلِكَ إمَّا بنظرية الرتق والفتق أي الإحكام والتفصيل، وإمَّا بنظرية الاستزادة مِنْ الله تَعَالَى بمقتضى مخلوقيتهم وحاجتهم إليه تعالى.

(٣) ويتبين مِنْ خلال هاتين النقطتين الجمع بين كونهم نور الأنوار وأوّل ما خلق الله، وبين مكابدتهم وسعيهم في التكامل وأنَّ هاتين الجهتين تشكّلان الجنبه الوحْيانية والجنبه البشرية فيهم، وإنَّ مِنْ أهم أسباب الخلط وعدم الجمع بين هذه الجهات هُوَ توهم أن ذواتهم مِنْ طبقة واحدة، بل طبقات الوجود متعدّدة ومترابطة.

وَكُلُّ ما في الطبقة الأولى يقوم بها ما دونها؛ ولذا فإنَّ الصادر الأوّل للفيض الإلهي ممرٌّ لِكُلِّ الصوادر الأخرى ووسيط في وصول الفيض إليها فكلُّ ما دونها مِنْ فضلها بإفضال مِنْ الله تَعَالَى؛ ولذا ورد عَنْ أمير المؤمنين عليه السلام « لا يقاس بأل مُحَمَّد صلى الله عليه وآله مِنْ هذه الأمة أحد ولا يسوى بهم مِنْ جرت نعمتهم عَلَيْهِ أبدأ»^(١) وكما يقال إن المعاليل اللاحقة هي شؤون العلة الأولى كذلك هي شؤون المعلول الأوّل مَعَ الفارق أنَّ الباري واجب الوجود لذاته والصادر الأوّل قائم بالغير، ويشبهون ذَلِكَ بالشمس التي تسطع على مرآة ضخمة صافية شفافة

ومنها انعكس على باقي المرايا فكل ما فيها من الأولى، مع أن المرأة الأولى ليس نورها ذاتياً وإنما هو انعكاس لنور الشمس، وكذلك في طبقات الوجود الواحد فإن الطبقات العليا تقوم بها الطبقات النازلة وتدبرها، فعقل الإنسان يدبر شؤون بدنه فيدبر أمر المعاش من الزرع والسقي واللباس، فكل هذا صنع للإنسان ولكن يعود إلى بدنه أمّا عقله فلا يعطش ولا يجوع ولا يبرد ولا يحتر ولكنه يدبر المراتب النازلة.

وهكذا هداية الله تعالى للمراتب النازلة بتوسط المراتب العليا تكون بشكل تدريجي تكاملي، وقد تقدم أن من أسبابها هو عدم تحمل المراتب الدنيا كل ما في المراتب العليا وعدم استيعابها لها دفعة واحدة.

تكمال المعصومين عليه السلام برسول الله صلى الله عليه وآله ونقلهم السنة عنه:

من المهم الالتفات إلى أن طريقة تكامل المعصومين برسول الله صلى الله عليه وآله وتلقيهم السنة عنه ليس فقط عبر البدن الشريف للنبي وأسماعهم المادية كما هو الحال في علاقة الآخرين به صلى الله عليه وآله، فليست القناة الرابطة لهم برسول الله صلى الله عليه وآله هي خصوص القناة الحسية، وإنما القناة الأساسية في التلقي هي القناة الملكوتية والغيبية والإلهامية، نظير تحديث النبي صلى الله عليه وآله عن جبرائيل وتحديث جبرائيل عن الله تعالى، فهذه القناة ليست حسية وإنما غيبية ملكوتية.

وعليه فتحديث المعصومين عليه السلام بعضهم عن بعض وصولاً إلى النبي صلى الله عليه وآله والعننة بينهم ليست عننة حسية بنقل حسي، بل هي أعلى

مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا مَا نَجِدُهُ عَيْنًا فِيمَا رَوَاهُ الْفَرِيقَانِ مِنْ قَوْلِ جَبْرَائِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي تَبْلِيغِ الْبَرَاءَةِ: «لَا يُؤَدِي عَنْكَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ»^(١) فَمَا الْمُرَادُ مِنْ «لَا يَبْلُغُ عَنْكَ إِلَّا أَنْتَ»؟ الْمُرَادُ هُوَ تَبْلِيغُ الْمُرْتَبَةِ النَّازِلَةِ مِنْ فَمِهِ الشَّرِيفِ عَنْ رُوحِهِ الْعَلِيَّاءِ الْمُتَّصِعِدَةِ، وَكَذَلِكَ فَإِنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ يَبْلُغُ عَنْ رُوحِ النَّبِيِّ ﷺ الْمُتَّصِعِدَةِ الْعَلِيَّاءِ وَيَتَلَقَّى لَا عَنْ فَمِهِ الْمُبَارَكِ فَحَسَبَ، بَلْ يَتَلَقَّى عَنْ رُوحِ النَّبُوَّةِ فِي الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ.

وَهَذِهِ الرَّؤْيَةُ تَفْتَحُ بَابًا وَاسِعًا فِي تَفْسِيرِ وَتَحْلِيلِ حَقِيقَةِ السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ وَدَرَجَاتِهَا وَتَلْقِيهَا وَحِفْظِهَا.

فَسَنَةُ النَّبِيِّ ﷺ لَا تَقْتَصِرُ عَلَى أَلْفَاظِ الْحَدِيثِ وَلَا يَصِحُّ أَنْ نَفْسَرَ السَّنَةَ بِذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنْ التَّدْنِي فِي الْمَعْرِفَةِ، فَلَيْسَ مَصْدَرُ عِلْمِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ خُصُوصٌ مَا سَمِعُوهُ مِنْ أَلْفَاظِ أَوْ قَرَأُوهُ مِنْ نَقُوشٍ فِي الْكُتُبِ الَّتِي هِيَ بِإِمْلَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَطِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِلَّا لَكَانَتْ قِرَاءَتُهُمْ وَاسْتِتَاجَهُمْ وَتَتَبِعُهُمْ لِتِلْكَ الْكُتُبِ الْعَظِيمَةِ الْمَهُولَةِ بِمَا فِيهَا مِنْ مَعَادِلَاتٍ كَثِيرَةٍ قِرَاءَةُ ظَنِيَّةٍ حُدُوسِيَّةٍ اجْتِهَادِيَّةٍ؛ إِذْ كَانَ يَتَعَامَلُ مَعَهَا كَمَطْلُوقٍ وَمَقِيدٍ وَعَامٍ وَخَاصٍّ وَحُكْمٍ وَاقِعِيٍّ وَحُكْمٍ ظَاهِرِيٍّ كَمَا يَجْلُو لِلبَعْضِ - وَمَعَ الْأَسْفِ - أَنْ يَسْمُوا الْأُمَّةَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَجْتَهِدِينَ، وَالْحَالُ أَنَّ عِلْمَهُمْ لَدُنِّي وَمُرْتَبَطٌ بِهَذِهِ الْكُتُبِ الَّتِي وَرَثُوهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(١) الخصال للصدوق: ص ٥٥٨؛ ومسنَد أحمد: ج ١، ص ١٥١؛ ومستدرك الحاكم: ج ٣،

وعلي عليه السلام، وليس علماً اجتهادياً، والسؤال عن كيفية الاستتاج المعصوم من تلك الكتب؟.

والجواب: إنَّ حقيقة كتاب الجامعة والجفر وغيرها مِنْ كتب سنن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليست هِيَ مجرد النقوش والأوراق بَلْ لها حقيقة فوق الحسِّ، ومقام غيبي فوق مقام المادة، كَمَا فِي القرآن الذي ليست حقيقته هذا المصحف بما فيه مِنْ نقوش وأوراق، وَإِنَّمَا هذا المصحف هُوَ تنزيل الكتاب أيَّ مرتبة نازلة ومنتزلة مِنْهُ، أمَّا مرتبة القرآن المجيد والقرآن الكريم والقرآن العظيم وأم الكتاب والكتاب المكنون وما إلى ذلك من المقامات الملكوتية الغيبية للقرآن فَهِيَ لَيْسَتْ مرتبة تنزيل الكتاب؛ ولذا شبه القرآن فِي حديث الثقلين بالحبْل الممدود الذي لَيْسَ طرفاه بيد الناس بَلْ طرف واحد هُوَ الطرف النازل الذي عِنْدَ الناس، أمَّا طرفه العالي الصاعد فَهُوَ مقامه الغيبي التكويني وَهُوَ عِنْدَ الله تَعَالَى؛ ولذا قِيلَ فِي القرآن الكريم «أقرأ وأرقاً» أيَّ ارتفع واصعد.

وكذلك الأحكام الشرعية ليست كُلَّ درجاتها ومراتبها على قرار واحد ومنزلة واحدة، إذْ لها تقرّر فِي اللوح المحفوظ وتدوين تكويني فِي تلك المرتبة لا تدوين خطّي نقشي.

كَذَلِكَ السنة النبوية لها حقيقة غيبية ملكوتية وهذه النقوش إِنَّمَا هِيَ تنزلات تلك الحقيقة، وهذا لَيْسَ خاصّاً بسنته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ يجري ذَلِكَ حتَّى فِي مصحف فاطمة عليها السلام، فَهُوَ لَيْسَ كتاباً مدوناً وحسب بَلْ هُوَ

مقام غيبي، تكون فاطمة عليها السلام واسطة في إيصاله إلى الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، وكذلك الصحيفة السجّادية ليست مجرد ألفاظ منقوشة بل حقيقتها مقام غيبي، وهذه الألفاظ المنقوشة تنزلات لذلك المقام الغيبي.

والمحصّل أن تلقي المعصوم عن المعصوم في الدرجة الأولى ليس تلقياً مادياً حسياً وإنما التلقي الرئيسي لهم بعضهم من بعض ومن رسول الله صلى الله عليه وآله إنما هو تلقي نوري وإلهامي من ألوان التلقيات عبر القنوات الغيبية والملكوتية، ومن ثمّ يعبر عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنهم سفراء الله في خلقه.

وعليه فتلقي المعصومين عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله لم ينقطع بعد وفاته بخلاف غيرهم؛ لأنّ تلقيهم في الأساس ليس تلقياً حسياً مادياً.

وما يتلقونه عبر تلك القنوات الغيبية والملكوتية ليست الوجودات المنزلة لتلك الكتب التي ورثوها بما تحتوي عليه من نقوش وخطوط، وإنما يتلقون المقامات الغيبية لتلك الكتب من الجفر والجامعة ومصحف فاطمة والصحيفة السجّادية، وما ورثته سيدة نساء العالمين عليها السلام لأولادها ليس مجرد أوراق ونقوش بل الأوراق والنقوش هو تنزيل لذلك المقام الملوكوتي الذي كانت فاطمة عليها السلام نافذة غيبية لإرفاد أولادها المعصومين.

مراتب الوحي وحفظ السنة:

وإذا كَانَ تلقي المعصومين للسنة عَنْ رسول الله ﷺ عَلَى هذا النحو فَهُمْ الحفاظ للسنة ولا يمكن أن يحفظ السنة بدرجاتها ومراتبها حفظاً تاماً إِلَّا المعصومون مِنْ أهل البيت عليهم السلام.

ولبيان ذَلِكَ لأبَدٍ مِنْ بيان أقسام الوحي ودرجاته ومراتبه.

مراتب الوحي:

لَيْسَ الوحي والسنة هُوَ خصوص هذه الألفاظ والنقوش الَّتِي أدرجت فِي كتب الحديث ونقلت عَنْ رسول الله ﷺ بَلْ للسنة درجات أعلى ملكوتية وغيبية وللوحي أقسام وأصناف، وحفظ السنة و التراث الوحياني لا يقتصر عَلَى حفظ الألفاظ والنقوش بَلْ القادر عَلَى حفظ السنة هُوَ الذي وصلت إليه السنة بتلك المقامات الغيبية.

وغير المعصومين ليسوا قادرين عَلَى حفظ السنة حَتَّى فِي مرتبة الألفاظ فضلاً عَنْ ما هُوَ وراء اللفظ مِنْ المعاني الاستعمالية والمرادات التفهيمية والجدية والأمر فِي البطون وبطون البطون أشدّ وأشدّ.

فكم رأينا فِي أبواب الحديث المختلفة أن أئمة أهل البيت عليهم السلام يخطئون نقل العامة لحديث رسول الله ﷺ فِي لفظة أو فقرة أو فِي تقديم أو تأخير تغير المعنى تغييراً جوهرياً، ويرفعون الالتباس والاشتباه الحاصل لهم فِي ذَلِكَ، وما أكثر القرائن الحافة بالكلام الَّتِي غفلوا عنها

أو أغفلوها مما يغير في المعنى المراد من الكلام.

فالصحابة لم يستطيعوا أن يحفظوا سنة النبي ﷺ بإتقان وإحكام حتى بمستوى الألفاظ فكيف بها وراء الألفاظ من مرادات المتكلم ومن بطون الكلام.

وَعَلَى كُلِّ فَإِنَّ الْوَحْيَ لَيْسَ خُصُوصَ الْأَلْفَاظِ الْمُنْتَزِلَةِ وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى أَقْسَامٍ وَأَصْنَافٍ، فِي حَدِيثٍ عَنْهُمْ حِينَمَا يَرِيدُونَ أَنْ يَعْرِفُوا الشَّرِيعَةَ وَيَبِينُوا حَقِيقَتَهَا، يَقُولُونَ إِنَّ الشَّرِيعَةَ هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ خُلُقِ النَّبِيِّ ﷺ، فَهَذَا الْخُلُقُ النَّبَوِيُّ هُوَ كِتْلَةُ الشَّرِيعَةِ، رَوَى الْكَلِينِيُّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ النَّحْوِيِّ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَمِعْتَهُ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَدَبَ نَبِيَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ فَقَالَ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ثُمَّ فَوَّضَ إِلَيْهِ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَمَاءَ أُنْجُمِكُمْ الرَّسُولُ فَخَذُوهُ وَمَاتِهَكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا﴾ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾» (١) الْحَدِيثُ، فَشَرَعَ النَّبِيُّ وَهَدَى النَّبِيُّ هُوَ عَيْنُ النَّبِيِّ أَيَّ عَيْنٍ مَقَامَاتِ النَّبِيِّ ﷺ؛ وَلِذَلِكَ فَقَدْ أَكَّدَتْ رَوَايَاتُ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي غَفَلَ عَنْهَا حَتَّى الْكَثِيرُ مِنَ الْفَلَسَفَةِ وَالْعُرَفَاءِ، وَهِيَ أَنَّ نَفْسَ هَيْئَةِ خَلْقَةِ النَّبِيِّ وَالْإِمَامِ وَحْيِي، فَشَاكَلَتْ خَلْقَتَهُ وَطَرَّازَ وَهَيْئَةَ خَلْقَتِهِ نَمَطَ خَاصٍ مِنَ الْوَحْيِ فِي إِبْلَاحِ الرِّسَالَةِ؛ وَلِذَا فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ يَتَحَدَّثُ عَنْ تَفْوِيضِ الشَّرِيعَةِ إِلَيْهِ ﷺ بَعْدَ تَأْدِيبِ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ وَبَعْدَ

(١) الكفاية: ج ١ ص ٢٦٥، باب التفويض الى رسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام ح ١.

قوله تعالى له ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فهذا النظام والمنظومة الأخلاقية النبوية هي بنفسها وحي إذ هي كاشفة عن إرادة الله التشريعية؛ لأنَّ الله حينما ينعت خلقه بالعظمة فهذا معناه أنَّه يريد خلقه ويحبه؛ ولذا فإنَّ إرادة الله تعالى تستعلم من خلال خُلُقِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فسيرة النَّبِيِّ ﷺ وحي ونفس خلقه رسول الله ﷺ وحي كما في قوله تَعَالَى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فَإِنَّ الضمير (هُوَ) لا يرجع إلى خصوص النطق وَإِنَّمَا هُوَ رَاجِعٌ إِلَى نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فنفس رسول الله وحي يوحى كما وَرَدَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل لو رجع إلى النطق فكل وجود رسول الله ﷺ ينطق عن إرادة الله، ومن ثمَّ لم يقتصرُوا فِي الْحُجَّةِ عَلَى قَوْلِهِ بَلْ عَمَّمُوهَا إِلَى فِعْلِهِ وَتَقْرِيرِهِ، وَكُلَّ سِيرَتِهِ وَهَذَا التَّعْمِيمُ أَيْضًا مَدْلُولُ الْآيَةِ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

وَمِنْ أَقْسَامِ الْوَحْيِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هُوَ غَرَزٌ وَإِنْشَاءٌ رُوحِ الْقُدْسِ تَكْوِينًا فِي رُوحِ الْمَعْصُومِ كَمَا وَرَدَ فِي سُورَةِ الشُّورَى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، فَإِنَّ الْأَرْوَاحَ فِي الْإِنْسَانِ مُتَعَدِّدَةٌ وَالْمَعْصُومُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَمْتَازُ بِأَرْوَاحٍ أُخْرَى، وَيَعْبُرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنْ إِِنْشَاءِ هَذِهِ الْأَرْوَاحِ وَإِجَادِهَا تَكْوِينًا فِي الْمَعْصُومِ بِأَنَّهُ (وَحْيِي)، فَإِنَّ الطَّرْدَ الْبَرِيدِي الَّذِي نَزَلَ بِهِ الْوَحْيُ كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ نَفْسُ الرُّوحِ وَالْمَوْحَى هُوَ نَفْسُ الرُّوحِ، وَهَذِهِ الرُّوحُ أَوْحَيْتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بَلْ سَتَوْحَى إِلَى

غيره مِنَ الْأَوْصِيَاءِ وَالْأئِمَّةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾ الآية، فَإِنَّ ذِيلَ الْآيَةِ وَاضِحٌ فِي أَنَّ هَذِهِ الرُّوحَ تُوْحِي وَتَشَاءُ وَتَغْرِزُ فِي مَنْ يَشَاءُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ، وَكَذَلِكَ التَّعْبِيرُ الْقُرْآنِيُّ، ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فالملقى والموحى لَيْسَ مِنْ سِنَخِ الْكَلَامِ بَلْ هُوَ الرُّوحُ فَإِنْ شَاءَ الرُّوحُ وَإِلْقَاؤُهُ نَمَطٌ وَقَسَمٌ مِنَ الْوَحْيِ.

فَأَقْسَامُ الْوَحْيِ فِي لِسَانِ الْقُرْآنِ وَالرُّوَايَاتِ عَدِيدَةٌ وَلَيْسَ مَخْتَصِرًا عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ﴾.

وَمِنْ أَقْسَامِ الْوَحْيِ هُوَ مَا يَعْرِفُ بِالنُّزُولِ الْجَمَلِيِّ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ غَيْرَ النَّزُولِ النُّجُومِيِّ التَّدرِيجِيِّ لَهُ، وَهَذَا مَا يَقْرَبُهُ حَتَّى الطَّبْرِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ مَفْسَرِي الْعَامَّةِ، وَإِنْ أَنْكَرَهُ بَعْضُهُمْ وَإِذَا أَقْرَرْنَا بِالنُّزُولِ الْجَمَلِيِّ سَيَلِزَمُ مِنْ ذَلِكَ مَا يَجِدُ أَنْوَافَ الْقَوْمِ إِذْ لَوْ كَانَ لِلْقُرْآنِ نَزُولَانِ نَزُولٌ تَفْصِيلِيٌّ وَنَزُولٌ جَمَلِيٌّ فَأَيْنَ هُوَ النَّزُولُ الثَّانِي، وَعِنْدَ مَنْ أَوْدَعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلِمَنْ وَرَثَهُ وَمَنْ وَرَثَهُ مِنْهُ؟

وَعَلَى كُلِّ فَأَقْسَامِ الْوَحْيِ عَدِيدَةٌ وَلَا بُدَّ مِنَ الْاِتِّفَاتِ إِلَى أَنَّ أَحَدَ الْغَفَلَاتِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي الْمَعَارِفِ مِنْ قَبْلِ عُلَمَاءِ الْإِمَامِيَّةِ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ وَالْكَلامِ أَنَّهُمْ دَرَجُوا فِي أَقْسَامِ الْوَحْيِ مَدَارِجَ مَذَاهِبِ أَهْلِ الْخِلافِ، فَلَا حَظَّ مَاذَا فَسَّرَ الْمِيزَانَ وَالتَّبْيَانَ وَجَمَعَ الْبَيَانَ وَكَتَبَ

تفسیریه أُخری قوله تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، وماذا فسروا الوحي، والحال أن المراد شيء آخر. وهذه المسألة (أقسام الوحي) من القواعد المعرفية الأم في تفسير القرآن والغفلة فيها أمر خطير بالغ الخطورة.

وراثه السنة:

كَمَا تَقَدَّمَ إِنَّ مَا تَلَقَاهُ الْمَعْصُومُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَبَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ لَيْسَ خُصُوصَ النُّقُوشِ وَالْأَلْفَاظِ وَإِنَّمَا هُمْ وَرَثَةُ وَرَثُوا الْمَقَامَاتِ التَّكْوِينِيَّةَ وَالغَيْبِيَّةَ لِسَنَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَشَتَانٌ بَيْنَ حِفْظِ سَنَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْأَلْفَاظِ وَحِفْظِ سَنَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَقَامَاتِهَا الْغَيْبِيَّةِ. فَهُمْ مَنْ وَرَثُوا رُوحَ الْقُدُسِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَرُوحَ الْقُدُسِ هُوَ جِزَاءُ الْقَالِبِ الْوَجُودِيِّ لَهُ ﷺ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، وقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهذا من أعلى درجات نقل الحديث، وأرفع أنماطه وليس مقتصرًا على نقل الألفاظ والنقوش وإنما ينقل السنة بحقائقها.

وَكَمَا أَنَّ الْوَحْيَ الْقُرْآنِيَّ أَقْسَامٌ فَإِنَّ نَقْلَ سَنَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَحِفْظَهَا عَلَى أَقْسَامٍ. فَمِثْلًا مِنْ أَنْحَاءِ حِفْظِ سَنَةِ النَّبِيِّ وَنَقْلُهَا هُوَ تَرْبِيَّةٌ وَتَأْدِيبٌ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَمَا أَنَّ اللَّهَ أَدَّبَ نَبِيَّهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهُ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَكُلِّ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ كَاشِفًا عَنِ الْإِرَادَةِ التَّشْرِيعِيَّةِ

لله سُبْحَانُهُ فَكَذَلِكَ أَدَّبَ رَسُولُ اللَّهِ عَلِيًّا فَكَانَ عَلِيٌّ بَابًا لِمَعْرِفَةِ مَا يَرِيدُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ كُلُّ حَرَكَاتِهِ وَسُكُونَاتِهِ وَكُلُّ أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَخَلْقِهِ كَاشِفًا عَنْ إِرَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَ قَالِبَ وَهَيْئَةِ وَجُودِ عَلِيٍّ ﷺ هُوَ ذَلِكَ الْقَالِبُ وَالْهَيْئَةُ الَّتِي يَرِيدُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ وَلِذَا احْتَجَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيًّا عَلَى قُرَيْشٍ أَنَّهُ رَيْبٌ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُؤْمِنُ عَلَى حِفْظِ السَّنَةِ وَأَنَّ مَسَارَهُ وَنَهْجَهُ هُوَ مَسَارُ وَنَهْجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهَذَا أَحَدُ مَعَانِي نَقْلِ السَّنَةِ.

ولذا هم يعترفون بأن السيرة هي نوع من أنواع نقل السنة وهي عبارة عن سيرة تربوية للجماعة كالصحابة مكونة من صنع رسول الله ﷺ وبذلك تكتشف مرادات رسول الله ﷺ.

فنقل السنة ووصول السنة على أقسام إذ تارة نصل إليها عن طريق لفظ النبي ﷺ وتارة نصل إليها عن طريق تقرير النبي ﷺ وأخرى فعل النبي ﷺ وتارة عن طريق صنعة النبي ﷺ في غيره كتأديب رسول الله ﷺ لعلي ﷺ.

الحقائق العلوية للسنة النبوية:

تَقَدَّمَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَالسَّنَةَ النَّبَوِيَّةَ وَسَائِرَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَكُتُبِ الْمُعْصُومِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَالصَّحِيفَةِ السَّجَّادِيَّةِ وَمَصْحَفِ فَاطِمَةَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَتْ حَقَائِقُهَا هِيَ تِلْكَ الْحُرُوفُ وَالنَّقُوشُ بَلْ لَهَا مَقَامَاتٌ عَلْوِيَّةٌ وَحَقَائِقُ غَيْبِيَّةٌ تَعُدُّ هَذِهِ الْحُرُوفُ تَنْزِلَاتٍ لَهَا.

وَمِنْ بَابِ التَّشْبِيهِ لِلْمَقَامَاتِ الْغَيْبِيَةِ نَلَاظِ الْعَالَمِ الَّذِي يُؤَلَّفُ كِتَابًا مَا كَالطَّبْرَسِيِّ صَاحِبِ الْاِحْتِجَاجِ، فَإِنَّ تَأْلِيْفَهُ لِلْكِتَابِ يَنْمُو عَنْ مَقَامِهِ الْعِلْمِيِّ، وَكَيْسَ مَقَامِهِ الْعِلْمِيِّ هُوَ خُصُوصُ الْحُرُوفِ الْمَدُونَةِ فِي الْكِتَابِ وَإِنَّمَا مَقَامَهُ الْعِلْمِيِّ هُوَ تِلْكَ الْمَلِكَةُ الْعِلْمِيَّةُ النَّوْرِيَّةُ الَّتِي تَنْزَلَتْ وَدَوَّنتْ الْكِتَابَ فَالْحُرُوفُ تَنْزَلُ لِتِلْكَ الْمَلِكَةِ الْعِلْمِيَّةِ.

وَلِذَا فَإِنَّ حَقَائِقَ الْكُتُبِ السَّوَابِيَةِ حَقَائِقُ غَيْبِيَّةٌ وَهَذَا مَا يَشْهَدُ لَهُ الْعَدِيدُ مِنَ النُّصُوصِ، وَالشُّوَاهِدِ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ كَالَّذِي وَرَدَ فِي تَنْزَلِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَأَنَّهَا عِنْدَمَا نَزَلَتْ شَايَعَهَا عَشْرَاتُ الْأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ أَنَّ أُمَّ الْكِتَابِ وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ وَآيَةَ الْمَلِكِ وَآيَةَ الشَّهَادَةِ حِينَمَا أَرَادَتْ أَنْ تَنْزَلَ مِنَ الْعَرْشِ اشْتَكَّتْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَيَّ أَنْ لَذَلِكَ الْوُجُودِ الْعُلُويِّ إِدْرَاكٍ وَنَطْقٍ وَرُوحٍ وَلِسَانٍ، فَفِي الْخَبْرِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ عِزُّ وَجَلُّ هَذِهِ الْآيَاتُ أَنْ يَهْبِطْنَ إِلَى الْأَرْضِ تَعْلَقْنَ بِالْعَرْشِ وَقَلْنَ أَيُّ رَبِّ إِلَى أَيُّنْ تَهْبِطُنَا إِلَى أَهْلِ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ فَأَوْحَى اللَّهُ عِزُّ وَجَلُّ إِلَيْهِنَّ: أَنْ أَهْبِطْنَ فَوْعِزْتِي وَجَلَالِي لَا يَتْلُوكُنَّ أَحَدٌ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ وَشَيْعَتِهِمْ فِي دَبْرٍ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَكْتُوبَةِ فِي كُلِّ يَوْمٍ إِلَّا نَظَرْتُ إِلَيْهِ بَعِينِي الْمَكْنُونَةَ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ نَظْرَةً أَقْضِي لَهُ فِي كُلِّ نَظْرَةٍ سَبْعِينَ حَاجَةً وَقَبْلَتَهُ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْمَعَاصِي وَهِيَ أُمَّ الْكِتَابِ ﴿﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَأْتِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ﴿﴾ وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ وَآيَةَ الْمَلِكِ»^(١)

وكذلك ما تَقَدَّمَ مِنْ الحديث القدسي فِي واقعة تبليغ سورة البرائة: « لا يبلغ عنك إِلَّا أَنْتَ أو رجل منك » وهذا ما يكشف لنا قاعدة عامة عظيمة فِي السنة النبوية والحال أَنَّ المفسرين مِنْ الطرف الآخر أرادوا أَنْ ينزلوها إِلَى الحضيض ويجعلوها مِنْ الآداب القبائلية والحال أَنَّها قاعدة عظيمة تبين حقيقة مقامات السنة النبوية، وترتبط بصلاحيه النطق الرسمي عَنْ السماء وبيان السنن الإلهية عَنْ الله تَعَالَى، «فلا يبلغ عنك إِلَّا أَنْتَ» أَي أَنَّ رسول الله ﷺ لَهُ مقام غيبي يبلغ عنه لسانه الشريف ونفسه الجزئية، أو يبلغ عنك رجل منك وَهُوَ أمير المؤمنين عليه السلام.

فقم أمير المؤمنين عليه السلام ونفسه الجزئية أيضاً تبليغ عَنْ ذَلِكَ المقام الغيبي لرسول الله ﷺ، فنفس رسول الله ونفس أمير المؤمنين الجزئتان يسترفدان عَنْ ذاك المقام الغيبي لرسول الله ﷺ.

ولذا فَإِنَّ الإسناد المتصل لأهل البيت عليهم السلام إِلَى رسول الله ﷺ كَيْسَ إسناداً وعننة حسية ناتجة عَنْ السماع الحسي بالأذن، وَإِنَّمَا إسنادهم إِلَيْهِ ﷺ هُوَ ارتباطهم الغيبي بذلك المقام لرسول الله ﷺ، بَلْ الحال كَذَلِكَ فِي النواب والسفراء الأربعة فِي الغيبة الصغرى، فهؤلاء نيابتهم كَيْسَ بالتقائهم البدني بالحجة ﷺ، وَإِنَّمَا ارتباطهم به عَنْ طريق إلهام مِنْهُ إِلَيْهِمْ؛ ولذا يعبر عنهم بالسفراء، فالسفير مصطلح شرعي يُقال لِمَنْ ينقل عنهم عبر قناة الإلهام، غايته أنهم ملهمون عَنْ الحجة.

أَمَّا الْأُئِمَّةُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهُمْ مَلْهُمُونَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى.

ففي رجال الكشي عَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ الْمُرُوزِيِّ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَى فِيهِ: «إِنَّ سَلْمَانَ كَانَ مُحَدَّثًا» قَالَ: إِنَّهُ كَانَ مُحَدَّثًا عَنْ إِمَامِهِ لَا يَجُوزُ بِهِ، لِأَنَّهُ لَا يَحْدُثُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا الْحِجَّةُ^(۱).

نعم درجة الإلهام في السفراء لا تقاس إلى قوة وعظمة القناة الغيبية التي منها يسترفد الإمام المعصوم عليه السلام عن تلك المقامات الغيبية الملكوتية.

وهذا الارتباط الغيبي الذي بين الإمام عليه السلام وَالنَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ مَتَوَقَّفًا عَلَى حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْأَرْضِيَّةِ، بَلْ تَشْمَلُ حَتَّى الْحَيَاةَ الْبَرْزَخِيَّةَ أَوْ الْأُخْرَوِيَّةَ لَهُ ﷺ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الْمَقَامَ الْغَيْبِيَّ الْمُبْلَغَ عَنْهُ وَالْمُرْتَبَطَ بِهِ لَيْسَ مَقَامًا دُنْيَوِيًّا وَلَيْسَ مَنْحَصِرًا بِحَيَاتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ حَتَّى يَكُونَ ارْتِبَاطُ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرهُونًا بِحَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْأَرْضِيَّةِ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْخُطْبَةِ الْقَاصِعَةِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَلِيُّ إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَتَرَى مَا أَرَى إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ» مَعَ أَنَّ الَّذِي كَانَ يَسْمَعُهُ وَيَرَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ أَمْرًا حَسِيًّا أَوْ بَدْنِيًّا وَإِنَّمَا هُوَ الْوَحْيُ وَالْوَحْيُ يَعْنِي الْخَفِيِّ أَيِّ مَنْ عَالَمٍ آخَرَ غَيْبِيٍّ حَتَّى فَوْقَ الْبَرْزَخِ، «كُنْتُ أَرَى نُورَ النَّبُوَّةِ وَأَشْمُ رِيحَهَا» فَهَذِهِ الرَّائِحَةُ لَيْسَتْ رَائِحَةً بَدْنِيَّةً وَلَا حَتَّى بَرْزَخِيَّةً بَلْ حَتَّى فَوْقَ الْآخِرَةِ وَبِلِحَازِ

ملكوت الآخرة فَإِنَّ الآخرة لها عوالم خفية وراءها تشكل غيبها وملكوتها، باعتبار أَنَّ عالم البرزخ والآخرة عوالم جسمانية وإن كانت بلحاظ عالم الدُّنْيَا متلطفة ومتشففة وغيبية ولكن وراء تلك العوالم أيضاً عوالم أخرى أكثر وأشدّ لطافة وتجرداً.

إذَنْ للسنة النبوية مقامات غيبية وإنَّ الأئمة عليهم السلام ينقلون عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله بلحاظ تلك المقامات، وهذا المعنى ذكره حَتَّى العامة في كتبهم في أحوال الأئمة عليهم السلام.

فهذا المزي المعاصر لابن تيمية ينقل في تهذيب الكمال في ترجمة الإمام الصادق عليه السلام بإسناده عَنْ عمرو بن ثابت قَالَ: رأيت جعفر بن مُحَمَّد واقفاً عِنْدَ الجمرَةِ العظمى وَهُوَ يَقول: « سلوني، سلوني »، وَعَنْ صالح بن أبي الأسود، قَالَ: سمعت جعفر بن مُحَمَّد يقول: « سلوني قبل أن تفقدوني، فَإِنَّهُ لا يحدثكم أحد بعدي بمثل حديثي »^(١).

وَقَدْ روى الفريقان بأسانيد متصلة أَنَّهُ قَدْ سئل الإمام الصادق عليه السلام عَنْ مصدر علمه وَلَمْ يَرَ أَنَّهُ قَدْ اختلف إلى الرجال، وَقَدْ ملأ علمه الآفاق وانتشر مِنْهُ الحديث، فَقَالَ عليه السلام « إِنَّ علمنا لَيْسَ سماعاً عَنْ الرجال إِنَّمَا علمي عَنْ أَبِي عَنْ أَبِيهِ عَنْ جده » وهذه العننة ليست عننة حسية وكذلك فيما رواه الفريقان عن سأل الإمام موسى بن

جعفر عليه السلام عَنْ مَصْدَرِ عِلْمِهِ وَهُوَ لَمْ يَخْتَلَفْ إِلَى الْمُحَدِّثِينَ، قَالَ: «عَلِمْنَا لَيْسَ كَعِلْمِ النَّاسِ وَكَيْسَ سَمَاعاً كَسَمَاعِ الرِّجَالِ» أَيَّ أَنَّ طَرِيقَةَ تَعَلُّمِنَا وَاسْتِقَانَتَنَا لِلْعِلْمِ لَيْسَتْ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةَ الْبَشَرِيَّةَ الْعَادِيَّةَ وَإِنَّمَا عِلْمُهُمْ بِعِنْعِنَةٍ لَا تَنْحَصِرُ بِالْعِنْعِنَةِ الْحَسِّيَّةِ بَلْ الْعِمْدَةَ فِيهَا الْعِنْعِنَةُ النُّورِيَّةُ وَالْإِلْهَامُ، نَظِيرَ مَا وَرَدَ مِنْ وَرَاثَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام لِعِلْمِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله فَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فِي حَدِيثٍ وَفَاةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله «ثُمَّ أَدْنَانِي فَأَسْرَ إِلَى أَلْفِ بَابٍ مِنَ الْعِلْمِ، كُلُّ بَابٍ يَفْتَحُ أَلْفَ بَابٍ»^(۱) فَإِنَّ هَذَا الْإِنْتِقَالَ لَيْسَ إِنْتِقَالاً مَادِيّاً حَسِيّاً بِالْمَادَةِ الْغَلِيظَةِ وَالْحَسِّ الْإِعْتِيَادِيِّ، بَلْ إِنْتِقَالَ نُورِيٍّ إِلْهَامِيٍّ.

وَالْخُلَاصَةُ إِنَّهَا هُنَا مُقَدِّمَتَيْنِ:

الأولى: إِنَّ سُنَّةَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله كَمَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَيْسَتْ تَمَامَ حَقِيقَتِهَا فِي هَذِهِ الْأَلْفَاظِ وَإِنَّمَا هَذِهِ الْأَلْفَاظُ تَنْزِلَاتٌ لِلْمَقَامَاتِ الْغَيْبِيَّةِ الشَّائِخَةِ لِلْسُنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، كَمَا أَنَّ الْمَصْحَفَ الشَّرِيفَ تَنْزِلُ لِلْمَقَامِ الْغَيْبِيِّ الْعُلُويِّ الشَّامِخِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. وَإِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْأَخْطَاءِ وَالْغَفَلَاتِ وَالتَّدَنِّيِّ فِي الْمَعْرِفَةِ الدِّينِيَّةِ حَصْرَ سُنَّةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله فِي مَسْتَوَى الْأَلْفَاظِ وَسَطْحِ الدَّلَالَةِ الظَّاهِرَةِ لِلْأَلْفَاظِ بَلْ لَهَا مَعَانٍ وَمَعَانٍ فِي بَطُونِ الْمَعَانِي وَحَقَائِقٍ مِنْ خَلْفِ تِلْكَ الْبَطُونِ.

الثانية: إِنَّ ارتباط الأئمة عليهم السلام بالنبي صلى الله عليه وآله لَيْسَ ارتباطاً بدنياً وحسب، فَإِنَّ علياً عليه السلام وكذلك سائر الأئمة حينما يبلغون عَنْ رسول الله صلى الله عليه وآله إِنَّمَا يبلغون عَنْ المقام الغيبي للنبي لا خصوص المقام البدني والنفس النازلة، وَمِنْ خلال ذَلِكَ يَتَبَيَّنُ أَنَّ الحافظ الحقيقي والأمين والبليغ لسنة النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله هُمُ الأئمة المعصومون مِنْ أهل البيت عليهم السلام، وَأَمَّا لو بقينا عَلَى حفظ غيرهم الَّذِينَ لَمْ يَضْبُطُوا سنة النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله حَتَّى عَلَى مستوى الألفاظ فَإِنَّهُ سوف لن تَبَقَ ثوابت للشريعة والعياذ بالله.

تلخيص للقواعد الست المتقدمة

القاعدة الأولى: إن إبليس لا يمكن أن يتسلط على قلب النبي أو روحه ولا عقله، نعم إن المعصوم يكابد من قبل إبليس في نفسه الجزئية وبدنه وقوة خياله، بمعنى أنه يواجهه لا بمعنى أن الشيطان يتغلب عليه حتى في تلك الرتبة نظير ما يلاقه المعصوم من جروح ومعاناة في الحروب مع الناس، فإن ذلك لا ينافي عصمته نظير تعبير القرآن في أيوب عليه السلام: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أو في قصة موسى عليه السلام: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقَوْتُ فَإِذَا جَاهُكُمْ وَعَصِيئُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنهَا سَعَى﴾ والانفعال التكويني لا يعني السيطرة المطلقة وإنما هو نظير إنفعال البدن عن الجرح أو السم.

وإذا كان أولو العزم من المعصومين يكابدون في الخيال فكيف بغيرهم نعم المعصوم يعصم حتى في خياله ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ بتسديد من الله وتأيدته.

القاعدة الثانية: إن المعصوم ذو طبقات فنور المعصوم ثم روحه الكلية ثم العقل الكلي ثم النفس الجزئية والروح الجزئية والغرائز

والبدن وهذه الطبقات المختلفة أحكام تكوينية مختلفة وشؤون مختلفة ولا يصح الخلط بينها وَعَدَم التمييز بينها في الطبقات.

القاعدة الثالثة: إِنَّ أبدانهم الشريفة ونفوسهم الشريفة وأرواحهم هي صفوة الأبدان وصفوة النفوس وصفوة الأرواح.

القاعدة الرابعة: إِنَّ الأفعال التي يمارسونها سواء بإبدانهم أو بغرائزهم فضلاً عَن أفعال الخيال أو التعقل هي أفعال شفافة لطيفة نورية وليست غليظة بهيمية.

وَقَدْ مَرَّ أَنَّ الشفافية واللطافة مِنْ سمات أفعال الإنسان وَأَنَّ للإنسان آداب في أكله وشربه وممارساته ونكاحه ونومه وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ شؤونه تخفف مِنْ الجنبه البهيمية في تلك الممارسات وتزيدها لطافة ورقّة وشفافية.

أَمَّا المعصوم فَهُوَ يفعل ما يفعل لا بآداب إنسانية وحسب، بَلْ بآداب نورية. فَهُوَ يتعد في أكله وشربه ونكاحه وسائر أفعاله عَن كُلِّ شوائب الغلظة البهيمية ويتوغل بتلك الأفعال في النور لا في البهيمية.

القاعدة الخامسة: وَهي قاعدة مُهمّة جداً وَهي في بيان الفرق بين العصمة الإلهية والنبوية والولوية.

فالعصمة الإلهية عصمة بالذات وَغَيْر محدودة، أَمَّا العصمة النبوية والولوية فَهي ليست بالذات وَإِنَّمَا عصمة بالله وتكامل بالله لا

أَنَّ الكمال ذاتي لَهُ فلا مانع مِنْ الهداية به.

نعم، الفرق بين عصمة الأنبياء والأئمة وسائر المصطفين عَنْ غَيْرِ المعصومين هُوَ ما تذكره الآية المباركة: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَأَلْكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

فَعَيَّرَ المعصوم لا يمكن أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَّا مِنْ خِلالِ المعصوم، أَمَّا المعصوم فَهُوَ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَلا يَهْتَدِي إِلَّا مِنْ خِلالِ رُوحِهِ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِمَا يَفَاضُ عَلَيْهِ سِوَاءِ عِبْرٍ مَلِكٍ أَوْ عِبْرٍ مَعْصُومٍ آخَرَ وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ □
﴿يَنْبُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

فالهداية مِنْ اللَّهِ لِلْمَعْصُومِينَ هِدَايَةٌ لِدُنْيَا وَالْمَعْصُومَ لَا يَهْدِي إِلَّا مِنْ اللَّهِ أَوْ مِنْ قَبْلِ مَعْصُومٍ أَعْلَىٰ مِنْهُ وَهَذَا لَا يَنَافِي الْعِصْمَةَ، كَمَا هُوَ مَفَادُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وَالْأَفْضَلُ مِنْهُمْ يَهْدِي الْمَفْضُولَ، وَهَذَا لَا مَانِعَ مِنْهُ وَلَا يَنَافِي الْعِصْمَةَ لِأَنَّ سُلْسَلَةَ الْمَعْصُومِينَ تَنْتَهِي إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ بِمَعْنَىٰ أَنَّهَا هِدَايَةٌ لِدُنْيَا مِنْ اللَّهِ تَعَالَىٰ نَظِيرَ إِيْصَالِ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ طَرِيقِ جِبْرَائِيلَ، وَبِهَذَا يَفْسَرُ مَا يَشَاهِدُ مِنْ حَالَاتِ الْمَعْصُومِينَ حَتَّى الْأَرْبَعَةِ عَشَرَ فِي اسْتِعْصَامِ وَاهْتِدَاءِ مَعْصُومٍ بِمَعْصُومٍ أَعْلَىٰ وَأَكْبَرَ مِنْهُ، نَعْمَ إِنَّهُمْ لَا يَسْتَرْفِدُونَ

الهداية ولا يستعصمون بغير المعصوم.

وَمِنْ خِلالِ هَذَا التَّفْرِيقِ بَيْنَ العِصْمَةِ الإِلهِيَّةِ وَالعِصْمَةِ بِاللَّهِ فِي الأَنْبِيَاءِ وَالأَصْفِيَاءِ يَحْصُلُ الجِوابُ عَنِ الكَثِيرِ مِمَّا يَتَوَهَّمُ مِنْهُ خِلافَ العِصْمَةِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ لا تَعْنِي الغِوَايَةَ فِي الآيَةِ أَنَّهُ لا يَسُدُّ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى بَلْ أَنَّ آدَمَ بِالْقِيَّاسِ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ يَقُولُ رَبُّ زِدْنِي عِلْماً وَعِصْمَةً، فَالْعِصْمَةُ فِيهِ لا تَعْنِي أَنَّهُ قَدْ حَازَ كُلَّ الكِمالاتِ الإِلهِيَّةِ وَبِذَلِكَ يَفْسِرُ تَرْكُ الأُولَى، فَالنَّبِيُّ يَسْتَعِصِمُ وَيَهْتَدِي بِاللَّهِ تَعَالَى الَّذِي هُوَ المَعْصُومُ ذَاتاً وَأَبْداً وَأَزْلاً وَالَّذِي يَهْدِي أَوْلِياءَهُ وَهَذَا هُوَ الفَرْقُ بَيْنَ عِصْمَةِ اللَّهِ وَالعِصْمَةِ بِاللَّهِ وَبَيَّنَّهُ أَيْضاً قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ فَصَدَقَ اللَّهُ أَعْظَمَ مِنْ صَدَقَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ وَلا يَعْني هَذَا - وَالعِيادُ بِاللَّهِ - الكِذْبُ فِي رَسولِ اللَّهِ ﷺ بَلْ صَدَقَ اللَّهُ بِذاتِهِ وَسرْمَدِي وَازلي، أَمَّا صَدَقَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ وَهَدَايَتُهُ فَهِيَ لَيْسَتْ بِذاتِهِ وَأَزْليَّةٌ وَسرْمَدِيَّةٌ بَلْ هِيَ بِاللَّهِ تَعَالَى.

فَعِصْمَةُ المَعْصُومِينَ لَيْسَتْ عِصْمَةً أَزْليَّةً بِذِواتِهِمُ كَعِصْمَةِ اللَّهِ وَإِنَّمَا هِيَ عِصْمَةٌ بِمَدَدِ اللَّهِ وَعِونِهِ وَبِاسْتِرْفادِ مِنْهُ تَعَالَى وَهَكَذا يَتَبَيَّنُ الفَرْقُ بَيْنَ عِصْمَةِ المَعْصُومِينَ وَبَيْنَ غَيْرِ المَعْصُومِينَ ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لا يَهْدِي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى﴾ الرِّسولُ يَهْدِي لِلْحَقِّ لَيْسَ مِنْ ذاتِهِ وَإِنَّمَا مِنَ اللَّهِ لَكِنَّ مِنْ طَرِيقِ رُوحِهِ، لا مِنْ خِارجِ ذِاتِهِ فَاللَّهُ تَعَالَى يَفِيضُ عَلَيَّ ذِاتِهِ وَرُوحَهُ ﴿فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ لا تَكُونُ

سواسية فالمعصوم يهدي بالله ولا يهدي مِنْ غير الله.

القاعدة السادسة: وهي قاعدة تكامل المعصوم وتكامله من عدة وجوه، لأن التكامل إما بلحاظ المراتب النازلة التي لا تتحمل كمالات المراتب العالية دفعة واحدة، فاحتاجت المراتب النازلة إلى التدرج في توسعة القابلية والاستعداد لكي تستمد وتسترفد تدريجاً تلك الكمالات من المراتب العليا.

ويتكامل المعصوم حتى بلحاظ أعلى مراتبه والوجود النوري لأن المخلوق مهما كان عظيماً فهو بلحاظ الخالق فقير محتاج بل عين الفقر والحاجة، واللاتناهي المخلوق بلحاظ ما تحته لا يعني عدم التناهي بلحاظ الخالق، وذلك لا يعني وجود كمال في غير المعصومين لم يحوزوه.

ثم ان تكامل المعصومين بمعصوم آخر ونقل المعصومين لللسنة والعلم عن النبي ﷺ ليس بمجرد الأساليب المادية والحسية، بل التلقي منه ﷺ تلقي نوري وإلهامي واستمداد من مرتبته النورية، لا من خصوص بدنه ونفسه الشريفة النازلة، ولذا لم يحفظ الشريعة والسنة بتامها وكمالها إلا المعصومون عليهم السلام.

القاعدة السابعة

الاختيار في أصل العصمة والاختيار في الأفعال الصادرة عنها

والكلام في مقامين:

المقام الأول: في أصل نيل العصمة، فإن المفروض فيها أنها فعل الله تعالى وهو الاصطفاء وليس فعلاً للمخلوقين، فهو فعل وهبي لدني من الله إلا أن كونها فعلاً اصطفاً من الله تعالى لا يقضي بكونها فعلاً جبرياً كما يتخيل الكثير، ولا ينفي كونها فعلاً اختيارياً ممن يصطفى بالعصمة، فإنه يتخيل كثيراً ما أن الفعل الاختياري من الإنسان لا محالة يكون كسبياً، والصفة التي تتولد منه تكون كسبية لا اصطفاً، ولكن ذلك خطأ شائع في الجانبيين، فالفعل الاختياري قد تكون نتيجته صفة اصطفاً، إلا أن هناك فوارق عديدة بين الفعل الاختياري الكسبي وبين الفعل الاختياري للصفة الاصطفائية، كما أن

هناك فوارق بين الصفة الكسبية والصفة الاصطفائية، سيأتي ذكرها.

ونتعرض في البدء إلى جهات الاختيار في أصل صفة العصمة.

الجهة الأولى: الاختيار في العوالم ومراتب الاصطفاء السابقة

إعدادا لما في هذا العالم:

ما أشارت إليه مستفيض الروايات إن لم يكن متواترها أن اصطفاء الله عز وجل للأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام في دار الدنيا إنما تم طبق امتحانات فازوا ونجحوا بأدائها في عوالم سابقة، كعوالم الذر والميثاق والأظلة والأشباح وعالم النور، ولكل عالم من هذه العوالم وردت روايات عديدة بل وبعضها مستفيضة لوقوع الامتحان فيها، وأن أول من أجاب في الامتحان هو سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله ثم أهل بيته عليهم السلام ثم الأنبياء والرسل عليهم السلام، وأن على ضوء هذا الامتحان اصطفوا في دار الدنيا، بل إن في تلك الروايات تحقق الاصطفاء منه تعالى لهم في تلك العوالم على ضوء تلك الامتحانات، كما تشير إليه الصديقة الطاهرة عليها السلام في خطبتها الفدكية: «وأشهد أن أبي محمدا عبده ورسوله اختاره قبل أن أرسله، وسماه قبل أن اجتباها، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة»^(١) ويحتمل مطابقة مفادها

للوّجه اللاحق الآتي. فالاصطفاء لهم لا ينحصر بدار الدنيا، بل قد تم في جملة العوالم السابقة بعد كون تلك العوالم ذات طبقات وجودية متعددة، ولقاعدة «إن الأرواح خلقت قبل الأبدان بألفي عام».

الجهة الثانية:

دور الطاعة اللاحقة في الاصطفاء السابق:

ما أشير إليه من بيان عقلي في دعاء الندبة: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا جَرَى بِهِ قَضَاؤُكَ فِي أَوْلِيَائِكَ الَّذِينَ اسْتَخْلَصْتَهُمْ لِنَفْسِكَ وَدِينِكَ... بَعْدَ أَنْ شَرَطْتَ عَلَيْهِمُ الزُّهْدَ فِي دَرَجَاتِ هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ وَزُخْرُفِهَا وَزِبْرَجِهَا، فَشَرَطُوا لَكَ ذَلِكَ وَعَلِمْتَ مِنْهُمْ الْوَفَاءَ بِهِ فَقَبِلْتَهُمْ وَقَرَّبْتَهُمْ وَقَدَّمْتَ لَهُمُ الذِّكْرَ الْعَلِيِّ وَالثَّنَاءَ الْجَلِيَّ وَأَهْبَطْتَ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَتَكَ وَكَرَّمْتَهُمْ بِوَحْيِكَ وَرَفَدْتَهُمْ بِعِلْمِكَ وَجَعَلْتَهُمُ الذَّرِيعَةَ إِلَيْكَ وَالْوَسِيلَةَ إِلَى رِضْوَانِكَ» حيث يبيّن عليه السلام أن علمه السابق بوفاء المصطفين لاحقاً بما شرط عليهم من شروط الاصطفاء، فهذا العلم السابق بالوفاء والطاعة اللاحقة قدّم من الله جزاء لهم وهو هبته لهم وعطيته إياهم بنود وأركان العصمة، فهذا اللحاظ تكون العصمة والتي ذكر الدعاء تسعة بنود لها «فَقَبِلْتَهُمْ وَقَرَّبْتَهُمْ وَقَدَّمْتَ لَهُمُ الذِّكْرَ الْعَلِيِّ وَالثَّنَاءَ الْجَلِيَّ وَأَهْبَطْتَ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَتَكَ وَكَرَّمْتَهُمْ بِوَحْيِكَ وَرَفَدْتَهُمْ بِعِلْمِكَ وَجَعَلْتَهُمُ الذَّرِيعَةَ إِلَيْكَ وَالْوَسِيلَةَ إِلَى رِضْوَانِكَ» فعلاً إلهياً وجزاءً على

الأفعال الاختيارية للمصطفين فهذا اللحاظ تكون أصل العصمة بسبب اختياري، ولكنها ليست كسبية بل فعل اصطفاي منه تعالى.

الفوارق بين الصفة الاصطفائية والاكتمالية:

وهذا هو أحد الفوارق بين الصفة الاصطفائية وبين الصفة الاكتمالية، أن الجزء في الصفة الاصطفائية متقدم على الفعل الاختياري بخلاف الجزء الاكتمالية وان كانت ملكوتية لدنية.

وفارق آخر أن الصفة الاصطفائية من الملكوت الصاعد، بينما الصفة الاكتمالية دون ذلك من ملكوت.

والفارق الثالث: أن الصفة الاكتمالية في معرض الزوال بخلاف الصفة الاصطفائية وإن لم يتمتع زوالها عقلا ذاتا ويشير إليه قوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (٧٦) (١).

والفارق الرابع: أن الصفة الاصطفائية لأبد فيها من النص الإلهي لأنها فعل الله الخاص الذي لا يطلع عليه أحد من البشر، وهو فعل خفي ليس بارزا ظاهرا، بخلاف الصفة الاكتمالية.

الفارق الخامس: الصفة الاصطفائية يترتب عليها مقام الحجية

التسديدية الوحيانية، بخلاف الصفة الاكتسابية ولو كانت لدنية، فإنها لا تورث صاحبها تلك الحجية، فمثل حكمة لقمان وإن كانت لدنية إيتائية اكتسبها إلا أنها لم تورثه منصباً إلهياً، بل الحجية في البرهان الذي ينه عليه لقمان بحكمته من الأسباب والغايات.

الجهة الثالثة

الاختيار في أصل حدوث العصمة بعد تمامية الاستعداد:

ما رواه الشيخ الصدوق في العلل بسنده عن أمير المؤمنين عليه السلام في حادثة يوم الدار: «لما نزلت «وانذر عشيرتك الأقربين ورهطك المخلصين» دعا رسول الله صلى الله عليه وآله بني عبد المطلب وهم إذ ذاك أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً، فقال أيكم يكون أخي ووصيي ووارثي ووزير وخليفتي فيكم بعدي؟ فعرض عليهم ذلك رجلاً رجلاً كلهم يأبى ذلك حتى أتى عليّ، فقلت انا يا رسول الله، فقال يا بني عبد المطلب هذا أخي ووارثي ووصيي ووزير وخليفتي فيكم بعدي، فقام القوم يضحك بعضهم إلى بعض ويقولون لأبي طالب: قد امرك أن تسمع وتطيع لهذا الغلام»^(١).

وروايات يوم الدار مستفيضة المفاد بين الفريقين ومحصلها أن إمامة سيد الأوصياء في حين أنها اصطفاوية ومقدرة في العلم الإلهي

الغابر إلا أنه رغم ذلك هذا الاصطفاء كفعل إلهي لم يكن إلقاء وإجباراً من الله تعالى، بل كان وفق عهد ومشاركة وتعاهد اختياري بين الله وبين رسوله ﷺ وبين أمير المؤمنين عليه السلام كما هو الحال في إعطاء النبوة للأنبياء كما في مفاد قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾^(١). حيث أن ظاهر مفاد الآية أن إيتاء النبوة للأنبياء كان ضمن ميثاق وتعهد أخذه الله تعالى عليهم أن يؤمنوا بولاية خاتم الأنبياء ﷺ، وينصروا سنته ومنهاجه ودينه كما سيحصل في الرجعة.

وكما في شأن داود ولقمان ففي معتبرة حماد على الأصح - التي رواها علي بن ابراهيم في تفسيره - قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن لقمان وحكمته التي ذكرها الله عز وجل، فقال: «أما والله ما أوتي لقمان الحكمة بحسب ولا مال ولا أهل ولا بسط في جسم ولا جمال ولكنه كان رجلاً قويا في أمر الله متورعا في الله ساكتا سكينا عميق النظر طويل الفكر حديد النظر مستعبرا بالعبر لم ينم نهارا قط ولم يره أحد من الناس على بول ولا غائط ولا اغتسال لشدة تستره وعمق نظره وتحفظه في أمره ولم يضحك من شيء قط مخافة الاثم، ولم يغضب قط ولم ييازح

إنسانا قط ولم يفرح بشيء ان أتاه من أمر الدنيا ولا حزن منها على شيء قط، وقد نكح من النساء وولد له من الأولاد الكثيرة وقدم أكثرهم إفراطا، فما بكى على موت أحد منهم، ولم يمر برجلين يختصمان أو يقتتلان إلا أصلح بينهما ولم يمض عنهما حتى يحابا، ولم يسمع قولا قط من أحد استحسنة إلا سأل عن تفسيره وعمن أخذه، وكان يكثر مجالسة الفقهاء والحكماء، وكان يغشي القضاة والملوك والسلاطين، فيرثي للقضاة ما ابتلوا به ويرحم الملوك والسلاطين لغرتهم بالله وطمأنيتهم في ذلك ويعتبر ويتعلم ما يغلب به نفسه ويجاهد به هواه ويحترز به من الشيطان فكان يداوي قلبه بالفكر ويداوي نفسه بالعبر وكان لا يظعن إلا فيما ينفعه فبذلك أوتي الحكمة ومنح العصمة.

فان الله تبارك وتعالى أمر طوائف من الملائكة حين انتصف النهار وهدأت العيون بالقائلة فنادوا لقمان حيث يسمع ولا يراهم فقالوا: يا لقمان هل لك ان يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس؟

فقال لقمان: إن أمرني الله بذلك فالسمع والطاعة لأنه ان فعل بي ذلك أعانني عليه وعلمني وعصمني وإن هو خيرني قبلت العافية، فقالت الملائكة يا لقمان لم قلت ذلك؟

قال: لان الحكم بين الناس من أشد المنازل من الدين وأكثرها فتنا وبلاء ما يخذل ولا يعان ويغشاه الظلم من كل مكان وصاحبه فيه بين أمرين ان أصاب فيه الحق فبالحري ان يسلم وان أخطأ أخطأ طريق

الجنة ومن يكن في الدنيا ذليلاً وضعيفاً كان أهون عليه في المعاد أن يكون فيه حكماً سرياً شريفاً، ومن اختار الدنيا على الآخرة يخسرهما كليهما تزول هذه ولا تدرك تلك، قال: فتعجبت الملائكة من حكمته واستحسن الرحمن منطقته، فلما أمسى وأخذ مضجعه من الليل أنزل الله عليه الحكمة فغشاه بها من قرنه إلى قدمه وهو نائم وغطاه بالحكمة غطاءً فاستيقظ وهو أحكم الناس في زمانه، وخرج على الناس ينطق بالحكمة ويثبتها فيها.

قال: فلما أوتي الحكم بالخلافة ولم يقبلها أمر الله الملائكة فنادت داود بالخلافة فقبلها ولم يشترط فيها بشرط لقمان فأعطاه الله الخلافة في الأرض وابتلي فيها غير مرة وكل ذلك يهوي في الخطأ يقبله الله ويغفر له، وكان لقمان يكثر زيارة داود عليه السلام ويعظه بمواعظه وحكمته وفضل علمه، وكان داود يقول له: طوبى لك يا لقمان أوتيت الحكمة وصرفت عنك البلية وأعطي داود الخلافة وابتلي بالحكم والفتنة»^(١) الحديث.

ومفادها بوضوح أن منح العصمة أو الإمامة ليس بنحو الإلجاء والجبر بل بعرض اختياري، وذلك بعد مكابدهم لجملة من الامتحانات قبل وحين وبعد هذا العرض، وهذه جهة أخرى من جهات الاختيار في العصمة والاصطفاء والمناصب الإلهية.

الجهة الرابعة:

الاختيار في بقاء واستمرار العصمة:

إن الاختيار في أصل وجود صفة العصمة والمقامات الاصفائية الأخرى يستمر ولا يتبدل إلى الإلجاء استمراراً وبقاءً، كما في مفاد عدة من الروايات منها:

ما رواه الشيخ في الأمالي بسنده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه الذي قبض فيه كان رأسه في حجري والبيت مملوء من أصحابه، من المهاجرين والأنصار، والعباس بين يديه، يذب عنه بطرف رداءه، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يغمى عليه ساعة ويفيق ساعة، ثم وجد خفة، فأقبل على العباس، فقال: يا عباس، يا عم النبي، اقبل وصيتي في أهلي وفي أزواجي، واقض ديني، وانجز عدااتي وأبرئ ذمتي. فقال العباس: يا نبي الله، أنا شيخ ذو عيال كثير، غير ذي مال ممدود، وأنت أجود من السحاب الهاطل والريح المرسله، فلو صرفت ذلك عني إلى من هو أطوق له مني.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أما إنني سأعطيها من يأخذها بحقها، ومن لا يقول مثل ما تقول، يا علي هاكها خالصة لا يحاقد فيها أحد، يا علي اقبل وصيتي وأنجز مواعيدي وأدِّ ديني، يا علي اخلفني في أهلي، وبلغ عني من بعدي.

قال علي عليه السلام. فلما نعى إلي نفسه، رجف فؤادي وألقي علي لقوله البكاء، فلم أقدر أن أجيبه بشيء، ثم عاد لقوله فقال: يا علي، أو تقبل وصيتي؟ قال: فقلت، وقد خنقتني العبرة، ولم أكد أن أئين. نعم، يا رسول الله^(١) الحديث.

وما في الكافي بسنده عن أبي الحسن موسى عليه السلام في حديث نزول جبرئيل والملائكة بكتاب الوصية من الله على رسول الله صلى الله عليه وآله قبيل رحيله: (فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي أخذت وصيتي وعرفت بها وضمنت لله ولي الوفاء بما فيها، فقال علي عليه السلام: نعم بأبي أنت وأمي علي ضمانها وعلى الله عوني وتوفيقي على أدائها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي إني أريد أن أشهد عليك بموافاتي بها يوم القيامة. فقال علي عليه السلام: نعم أشهد، فقال النبي صلى الله عليه وآله: إن جبرئيل وميكائيل فيما بيني وبينك الآن وهما حاضران معهما الملائكة المقربون لأشهدهم عليك، فقال: نعم ليشهدوا وأنا - بأبي أنت وأمي - أشهدهم، فأشهدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وكان فيما اشترط عليه النبي بأمر جبرئيل عليه السلام فيما أمر الله عز وجل أن قال له: يا علي تنفي بما فيها من موالة من وإلى الله ورسوله والبراءة والعداوة لمن عادى الله ورسوله والبراءة منهم على الصبر منك [و] على كظم الغيظ وعلى ذهاب حقدك وغضب خمسك وانتهاك حرمتك؟

فقال: نعم يا رسول الله. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لقد سمعت جبرئيل عليه السلام يقول للنبي: يا محمد عرفه أنه ينتهك الحرمه وهي حرمه الله وحرمه رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى أن تخضب لحيته من رأسه بدم عبيط قال أمير المؤمنين عليه السلام: فصعقت حين فهمت الكلمة من الأمين جبرئيل حتى سقطت على وجهي وقلت: نعم قبلت ورضيت وإن انتهكت الحرمه وعطلت السنن ومزق الكتاب وهدمت الكعبة وخضبت لحيتي من رأسي بدم عبيط صابرا محتسبا أبدا حتى أقدم عليك، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة والحسن والحسين وأعلمهم مثل ما أعلم أمير المؤمنين، فقالوا مثل قوله فختمت الوصية بخواتيم من ذهب، لم تمسه النار ودفعت إلى أمير المؤمنين عليه السلام ^(١) الحديث.

وهذا كله بعد نزول آية التطهير في شأنهم وتنصيبهم أئمة وولاية أمر وأخذ بيعة الغدير له على الناس ومع كل ذلك فلا استمرار أيضا يبقى تحت المشاركة أو الوفاء ومقتضيات الميثاق، نظير قوله تعالى:

﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِيلِ ٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ٤٧﴾ ^(٢) وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُؤْسَسْ لَكُمْ مِنَ الْمَرْسَلِينَ ١٣٩﴾ إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ١٤١﴾ فَالْقَمْعَةُ الْخَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي

(١) الكافي: ح ١، ص ٢٨١ كتاب الحججة باب أن الأئمة عليهم السلام لم يفعلوا شيئا ولا يفعلون إلا بأمر الله عز وجل ح ٤.
 (٢) الحاققة: الآية ٤٤ - ٤٧.

بَطْنِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَبَدَّلْنَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَّقُطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴿١﴾
 وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٢﴾.

المقام الثاني:

الاختيار في الافعال الصادرة عن العصمة:

فمضافا إلى ما مر من الجهات العديدة المبينة للاختيار في أصل حصول الاصطفاء، وعدم كونه صفة جبرية ولا كسبية ولا تفويضية بل هي اختيارية اصطفائية، فمع كل ذلك فإن الأفعال الصادرة منها هي عن اختيار، فلا توجب صفة العصمة صدور الافعال عنها بنحو الإلجاء، فمع غض النظر عن كون أصل الإصطفاء والعصمة اختياريا أو غير اختياري، فإن الأفعال الصادرة عن صفة الاصطفاء والعصمة هي أفعال اختيارية وليست جبرية، وليست هذه الأفعال اختيارية وحسب بل هذه افعال اختيارية اصطفائية كما هو مفاد قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ﴿٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا

(١) سورة الصافات: الآية ١٣٩ - ١٤٧.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٨٨.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٢٦ - ٢٧.

الاختيار في أصل العصمة..... ١٥٧

وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴿١﴾. أي أن صدور الأفعال منهم بهدي
فيض وحياني ، ومن ثم عبّر بـ(أوحينا إليهم فعل الخيرات) فالفعل
بمدد وحياني وتسديد رباني وهو الدور الذي تقوم به صفة الاصطفاء
والعصمة.

القاعدة الثامنة:

ملازمة الأحداث واشتباك الأوراق

في حياة المعصومين عليهم السلام

و

القاعدة التاسعة:

محاسبة المعصوم بما يرتبط بفعل أمته غير مخل بعصمته

ضمن بحث

حول عتاب الزهراء عليها السلام لأئمة المؤمنين عليه السلام

ملخص القاعدة الثامنة

إنَّ أحوال المعصومين ذاتَ أوراقٍ مشتبكةٍ وحالاتٍ مختلفةٍ وَمِنْ الصعوبة أن يفكك الإنسان بين تلك الأوراق بسرعة، بلْ لَابْدَ مِنْ التروي والتدقيق للوصول إلى حقيقة الحال، وإنَّ الكثير مِنْ الاعتراضات أو الشبهات المطروحة في مسألة (العصمة) ناتجة عَنْ عدم القدرة عَلَى ترتيب هذه الأوراق فتحصل نظرة سطحية وساذجة وتحليل خاطئ في مسألة العصمة.

ومنها أكثر الموارد التي رصدت في القرآن الكريم كطعن في عصمة الأنبياء إذ كانت بسبب هذا التشابك في الأوراق، أمَّا إِذَا فككت تلك الأحوال خطوة خطوة، وعيَّنة عيَّنة فَإِنَّ اللبس سيرتفع وتتَّضح منظومة العصمة بشكل جلي.

فهذه القاعدة الثامنة قاعدة مُهمَّة في معرفة الحلّ للكثير من الملابسات والتوهّمات التي يستعصي عَلَى الكثير من الناظرين والباحثين حلّها.

وهذه التؤدة والتدقيق في حل ملابسات أحوال المعصومين عليه السلام نجدها عِنْدَ الإمام الرضا عليه السلام في المناظرات التي جرت تحت عنوان

الدفاع عَنْ عَصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ فِي مُحَاجَّاتِهِ مَعَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَسَائِرِ
الْمَذَاهِبِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَقَدْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَجْلِبَ تِلْكَ الْإِشْكَالَاتِ بَانْتِهَاجِ هَذِهِ
الْمَنْهَجِيَّةِ، وَهِيَ تَحْلِيلُ وَتَفْكِيقُ الْأُورَاقِ الْمَشْتَبِكَةِ وَالْأَحْدَاثِ الْمُلْتَبَسَةِ.

عتاب الزهراء عليها السلام لأmir المؤمنين عليه السلام

وَرَدَ فِي مَصَادِرِ رِوَايَةٍ عَدِيدَةٍ عِنْدَنَا مَا ظَاهَرَهُ وَصُورَتُهُ عِتَابُ الزَّهْرَاءِ عَلَيْهَا السَّلَامُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ نَصْرَتِهَا، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ رَجَعَتْ مِنْ خُطْبَتِهَا الْفِدْكِيَّةِ فِي الْمَسْجِدِ.

ففي الاحتجاج الذي روى خطبة الزهراء عليها السلام بسنده عن عبد الله بن الحسن بن الحسن المعروف بعبد الله المحض، وفي نهاية الخطبة يروي: ثم انكفأت عليها السلام وأمر المؤمنين عليها السلام يتوقع رجوعها إليه ويتطلع طلوعها عليه فلما استقرت بها الدار قالت لأمر المؤمنين عليها السلام: «يا ابن أبي طالب اشتملت شملة الجنين، وقعدت حجرة الظنين، نقضت قادمة الأجدل، فخانك ريش الأعزل، هذا ابن أبي قحافة يبتزني نحلة أبي وبلغة ابني، لقد أجهد في خصامي، وألفيته ألد في كلامي، حتى حبستني قيلة نصرها والمهاجرة وصلها، وغضت الجماعة دوني طرفها، فلا دافع ولا مانع، خرجت كاظمة وعدت راغمة، أضرعت خدك يوم أضعت خدك، افترست الذئاب وافترشت التراب، ما كفت قائلًا ولا أغنيت طائلاً ولا خيار لي، ليتني مت قبل هنيئتي ودون ذلتي عذيري

الله مِنْهُ عَادِيَا وَمِنْكَ حَامِيَاً، وَيَلَايِي فِي كُلِّ شَارِقٍ، وَيَلَايِي فِي كُلِّ غَارِبٍ، مَاتَ الْعَمَدُ وَوَهَنَ الْعَضُدُ، شَكَوَايِي إِلَى أَبِي وَعَدُوَايِي إِلَى رَبِّي، اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَحَوْلَاً وَأَشَدُّ بِأَسَاً وَتَنْكِيلَاً» فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «لَا وَيْلَ لَكَ بَلِّ الْوَيْلَ لِسَانِكَ ثُمَّ نَهَيْ عَنُ وَجَدِكَ يَا ابْنَةَ الصَّفْوَةِ، وَبَقِيَّةَ النَّبُوَّةِ فَمَا وَنَيْتَ عَنُ دِينِي وَلَا أَخْطَأْتُ مَقْدُورِي فَإِنَّ كُنْتُ تَرِيدِينَ الْبَلُغَةَ فَرَزَقَكَ مَظْمُونٍ وَكَفَيْلِكَ مَأْمُونٍ وَمَا أُعِدُّ لَكَ أَفْضَلَ مِمَّا قَطَعَ عَنكَ فَاحْتَسِبِي اللَّهَ» فقالت: «حسبي الله وأمسكت»^(١).

وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّ فَاطِمَةَ عليها السلام حَرَضْتَهُ يَوْمَاً عَلَى النَّهْوِضِ وَالْوَثُوبِ، فَسَمِعَ صَوْتَ الْمُؤَذِّنِ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ لَهَا: «أَيْسَرَكَ زَوَالُ هَذَا النِّدَاءِ مِنَ الْأَرْضِ؟» قَالَتْ: «لَا»، قَالَتْ: «فَإِنَّهُ مَا أَقُولُ لَكَ»^(٢).

وَهَذَا الْجَوَابُ يُلْخِصُ سَبَبَ قَعُودِهِ أَوْ عَدَمِ الدِّفَاعِ وَالْحَمَايَةِ عَنْهَا هُوَ حَرَصٌ مِنْهُ عَلَى أَنْ لَا يُضَيِّعَ الدِّينَ وَإِلَّا فَلَا خَوْفَ لَهُ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ابْتَرَوْا السُّلْطَةَ.

العتاب المشترك لأمير المؤمنين والأنصار:

وَلَمْ يَكُنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام هُوَ الْوَحِيدَ الَّذِي عَاتَبْتَهُ الزُّهْرَاءُ عليها السلام

(١) الاحتجاج: ج ١، ص ١٤٥.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١١ ص ١١٣ و ج ٢٠ ص ٣٢٦ و ص ٧٣٥ نحوه

عتاب الزهراء عليها السلام لأmir المؤمنين عليه السلام..... ١٦٥
بل سبق هذا العتاب عتاب آخر منها عليه السلام للأنصار يشابه في أكثر فقراته
عتابها الآخر لأmir المؤمنين عليه السلام، فقد عاتب الأنصار في خطبتها على
أمور عديدة:

١- فقد عاتبهم على التفرج على اغتصاب حقها وعدم تحريك
أي ساكن في استرجاعه.

٢- دعوتهم إلى نصرتها واسترجاع حقها في فدك عسكريا وبقوة
السلاح.

٣- دعوتهم إلى جهاد قريش وأهل السقيفة الغاصبين للخلافة
والناكثين لعهد يوم الغدير.

٤- عاتبهم على عدم الوفاء بالعهود التي أخذت عليهم عند
بيعة العقبة في نصره رسول الله صلى الله عليه وآله ونصرة أهل بيته عليهم السلام.

٥- العتاب على التحير والتخاذل في اتخاذ الموقف تجاه الانقلاب
على الشرعية.

٦- العتاب على الخلود إلى الخفض والدعة واختيار الراحة على
تحمل مشاق الجهاد والمواجهة بوجه أصحاب السقيفة.

٧- دحض ما يتعذر به الأنصار، فإن قوة جبهة الكفر التي
خاضوا الجهاد ضدها في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لم يبق منها قوة تذكر حين
انقلابها على الشرعية، حتى يتعذر بأي مخاوف منهم.

٨- ان هذا العتاب كله اقامة للحجة عليهم وقطع معاذيرهم.

فما هو الوجه في عتاب أمير المؤمنين عليه السلام مع عصمته وعدم تقصيره لما نعتهم اياه عن القيام بالحق وبواجب نصره الزهراء عليهن السلام، ثم ما هو الوجه في تخصيص أمير المؤمنين عليه السلام بالعتاب؟

والملاحظ أنها في خطبتيها في المسجد وفي نساء المهاجرين والأنصار تدافع عن أمير المؤمنين بشدة وعن استحقاقاته فكيف يجمع بين ذاك الدفاع وهذا العتاب؟

تحليل مجريات الأحداث:

غربة ووحدة الزهراء عليها السلام:

ما نشاهده في هذا النص أن الصديقة الطاهرة عليها السلام تشكو في كلمتها عدم الحامي والمحامي بتلك الدرجة من الحماية التي كانت تتمتع بها في عهد أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله، لا في أصل الحماية فلا ريب إنها في حماية أمير المؤمنين عليه السلام، ولكن الكلام في تلك الحماية البالغة التامة والمنيعة التي لا يمكن أن تخرق، فالزهراء عليها السلام قد افتقدت تلك الدرجة من الحماية.

وَقَدْ جَرَى مَا جَرَى مِنَ الظلم والاضطهاد والضميم وتجراًوا عَلَيْهَا وَعَلَى حرمة دارها، وَلَا مِنْ مانع وَلَا مِنْ دافع. وَقَدْ تَكَرَّرَت الانتهاكات لَا مَرَّةً وَلَا مَرَّتَيْنِ بَلْ - كَمَا يَنْقُلُ بَعْضُ الفضلاء المتبعين - أَنْ هُنَاكَ

عتاب الزهراء عليها السلام لأmir المؤمنين عليه السلام..... ١٦٧
عشرة مشاهد حصل هذا الانتهاك لحرمة سيد المرسلين ﷺ، وأمير المؤمنين عليه السلام مقيد بالظروف وبالوصية الإلهية، ولا يستطيع أن يحرك ساكناً، فهِيَ عشرة مواطن منها المواجهة حين الهجوم على الدار، ومنها حين إخراج أمير المؤمنين عليه السلام، ومنها المواجهة حين غضب فذك، ومنها حينما رجعت بالكتاب الذي كتبه أبو بكر بإرجاع فذك، فأخذ عمر الكتاب ومزقه، ومنها حين ذهبت لتخطب، وفي قضية فذك في أخذها وإرجاعها وأخذها مرّة أخرى مناورات ومواجهات فهناك انتهاكات عديدة حصلت للزهراء عليه السلام.

والنتيجة: أن الزهراء عليه السلام عانت ما عانت من الضرب والرفس واللطمه وكسر الضلع وإسقاط الجنين وضرب السوط وبغلاف السيف والشتائم وهِيَ تكابد وحدها منفردة بلا حام ولا مانع ولا دافع، وكَيْسَ ذَلِكَ تحاذلاً من أمير المؤمنين عليه السلام وحاشاه من ذلك، بل قد تدخل في بعض الموارد وحامى عنها، ولكنها في جملة من الموارد والمواطن انفردت بالمكابدة.

وقد ذكر ذلك أمير المؤمنين عليه السلام نفسه متحسراً؛ وذلك بعيد ما جرى عليها عليه السلام: «أيتها الغدرة الفجرة!... أو تضرب الزهراء نهرًا، ويؤخذ منّا حقنا قهراً وجبراً، فلا نصير، ولا مجير، ولا مسعد، ولا منجد.

فليت ابن أبي طالب مات قبل يومه فلا يرى الكفرة الفجرة قد ازدحموا على ظلم الطاهرة البرّة.. فتبّاً تبّاً.. وسحقاً سحقاً! ذلك أمر إلى

الله مرجعه وإلى رسول الله ﷺ مدفعه، فقد عزَّ على ابن أبي طالب أن يسودَّ متن فاطمة ضرباً، وقد عُرف مقامه وشوهدت أيامه.. فلا يثور إلى عقيلته، ولا يصرَّ دون حليلته.. فالصبر أيمن وأجمل، والرضا بما رضي الله به أفضل، لكيلا يزول الحقُّ عن وقره، ويظهر الباطل من وكره.. حتى ألقى ربِّي فأشكو إليه ما ارتكبتُم من غضبكم حقِّي، وتماطلكم صدري، وهو خير الحاكمين»^(١).

مبررات عدم قيام أمير المؤمنين عليه السلام بالمواجهة العسكرية:

وَكَانَ لِعَدَمِ تَحْرُكِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مَبْرَرَاتٌ مَذْكُورَةٌ فِي مَحَلِّهَا، وَلَمْ يَكُنْ تَحَاذِلًا وَحَاشَاهُ مِنْ ذَلِكَ.

تحاذل الأمة في النصر:

مِنْهَا: عدم قيام الأمة بدورها ومسئوليتها، وإن لم يفت ذلك ويخدش في قوة أمير المؤمنين عليه السلام إلا أنه غير مأذون بتحقيق النصر من دون قيام الأمة بما عليها، فهو عليه السلام لم يجد أنصاراً يقاتلون معه ولم تكن لديه القوة الضاربة من الأمة، وهذا مانع أساسي ذكره أمير المؤمنين عليه السلام في عدة موارد.

وليس هذا المانع هو عدم قوة واقتدار أمير المؤمنين عليه السلام عن تحقيق النصر بأسباب طبيعية هو يقدر عليها بنفسه، فلقد كان يمتلك

عتاب الزهراء عليها السلام لأmir المؤمنين عليه السلام..... ١٦٩
 من القوة والقدرة بمفرده وبالأسباب الطبيعية ما يكفي للغلبة والنصر
 على القوم، ولكنه لم يكن مآذوناً بإعمال تلك القوة ما لم يقيم معه أنصار
 وأعاون من المجتمع نفسه، لأنه لا جبر ولا تفويض في تغيير الوضع
 الفاسد وبمقتضى قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا
 بِأَنفُسِهِمْ﴾ وأن سنة الله تعالى في التغيير قائمة على الامتحان والابتلاء،
 فالتغيير لا يقوم به الإمام وحده على نحو يجبر المجتمع على ذلك، لأنه
 يمثل الوجهة الإلهية في التغيير فهو وجه الله ويد الله وعين الله وخليفة الله
 ولا يجبر الله الناس على الصلاح، فالإصلاح عملية مشتركة متعددة الأدوار
 والحشيات وما لم يقيم الناس بمسئوليتهم لا يؤذن للإمام أن يقوم بذلك
 بقدراته الفردية، كما يدل عليه قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي
 الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾
 وقوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيِّرٍ﴾
 وقوله عز وجل ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾.

وفي الزيارة الغديرية المروية بسند صحيح عن الإمام الهادي عليه السلام:
 «واشهد أنك ما اتقيت ضارعا، ولا أمسكت عن حقك جازعا، ولا
 أحجمت عن مجاهدة عاصيك [غاصبيك] ناكلا، ولا أظهرت الرضا
 بخلاف ما يرضى الله مداهنا، ولا وهنت لما أصابك في سبيل الله، ولا
 ضعفت ولا استكنت عن طلب حقك مراقبا، معاذ الله أن تكون
 كذلك... لا تحفل بالنوائب، ولا تهن عند الشدائد، ولا تحجم عن

محارب، افك من نسب غير ذلك وافترى باطلا عليك»^(١).

ومفاد هذه الفقرة من الزيارة أن إحجام أمير المؤمنين عليه السلام عن مجابهة ومواجهة مناوئيه لم يكن لضعف انتابه ولا وهن ولا ضراعة ولا استكانة ولا جزع، أي كانت لديه القوة والقدرة والشجاعة والجرأة الكافية لمواجهة أعدائه، فليس السبب في إحجامه عدم ذلك، وإنما هو ما ذكرناه من أن الأمة لا بد أن تقوم بدورها.

وفي الخطبة الطالوتية المروية في الكافي: «لولا عهد عهده إلي النبي الأُمِّي عليه السلام لأوردت المخالفين خليج المنية ولأرسلت عليهم شآبيب صواعق الموت وعن قليل سيعلمون»^(٢) ومنه يعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام كانت له القوة والقدرة على القضاء عسكرياً على أعدائه ولو كان منفرداً في الميدان ولكنه لم يكن مأذوناً بذلك وقد منعت الوصية النبوية.

بل وقوله للزهراء عليها السلام حينما حثته على المواجهة وقد سمع قول المؤذن: أشهد أن محمد رسول الله «أيسرّك زوال هذا النداء من الأرض؟ قالت: لا. قال: فإنه ما أقول لك»^(٣). فأمر المؤمنين عليهم السلام قادر على مواجهة القوم ولم تعوزه القدرة من نفسه، ولكن المانع في الأمة إما من جهة الامتحان الإلهي لها، وإلا من دون هذا الامتحان سيلزم التباس الأمور عليهم وردتهم.

(١) المزار الكبير لابن المشهدي: ص ٢٦٨.

(٢) الكافي: ج ٨ ص ٣٣ ح ٥.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١١ ص ١١٣.

إحقاق الدين أعظم من إمارة الناس

السبب الثاني: عدم سلب ثقة الناس بالدين وابداء صورة مشوهة و غير واقعية عن رسول الله ﷺ وأmir المؤمنين علياً.

فمن أهم الأسباب أنه حافظ على بيضة الإسلام، وذلك للتخوف من التوهّمات التي تنعكس في أذهان الناس جديدي العهد بالدين من تصرفات أمير المؤمنين علياً.

فما الضامن وما هي الضمانة على عدم انطباع صورة سيئة عن أمير المؤمنين علياً في ذهن الناس، وكأنه لا رغبة ولا هم ولا مطالبة لديه إلا بالمنصب والحكم، وبالتالي ليست القضية قضية دين ورسالة ووحى، وإنما هي قضية سلطة ودنيا ومناصب. والناس لا تميز بين الحق والباطل ولا تفسر موقف أصحاب السقيفة على أنه دنيا، وموقف أهل البيت علياً على أنه قيام بالوظيفة الشرعية، بل ينطبع لديهم حرص الجميع وإصرارهم على الدنيا، فالموانع عديدة والمبررات والمكبلات والمقيّدات لأmir المؤمنين في الإحجام عن القيام بالمواجهة المسلحة مع أصحاب السقيفة عديدة، وقد قيّده وصية رسول الله ﷺ ولكن للوصية أسباب وحكم وفلسفة ومن أهمها وأبرزها هو عدم سلب ثقة وإيمان الناس بالدين، وبأصل نبوة رسول الله ﷺ وأن الصراع الذي يقوم به أمير المؤمنين علياً في مواجهة الغاصبين ليس صراعاً دنيوياً يتنقع بالدين.

وإذا دبَّ الشك في أذهان الناس فَإِنَّ الشك لا يتوقف عند أمير المؤمنين عليه السلام وإنما يسري إلى أصل الدين وأصل نبوة ورسالة رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأنَّ علياً عليه السلام لم يكن منفصلاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله حتى في أعين الناس، فهو صنو النبي وابن عمه ونفسه كما في آية المباهلة، ومن نفس السلالة التي ينتمي إليها رسول الله صلى الله عليه وآله، والتلميذ الأوَّل له وأقرب الناس إليه، وكما يُقال الولد على سر أبيه، فلو انطبع في أذهان الناس صورة الطالب للدنيا عن علي عليه السلام لسرت هذه الصورة السيئة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه.

وفي الخبر أن أحد اليهود حينما شاهد علياً عليه السلام مقيداً بالحبال ويجرّ إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذ البيعة غصباً، تشهّد الشهادتين وأسلم، فلما سئل عن سبب إسلامه الآن وهو لم يسلم على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، أجاب: إنني حينما رأيت داحي باب خيبر وقاتل مرحب وهو من هو في منزلته من رسول الله صلى الله عليه وآله، ويستطيع أن يفعل ما يفعل في المواجهة العسكرية ضد السلطة والحكم، حينما رأيته لا يقدم على شيء من ذلك عرفت أنها وصية إلهية وأن الأمر خالص لله فأسلمت.

فموقف علي عليه السلام بين لعموم الناس مدى كون المسار الذي سارت عليه رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله مساراً إلهياً محضاً، ومدى الإخلاص الذي حمله أهل الرسالة، وكَيْسَ ما كَانَ منهم أطماعاً دنيوية وحرصاً على الدنيا وزهرتها، وإنما كَانَ ما كَانَ منهم حرصاً على الدين وإقامته.

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ١٧٣

وبيان أوضح: لا يخفى أن تشاغل أمير المؤمنين عليه السلام بتجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله وتؤدته عن القيام بمثل ما قام به الصحابة من الهرع والركض والهرولة وراء السلطة والإمساك بالخلافة يعطي منظرًا واضحاً عن زهد أمير المؤمنين عن أطماع الدنيا وخلوص همته وتدييره عن السعي إلى مطامع القدرة، ونقاء نواياه عن التنافس في السلطان والتماس حطام الدنيا، بينما يظهر الصحابة متكالبين عليها وعلى نهش تراث رسول الله صلى الله عليه وآله واغتصاب مقامه.

وهذا التقابل بين موقف أمير المؤمنين عليه السلام وموقفهم لا يقل عظمة، عن الفارق بين مواقفه في غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله البطولية وفرار الصحابة وجبنهم، فكم من تعاكس في المنظر بالغ ذروته، ففي كل مواطن التدبير يرى الوصي هو السابق على الجميع، ففي ميدان الشجاعة شجاعة الموقف وشجاعة إدارة الأزمة هو أول السابقين وأكفأ المدبرين، كما أنه أول السابقين في مواطن الزهد والتعفف عن الهرج والطمع في الغنائم، وما أشبه منظر الصحابة يوم السقيفة بمنظرهم عند التنازع في غنائم حنين وأحد وبدر وباقي الغزوات، فبينما هم متسابقون في الفرار والهروب عند النزال فهم متكالبون في أكل الغنيمة، وقد شهد القرآن في ما يقصه من حالهم في بدر وأحد والأحزاب وحنين وتبوك أن منهم من يريد الدنيا ومنهم من لا يأتي البأس الا قليلا تدور عينه من خوف الحرب كالذي يغشى عليه من

الموت، فإذا ذهب الخوف سلقوا المؤمنين بالسنة حداد أشحة على متاع الدنيا وأموالها، وهذه الصورة الفارقة المتميزة لم تتبدل عما كانت على عهد رسول الله ﷺ من كلا الجانبين، ليتبين أن غايات النبوة والإمامة هي على هدى سبيل الله بينما توجهات الأكثر من الصحابة هي لإصابة عرض متاع الدنيا، وهذه إحدى حكم وغايات وصية الله ورسوله لأمر المؤمنين عليهم السلام بأنه يحجم عن مدافعتهم حين الهجوم على الدار والاعتداء على بضعة المصطفى صلى الله عليه وآله بالضرب وكسر الضلع واسقاط الجنين، لتبين الصورة جلية أنهم لأجل أطماع السلطة يندفعون على هتك كل الحرمات بينما مسير ومسار بيت النبوة يبقى مقصده وجه الله، والحفاظ على حدود الله وإقامة دينه.

فكان الموقف يتطلب تعرية مشروع الصحابة والسقيفة على حقيقته أمام الأجيال وعدم السماح باختلاط الأوراق والتباسها، إذ لو صدر منه عليهم السلام مسارعة إلى الحضور في السقيفة أو الاندفاع إلى مواجهتهم لتزعزت عقيدة كل البشر في حقيقة الرسالة النبوية وصدق دعوى بيت النبوة بتوهم أو بتخيل أنها مشروع رئاسة وحكم وغلبة، فبقدر ما كانت مواجهة الزهراء عليها السلام موجبة لتعرية أصحاب السقيفة كان احجام أمير المؤمنين عليه السلام موجبا لتعريتهم بذلك القدر، فموقف الوصي والصديقة عليها السلام وإن تخالف صورة إلا أنه متحد غاية ونتيجة. وهذا ما يشير إليه جواب أمير المؤمنين عليه السلام عن العتاب والتساؤل الصوري

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ١٧٥
الذي أبدته الصديقة عليها السلام حيث قال: (فما ونيت عن ديني، ولا أخطأت
مقدوري) وحينما حرّضته على النهوض والوثوب، فسمع صوت
المؤذّن: أشهد أنّ محمّداً رسول الله، فقال لها: «أيسرّك زوال هذا النداء
من الأرض؟» قالت: (لا). قال: «فإنّه ما أقول لك»^(١).

وحينما أبت قبيلة (أسلم) أن تبايع أبا بكر قال لهم: «يا هؤلاء، إنّ
هؤلاء خيرّوني أن يظلموني حقّي وأبايعهم، أو ارتدّت الناس حتى
بلغت الردّة أحداً! فاخترتُ أن أظلم حقّي وإن فعلوا ما فعلوا»^(٢).

فهذه المسألة أو العتاب الصوري وجوابه عليها السلام وتفسيره
لإحجابه بيان لوحدة هدف كل منهما وإن اختلف صورة الموقف نظراً
لاختلاف موقعيتهما عليها السلام. ومن ثمّ كان لهما موقف ثالث مشترك في
الخفاء ففي كتاب سليم عن سلمان: «فلما أن كان الليل حمل عليّ عليها السلام
فاطمة عليها السلام على حمار، وأخذ بيدي ابنيّ الحسن والحسين عليهما السلام، فلم يدع
أحداً من أهل بدر من المهاجرين ولا من الأنصار إلاّ أتاه في منزله،
فذكّرهم حقّه، ودعاهم إلى نصّرته، فما استجاب له منهم إلاّ أربعة
وأربعون رجلاً. فأمرهم أن يُصبحوا بكرةً مُحلّقين رؤوسهم معهم
سلاحهم ليُبايعوا على الموت، فأصبحوا، فلم يوافِ منهم أحد إلاّ
أربعة. الخبر»^(٣).

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١١ ص ١١٣.

(٢) الشافي: ج ٣ ص ٢٤٣.

(٣) كتاب سليم بن قيس: ج ٢ ص ٥٨٠.

وفي الإمامة والسياسة: (خرج عليّ عليه السلام يحمل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله على دابة ليلاً في مجالس الأنصار ؛ تسألهم النصره، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، ولو أنّ زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به !

فيقول عليّ عليه السلام: «أفكنت أدع رسول الله صلى الله عليه وآله في بيته لم أدفنه، وأخرج أنازع الناس سلطانه»!؟

فقال فاطمة: «ما صنع أبو الحسن إلّا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيهم وطالبهم»^(١) وهذا الجواب من الزهراء عليها السلام تصريح بعلمها بغاية موقف أمير المؤمنين عليه السلام من الإحجام وأنه يصب فيما تروم هي عليها السلام إليه، وبالتالي فإن عتابها كان صورياً بغاية توضيح وحدة الهدف أمام الآخرين الذين قد يلتبس عليهم فهم ذلك.

بل إن هذا الموقف الموحد في الخفاء قد برز من أمير المؤمنين عليه السلام في عدة من المواطن وإن لم تكن هي الغالبة نظير ما ورد في الخطبة الطالوتية المروية في الكافي: «أما والله لو كان لي عدة أصحاب طالوت أو عدة أهل بدر وهم أعداؤكم لضربتكم بالسيف حتى تؤولوا إلى الحق وتنبوا للصدق فكان أرتق للفتق و آخذ بالرفق، اللهم فاحكم بيننا بالحق وأنت خير الحاكمين.

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ١٧٧

قال ثم خرج من المسجد فمر بصيرة فيها نحو من ثلاثين شاة، فقال: والله لو أن لي رجالا ينصحون لله عز وجل ولرسوله بعدد هذه الشياه لآزت أبناً أكلة الذبان عن ملكه».

قال: «فلما أمسى بايعه ثلاثمائة وستون رجلاً على الموت فقال لهم أمير المؤمنين عليه السلام: اغدوا بنا إلى أحجار الزيت محلقين.. الخبر»^(١).

الخطوط الحمراء:

طبعاً لم يكن لأمير المؤمنين عليه السلام أن يسكت عن كل شيء بل هناك ثوابت للدين ما كان لأمير المؤمنين عليه السلام أن يسكت عنها ولو حصل ما حصل، وإلا لمسخ الدين واندثر، ولذا حينما خطب الثاني خطبته المعروفة المذكورة عندهم، وقال في محضر الصحابة: «أرأيتم لو ترخصت في بعض الأمر ما كنتم فاعلين؟» فقام له أحد المسلمين وشهر سيفه وقال: «إذن قومناك بسيفنا» فهناك ثوابت في الدين لا يستطيع الحزب القرشي والسقيفي أن يتلاعب بها، فقد يسكت أمير المؤمنين عليه السلام خوفاً من المحذور السابق في طلب الحاكمية الدنيوية ولكن لا يمكن أن يسكت لو مُسَّتْ ثوابت الدين التي بنيت على يد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وهذا الرجل الذي قام بوجه عمر هو أمير المؤمنين عليه السلام - حسب

تبع البعض - وقد تعمدوا تمويه وتغيب اسمه في النقل التاريخي .

وكذلك موقف أمير المؤمنين عليه السلام بعد دفن فاطمة عليها السلام لما أراد القوم أن ينشوا القبور، قَالَ لهم والخطاب موجه لعمر: «أَمَّا وَاللَّهِ مَا دَامَ قَلْبِي بَيْنَ جَوَانِحِي وَذُو الْفَقَارِ فِي يَدِي فَإِنَّكَ لَا تَصِلُ إِلَى نَبْشِهَا، فَانْتَ أَعْلَمُ... يَا ابْنَ السُّودَاءِ! أَمَّا حَقِّي فَقَدْ تَرَكْتَهُ مَخَافَةَ أَنْ يَرْتَدَّ النَّاسُ عَنْ دِينِهِمْ، وَأَمَّا قَبْرُ فَاطِمَةَ فَوَالَّذِي نَفْسُ عَلِيٍّ بِيَدِهِ لَتُنَّ رَمَتْ وَأَصْحَابُكَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لِأَسْقِينِ الْأَرْضَ مِنْ دِمَائِكُمْ، فَإِنَّ شَيْئًا فَاعْرَضَ يَا عَمْرُ وَاللَّهِ لَوْ ذَهَبَتْ تَرُومٌ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، وَعَلِمْتَ أَنَّكَ لَا تَصِلُ إِلَى ذَلِكَ حَتَّى يَنْدِرَ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاكَ، فَإِنِّي كُنْتُ لَا أَعَامِلُكَ إِلَّا بِالسَّيْفِ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ»^(١).

تشابك الأوراق وطبيعة التحيزات:

إنَّ الوضع كَانَ حرجاً يشهد تعقيداً في الملفات، فالحزب القرشي مُصْرَبٌ بِكُلِّ إمكانياته على أحد أمرين: إمَّا أَنْ يَحْكُمَ مِنْ خِلَالِ الدِّينِ أَوْ لَا يَبْقَى لِلدِّينِ مِنْ بَاقِيَةٍ وَتَعُودُ الْجَاهِلِيَّةُ مِنْ جَدِيدٍ.

وهذا نفس موقف قريش وحزب قريش الَّذِينَ لَمْ يَفْتَوُوا فِي محاربة الإسلام بصراحة أو في لباس النفاق، وإنَّ أواصر الأحزاب الَّتِي تَحَزَّبَتْ فِي قتال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لَمْ تنته بانتهاء غزوة الأحزاب، فلقد

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ١٧٩
 انهزموا في تلك الحرب ولكن لم تنته علاقاتهم الحزبية، ولم يكن
 المتحزبين في خط رسول الله ﷺ أكثرهم من المهاجرين بل من كان مع
 خط رسول الله من المهاجرين ثلة قليلة جداً، وإنَّ العمد الأساسي
 لعمل رسول الله ﷺ في مَكَّةَ ومن أهل مَكَّةَ كان في بني هاشم وفي
 ساعد علي بن أبي طالب عليه السلام وموقف أبيه أبي طالب ومواقف خديجة
 وجعفر الطيار وحزمة سيد الشهداء عليه السلام، وثلة قليلة من المؤمنين كزيد
 بن حارثة وعبدالله بن رواحة وأنَّ عمدة القاعدة الاجتماعية التي كانت
 تشكل الثقل الاجتماعي هم الأنصار؛ ولذا فإنَّ الدولة الإسلامية بدأ
 تأسيسها من بيعة العقبة التي بايع فيها الأنصار رسول الله ﷺ، وإنَّ
 الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي لم تقم له قائمة إلا في المدينة،
 وقد كانت الأنصار كما في تعابير الفريقين وفي الروايات النبوية اليد
 الضاربة لرسول الله ﷺ.

فما كان موقف الأنصار في فتنة السقيفة؟ لقد دبَّ الخلاف في
 هذه القاعدة الاجتماعية والعنصر الفعّال، بتخطيط بين بعض
 المتواطئين من الأنصار مع حزب قريش كبشير بن سعد والد النعمان
 بن بشير وأسيد بن حضير ومحمد بن مسلمة^(١) لأجل خلافات
 وتنافسات قبلية وخوفاً من سيطرة سعد بن عبادة منافسهم القبلي،
 فاستطاعوا أن يدبوا الخلاف في وسط الأنصار، وبشير وأسيد هما

(١) راجع تاريخ الطبري: ج ٣، في ذكر أخبار السقيفة.

اللدان استطاعا بكلامهما وموقفهما أن يكسرا ويفتتا الصف الواحد والإجماع الحاصل في الأنصار وَذَلِكَ نتيجة صفقة متواطئة مَعَ الخط القرشي وأصحاب السقيفة، وَبَعْدَ هذا الخلاف وسط الأنصار وانكسار وحدتهم واتفاقهم، تفتت القوة الضاربة للأنصار ووهن العمدة الذي تقوى به الإسلام.

أما سعد بن عبادة فيفهم مِنْ بَعْضِ الروايات أَنَّهُ قام بما قام به مِنْ المطالبة بالخلافة لنفسه لأجل أَن يحمي لأهل البيت، ولكن تصرفه لَمْ يكن ذكياً بَلْ تصرف خاطئاً جداً وبدلاً أَن يكون موقفاً ورقة رابحة لأهل البيت ﷺ تحوّل مِنْ حَيْثُ لا يشعر إلى صالح الحزب القرشي.

وَكَما يقول أمير المؤمنين ﷺ: «أشعل ناراً ضوءها لغيره» فَهُوَ لَمْ يحسن التصرف بَلْ أخطأ خطأ كبيراً والأخطاء في المنعطفات الخطيرة تكون قاتلة للموقف.

أما بَقِيَّةُ الأحزاب وشبكتها التي حاربت رسول الله ﷺ والتي يندد بها القرآن الكريم في عِدَّةِ مواضع فَهِيَ لَمْ تنته ولا يمكن أَن تنتهي خلال سنوات قليلة فالطبيعة القبلية والتحالف القبلي الذي قاده أبو سفيان في حرب الخندق قَدْ انكسر عسكرياً ولكن لَمْ تتم إبادته وإزالته سيما بَعْدَ دخول هذه الشبكة مِنْ الأحزاب في الجسم الإسلامي وبقائها على ما هِيَ عَلَيْهِ مِنْ التواطؤ والترابط والشبكية.

عتاب الزهراء عليها السلام لأmir المؤمنين عليه السلام..... ١٨١

وَعَلَيْهِ فَقَدْ انطوت في الجسم الإسلامي قوتان فاعلتان ضاربتان، متنافستان قوة الأنصار من جهة وقوة حزب قريش وشبكة الأحزاب من جهة أخرى وإذا تصدع أحد الجناحين قوي الجناح الآخر، والتصرف السيء وَغَيْرِ المدروس لبعض قيادات الأنصار كسعد بن عباد، والتصرف المتواطئ من بعض العناصر الأخرى كسرت شوكة الأنصار، وبالتالي ربح حزب قريش وشبكة الأحزاب الجولة وكسبوا لصالحهم.

وَقَدْ كَانَ جملة كبيرة من الحزب القرشي من العناصر الكبيرة التي أسلمت عام الفتح واطلقهم رسول الله ﷺ، والتي كانت تعبد الوثن إلى عام الفتح وتشرب الخمر وترتكب الفواحش، فَهَلْ كانوا ليظهروا بين ليلة وضحاها؟ لا بَلْ كانوا يعيشون التآمر على الدين والإسلام والقرآن إلى ما قبل فترة قليلة، فَقَدْ أسلموا في شهر رمضان من عام الفتح العام الثامن من الهجرة، وتوفي رسول الله ﷺ بعد سنتين وأشهر، فَهَلْ يتزع منهم هذا العدا لله ورسوله ولأهل بيت رسوله ﷺ. فطبيعة النزعات النفسية والميولات القبلية تفرض أن يقفوا مع خط قريش.

فالأوضاع كانت متوترة جداً والخطر يهدد بنى الإسلام وإذا خاض علي عليه السلام مواجهة عسكرية قد يسبب ذلك المخاطرة والمجازفة بمصير الإسلام، نظير الجنين الذي ولد للتو ويحصل في محضره تصارع مسلح فَقَدْ تنطلق رصاصة طائشة وتقتله في مكانه.

الموقف المطلوب من أمير المؤمنين عليه السلام والزهراء عليهن السلام :

وفي ظل هذه الأوراق المعقدة والمشتبكة مِنْ حَيْثُ الموقف الاستراتيجي والعائدي للدين مِنَ الطبيعي أَنْ تكون الوظيفة اللازمة عَلَى أمير المؤمنين عليه السلام هُوَ الحفاظ عَلَى ثوابت الدين وَأَنْ لا يبدي أَيِّ سباق عَلَى القدرة والسلطة؛ ولذا نرى أَنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لَمْ يرسل حَتَّى رسولاً واحداً مِنْ قبله إِلَى السقيفة، فَالْقِصَّة ليست قصة ظرف ما بَعْدَ السقيفة بَلْ الكلام فِي نفس ظرف السقيفة، ولماذا لَمْ يبادر علي عليه السلام بأدنى خطوة، بَلْ أبدى فِي ذلك الظرف منتهى الزهد والابتعاد عَن أَيِّ خطوة فِي سبيل السلطة، وظل مشتغلاً بما هو أهم من السلطة وهو تجهيز الجثمان الطاهر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

هذا كله لكي يتبين للناس أَنَّ مدار الدين والرسالة لَيْسَ هُوَ الحكم والطمع فيه وطلب القدرة، وَإِنَّمَا هِيَ آلة وأداة لإقامة الدين فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تعلم أَنَّهُ لم يكن الذي كان منا منافسة فِي سلطان ولا التماس شئ من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح فِي بلادك. فَيَأْمَنُ المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك»^(١) وَعَلَى كُلِّ فَنِّ الحديث عن خلفيات موقف أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل، وما ذكرناه هو مجمل الملفات والأوراق المشتبكة.

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ١٨٣

وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ يَخْتَلِفُ مَوْقِفُ الزَّهْرَاءِ عَلَيْهِمَا فِي ظِلِّ هَذِهِ الْمَوَاقِعِ الْمَكْتَبَةِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمَا كَانَ عَلَى سَيِّدَةِ النِّسَاءِ أَنْ تَقُومَ بِدَوْرِهَا الْخَاصِّ لِثَلَايِتِهِمْ النَّاسِ وَالْأَجْيَالِ أَنَّ بَيْتَ النَّبُوَّةِ وَعَلِيًّا وَفَاطِمَةَ كَانُوا رَاضِينَ بِمَا وَقَعَ مِنْ انْحِرَافٍ فِي الْمَسِيرَةِ.

فَلَا بُدَّ لِلزَّهْرَاءِ عَلَيْهِمَا أَنْ تَقُومَ بِدَوْرِهَا تَكْمِيلًا لِدَوْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمَا.

حقيقة التقية:

فَمَا قَامَ بِهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمَا كَانَ تَقِيَّةً لِلْحِفَاطِ عَلَى الدِّينِ، نَعَمْ لَمْ يَمْسِكْ وَلَمْ يَجْعَمْ مِنْ ضَعْفٍ أَوْ ضِرَاعَةٍ أَوْ وَهْنٍ، وَإِنَّمَا رِعَايَةٌ وَحِيْطَةٌ عَنِ التَّفْرِيطِ بِمَقْدِرَاتِ الدِّينِ، وَكَانَ الْوَاجِبَ عَلَى الزَّهْرَاءِ عَلَيْهِمَا أَنْ تَوْضِّحَ وَتَبَيِّنَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ التَّقِيَّةَ هِيَ أَنْ تَتْرَكَ أَمْرًا وَاجِبًا مَفْرُوضًا مِنْ أَجْلِ وَاجِبٍ أَهْمٍ، أَوْ تَأْتِي بِفِعْلٍ غَيْرِ قَوِيمٍ فِي نَفْسِهِ لِأَجْلِ وَاجِبٍ أَكْثَرَ أَهْمِيَّةً، كَأَنْ يَفْطُرَ الْإِنْسَانُ يَوْمًا مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ خَوْفًا مِنْ ظَالِمٍ يَتَهَدَّدُهُ، أَوْ كَعِمَارِ الَّذِي تَلْفِظُ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ لثَلَاثًا تَقْتُلُهُ قَرِيْشٌ فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ فِي التَّقِيَّةِ ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فَعِمَارٌ لَمْ يَسْتَبْدِلِ الْإِيْمَانَ بِالْكَفْرِ قَلْبًا وَإِنَّمَا تَلْفِظُ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ، وَنَفْسُ التَّلْفِظِ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ غَيْرُ جَائِزٍ.

فَالْفِعْلُ الَّذِي جِيءَ بِهِ تَقِيَّةً، فِي نَفْسِهِ وَبِحَسَبِ الْعِنْوَانِ الْأَوَّلِيِّ غَيْرِ

مرضي نعم القبح الذي فيه يجمد كحالة استثنائية، ولا يعاقب عَلَيْهِ الله حفاظاً عَلَى الواجب الأهم، فالفعل فِي نفسه وبعنوانه الأولي حرام، وإن حليته وجوازه لَيْسَ بالعنوان الأولي وكحالة أولية، بَلْ بالعنوان الثانوي الاضطراري.

ولذا نقرأ فِي الدعاء لصاحب الزمان عليه السلام فِي دعاء الافتتاح «استخلفه فِي الأرض كَمَا استخلفت الذين مِنْ قبله مكن لَهُ دينه الذي ارتضيت لَهُ وأبدله مِنْ بَعْدَ خوفه أمناً يعبدك لا يشرك بك شيئاً»^(١) والمراد مِنْ «لا يشرك بك شيئاً» هُوَ أَنْ لا يتقي فيك أحداً ولا يشرك فِي طاعتك طاعة أحد وإن كان ذلك جائزاً بالعنوان الثانوي وكحالة اضطرارية.

فالتقية وإن كانت مِنْ دين الله وبأمر الله ولكن هذه الطريقة مِنْ طاعة الله هِيَ طاعة طارئة ونمط غَيْر أولي بَلْ نمط اضطراري وفي حالات استثنائية.

ولذا كان إيقاع النفس فِي الاضطرار والتقية عملاً غَيْر مشروع؛ فالتميم وإن شرع لفاقد الماء للصلاة، حَتَّى لا يترك الصلاة ولكن الصلاة بالطهارة الترابية ليست الامتثال الأكمل بَلْ الأكمل هُوَ الصلاة بالطهارة المائية؛ ولذا مِنْ غَيْر الصحيح أَنْ يوقع الإنسان نفسه

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ١٨٥
في الاضطرار ويفوت على نفسه الامثال الأكمل وهو الصلاة
بالوضوء.

فالتقية وضع اضطراري وليست وضعاً أولياً؛ ولذا كان يستغفر
الأنبياء والأوصياء من التقية مع أن التقية واجبة ودين ومأمور بها،
ولكن الفعل الذي اتقى فيه في نفسه مبعوض وغير مرضي لله لولا
التقية والوقاية لرعاية ذلك الأهم.

وقد اعتذر أمير المؤمنين عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله حينما أخذ إلى
المسجد قهراً وشفقوا بيده على يد أبي بكر واقتنعوا بها كبيعة أدار وجهه
إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وقال: ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا
يَقْتُلُونِي﴾ (١). واعتذر لله ولرسوله بذلك فأمر المؤمنين عليهم السلام يستغفر
من هذا المقدار من الفعل مع أنه مجاز من قبل الله تعالى بل مأمور منه
تعالى، لرعاية ما هو الأهم.

ومن باب المثال توضيحاً للفكرة: يفرض أنك تريد أن تهدي
هدية لصاحبك أو تدعوه لوليمة فالهدية جاذبة والوليمة مرغوبة،
وكذا يفرض أن تقديم تلك الهدية أو الوليمة كان مشوباً بشيء مكدر
فهنأ تقدم اعتذاراً مع أنك أتيت ما يفرحه، فهذا معنى الاستغفار في
التقية، أنت تمثل ما أمر الله به من الحفاظ على الواجب الأهم إلا أن

اختلاط الواجب الأهم بشيء مبعوض وشوبه به، يوجب أن يستغفر العبد إلى الله فالأمر لَيْسَ بيدك بَلْ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ولكن حينها تؤدي امثال أمره يشوبه شيءٌ مِنْ الكدورة فتعتذر وتستغفر.

فالفعل الذي يتقى به لَيْسَ مطلوباً في نفسه بَلْ هُوَ مبعوض حسب طبعه الأولي وَمِنْ الواضح أَنَّ الإحجام عَنْ نصره سيدة النساء عليها السلام أو الإحجام عَنْ استعادة حقها في نفسه وبحسب طبعه الأولي مِنَ المحرمات البالغة كَمَا وَرَدَ فِي الرواية الشريفة المعروفة (فإنه من سمع واعيتنا أهل البيت ثم لم يجبنا، أكبه الله على وجهه في نار جهنم)^(١) فالإحجام عَنْ نصره الزهراء عليها السلام فِي نفسه لَيْسَ مشروعاً ولكن أتى بهذا الفعل انقاءً ولعدم التفريط بأصل الدين.

التكامل بين أدوار المعصومين (دور علي وفاطمة عليهما السلام):

ولذا كانت هُنَاكَ أدوار مختلفة فِي الشكل متكاملة فِي الغاية للمعصومين عليهم السلام، وَإِنَّ قراءة سيرة المعصومين عليهم السلام لا بُدَّ أَنْ تكون بنظرة مجموعية تلحظ المجموعة والمنظومة المتكاملة مِنَ الأدوار، فلا يمكن الاقتباس مِنَ الهداية والتشريع والأحكام مِنْ بعض المعصومين وترك الآخرين، بَلْ الحَقُّ والصواب والهداية هُوَ النظر إِلَى المنظومة والمجموعة ككل وَإِلَّا أصبحت النظرة مصداقاً لقوله تَعَالَى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ١٨٧
بِبَعْضِ الْكُتُبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴿١﴾. فَلابدُّ مِنْ دراسة حياة وسيرة
أهل العصمة وبناء المنهاج عَلَى ضوء منهاج الأئمة الأربعة عشر
كمنظومة متكاملة ومتراصفة فِي الأدوار. وَإلاَّ خرجنا بنظرة ورواية
غَيْر موزونة وَغَيْر واقعية عَنْ حقيقة أدوارهم وسيرتهم العطرة.

وَمِنْ هُنَا نعرف التكمال بين دور علي وفاطمة عليهما السلام ففي الحين
الذي كَانَ عَلَى أمير المؤمنين عليه السلام أَنْ يكف عَنْ المواجهة المسلحة اتقاءً
وخشية عَلَى مصير الإسلام وحفاظاً عَلَى ثوابت الشريعة، كَانَ عَلَى
الزهراء أَنْ تقوم بما قامت به توضيحاً للموقف الشرعي للبيت النبوي،
وَإلاَّ لأوهم أهل السقيفة للأجيال أَنْ ما حصل مِنْ الانحراف كَانَ
برضا البيت النبوي وبتقرير مِنْ علي وفاطمة، ولكن حينما قامت
بوظيفتها فِي مواجهة القوم درأت ومنعت عَنْ تلبس وتزوير حقيقة
الحال عَلَى الأجيال، ولذا يثير اسم فاطمة عليها السلام وسيرتها إِلَى الآن مخاوف
حزب قريش.

فأدوار المعصومين عليهم السلام متكاملة؛ ولذا قَدْ نجد معصومين فِي
ظرف واحد يقومان بدورين مختلفين ولكن بهدف واحد ففي الحين
الذي كَانَ عَلَى أمير المؤمنين عليه السلام أَنْ يكف عَنْ المواجهة المسلحة، بَلْ أَنْ
يقوم بدور المعارضة والمواجهة السلمية الباردة، كَانَ على الزهراء عليها السلام
أَنْ تقوم بأكثر من المواجهة السلمية الباردة، كما يتبين مِنْ خطبتها فِي
المسجد أنها دعت الأنصار والمهاجرين إِلَى المواجهة العسكرية.

واستهزتهم للقتال ونادت بالنداء العسكري، وَهُمْ وَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا
ولكن حصلت عندهم شبه حالة استجابة وَذَلِكَ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ
وفي حضور أبي بكر وعمر حَتَّى خَشِيَ أَبُو بَكْرٍ - كَمَا يَنْقُلُ ابْنُ أَبِي
الحديد - قيام الأنصار فتدارك الأمر وصعد المنبر وشمتم علياً عليه السلام شتماً
قبيحاً - والعياذ بالله -.

حَتَّى أَنْ ابْنَ أَبِي الْحَدِيدِ سَأَلَ شَيْخَهُ عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ أَيْقَالَ ذَلِكَ
لِعَلِيِّ عليه السلام؟ فَأَجَابَهُ أَمَّا تَدْرِي أَنَّ الْأَنْصَارَ قَدْ هَتَفَتْ بِاسْمِ عَلِيٍّ وَخَشِيَ أَبُو
بَكْرٍ أَنْ يَقُومُوا ضَدَّهُ، وَفِي خُطْبَتِهَا وَضُوحٌ وَصِرَاحَةٌ فِي الدَّعْوَةِ لِلْقِيَامِ
بِالْمَسْلُوحِ وَإِعْلَانٌ لِلتَّعَبُّثِ عَسْكَرِيَّةٍ وَاسْتِنْهَاضٍ لِلْمُوَاجَهَةِ الْمَسْلُوحَةِ حَيْثُ
قَالَتْ بَعْدَ أَنْ رَمَتْ بَطْرَفَهَا نَحْوَ الْأَنْصَارِ:

«يا معشر النقيبة وأعضاء الملة وحضنة الإسلام ما هذه الغميمة
في حقي والسنة عن ظلامتي أما كان رسول الله ﷺ أبي يقول «المرء
يحفظ في ولده؟» سرعان ما أحدثتم وعجلان ذا إهالة، ولكم طاقة بما
أحاول وقوة على ما أطلب وأزاول [وَهُنَا صَرِيحَةٌ فِي الْاسْتِنْهَاضِ
العسكري] أتقولون مات مُحَمَّدٌ عليه السلام؟ فَخُطِبَ جَلِيلٌ اسْتَوْسَعَ وَهْنُهُ،
وَاسْتَنْهَرَ فَنْقَهُ وَانْفَتَقَ رَنْقَهُ، وَأَظْلَمَتِ الْأَرْضُ لَغَيْبَتِهِ، وَكَسَفَتِ الشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ وَانْتَشَرَتِ النُّجُومُ لِمَصِيبَتِهِ، وَأَكْدَتِ الْأَمَالَ وَخَشَعَتِ الْجِبَالَ
وَأَضْيَعَتِ الْحَرِيمَ وَأَزِيلَتِ الْحَرَمَةَ عِنْدَ مَمَاتِهِ...

إلى أن قالت عليه السلام: إِيهَا بَنِي قَيْلَةَ أَهْضَمَ تَرَاثَ أَبِي؟ وَأَنْتُمْ بَمَرَأَى

عتاب الزهراء عليها السلام لأmir المؤمنين عليه السلام..... ١٨٩
مني ومسمع ومنتدى ومجمع، تلبسكم الدعوة وتشملكم الخبرة، وأنتم
ذوو العدد والعدة، والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجنّة، توافيكم
الدعوة فلا تجيبون! وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون! أنتم موصوفون
بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت والخيرة
التي اختيرت لنا أهل البيت، قاتلتم العرب، وتحملتم الكد والتعب،
وناطحتم الأمم وكافحتم البهيم، لا نبرح أو تبرحون نأمركم فتأتمرون،
حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام ودرّ حلب الأيام وخضعت ثغرة
الشرك وسكنت فورة الإفك وخمدت نيران الكفر وهدأت دعوة المهرج
واستوسق نظام الدين، فأنى حزتم بعد البيان؟ وأسررتم بعد الإعلان؟
ونكصتم بعد الإقدام؟ وأشر كتم بعد الإيوان؟ بؤساً لقوم نكثوا أيانهم (١)
من بعد عهدهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم
فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين» (٢).

فقد حثت وحرّضت وأمرت بالقيام العسكري والمواجهة
المسلحة، ولكنهم تخاذلوا ولم ينصروها فتخلف المهاجرون والأنصار
عن أداء التكليف الشرعي بالمواجهة المسلحة.

أما أمير المؤمنين عليه السلام فلم يستنهضهم عسكرياً بشكل علني وإن
كانت له دعوة خفية للمواجهة ومع ذلك خذلوه ولم ينصروه، وطبعاً

(١) وفي البحار ح ٢٩ ص ٢٢٨ عن الاحتجاج (ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيانهم... الآية).

(٢) الاحتجاج: ج ١، ص ١٤٠.

فإنَّ لأَمرِ المؤمنِ ظروفَ مختلفةٍ ففي ظرفِ بدايةِ الانحرافِ لم يصعد وتيرةُ المواجهةِ بينما في ظرفِ خلافتهِ قام بقتالِ طرفٍ فيهم ممن تسمى بأَمرِ المؤمنينِ وبصحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ كما في الجملِ وفي النهروانِ قام بقتالِ أَهلِ دعوىِ التقدُّسِ والعبادةِ والزهدِ، وفي صَفينِ قاتلِ الطليقِ المدعيِ الشرعيِّ تمسَّكاً بدمِ عثمانِ، فأَمرِ المؤمنينِ عليه السلامُ لهُ أدوارٌ مختلفةٌ بلحاظِ أَزمانٍ وظروفٍ مختلفةٍ، وكذلك الأئمةُ المعصومون عليه السلامُ لهم أدوارٌ مختلفةٌ فللإمامِ الحسنِ عليه السلامُ مواجهةٌ عسكريَّةٌ في بدايةِ إمامتهِ، ثمَّ كانتِ الهدنةُ، أمَّا سيدُ الشهداءِ الحسينِ عليه السلامُ فكانتِ لهُ مواجهةٌ عسكريَّةٌ في آخرِ المطافِ، وإنَّ كانَ بدءُ المواجهةِ منهم وكيَّسَ مِنْهُ عليه السلامُ.

وكذلك باقي الأئمة تحتلف وتنوع مواجهم بين سلمية باردة وبين مواجهة خفية وبين مواجهة علنية، فالإمام الكاظم عليه السلامُ ربما كانت مقارعتة العسكرية أوضح إعلامياً وأكثر سخونة مما قام به الإمام الصادق عليه السلامُ.

وموارد الردِّ العلنيِّ مِنَ الإمامِ الكاظمِ عليه السلامُ عَلَى سلطانِ الجورِ آنذاك كانت عديدة منها ردُّه عَلَى هارونِ حينما جاء إلى مسجدِ النَّبِيِّ ﷺ فيما يشبه مجلسِ الحلفِ الدستوريِّ وسلم عَلَى رسولِ اللهِ ﷺ «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ الْعَمِّ» فردَّه الإمامُ موسى بن جعفرِ عليه السلامُ «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبْتَاهُ يَا رَسُولَ اللهِ» وهذا إعلانٌ بعدمِ شرعيةِ هارونِ.

ومنها: تقدمه عليه السلامُ عَلَى هارونِ فِي الطوافِ فَكَانَ يطوفُ أمامه وصلَّى قبله فِي مقامِ إبراهيمِ عليه السلامُ، فلما هدده هارونُ أَجابهُ عليه السلامُ بقوله

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ١٩١
تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعُرْكُفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يَرِدْ فِيهِ بِالْحُكْمِ
يُظَلَمِ نُذُوقُهُ مِن عَذَابِ أَلِيمٍ﴾.

فَهُنَاكَ عِدَّةٌ مَوَاضِعٍ نَرَى فِيهَا الْإِمَامَ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوَاجِهُ
السلطة الظالمة مواجهة علنية وهذه حالة متميزة في حياته عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أَمَّا الْإِمَامُ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَبَعْضُ مَوَاقِفِهِ بَارِدَةٌ إِعْلَانًا وَبَعْضُهَا
سَاخِنَةٌ، وَمِنْهَا مَا رُوِيَ مِنْ جَلْبِ السُّلْطَةِ الْأُمَوِيَّةِ لِلْإِمَامِينَ الْبَاقِرِ
وَالصَّادِقِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَإِنَّ سَبَبَ ذَلِكَ هُوَ خُطْبَةُ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي مَوْسَمِ الْحَجِّ بِأَمْرِ مِنَ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي بَيَانِ حَقِّ
أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَلَمْ يَسْتَطِعْ رِجَالُ بَنِي أُمِيَّةٍ أَنْ يَفْعَلُوا شَيْئًا فِي مَوْسَمِ
الْحَجِّ لِكثَافَةِ النَّاسِ وَثِقَلِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الْاجْتِمَاعِيِّ، فَانْتَظَرُوا حَتَّى
انْتَهَى مَوْسَمُ الْحَجِّ وَلَمَّا رَجَعَا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إِلَى الْمَدِينَةِ جَاءَتْهُمَا فِرْقَةٌ عَسْكَرِيَّةٌ
وَأَلْقَتِ الْقَبْضَ عَلَيْهِمَا وَجَلَبَتْهُمَا إِلَى الشَّامِ، وَمِنْهَا حِينَمَا أَجَابَ الْإِمَامُ
الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَنْصُورَ الدَّوَانِقِيَّ عَنِ سَبَبِ خَلْقِ الذُّبَابِ بِـ «لِيذِلَّ بِهِ
الْجَبَابِرَةَ»، وَكَذَلِكَ مَوْقِفُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْاِقْتِصَاصِ مِنْ رِئِيسِ شُرْطَةِ الْمَدِينَةِ
حِينَمَا قَتَلَ مَوْلَاهُ الْمَعْلَى بْنَ خُنَيْسٍ. فَلَمَّ تَكُنْ كُلُّ فِتْرَةٍ حَيَاةِ
الصَّادِقِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مُوَاجَهَةً بَارِدَةً تَحْتَ السُّتَارِ بَلْ كَانَ بَعْضُهَا مَعْلَنَةً.

فمواقف أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ متنوعة بحسب الظروف ولكنها متكاملة.

وَهُنَاكَ نَقْطَةُ مُشْتَرَكَةٍ فِي حَيَاةِ الْمُعْصومِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ حَالَاتِ التَّقِيَّةِ لَمْ يَتْرَامُوا فِي أَحْضَانِ السُّلْطَةِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ارْتِبَاطٌ عَضْوِيٌّ مَعَ الدَّوْلَةِ. فَهُمْ قَدْ يُوْعَزُونَ إِلَى نَجْمِ شِيْعَتِهِمْ بِالدَّخُولِ فِي السُّلْطَةِ وَتَسْمٍ بَعْضِ الْمَنَاصِبِ كَسَلْمَانَ الْفَارْسِيِّ وَعِمَارَ بْنَ يَاسِرٍ وَعَلِيَّ بْنَ يَقْطِينٍ وَغَيْرِهِمْ، أَمَّا نَفْسُ الْمُعْصومِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَيُّ ارْتِبَاطٍ عَضْوِيٍّ أَوْ رَسْمِيِّ مَعَ السُّلْطَةِ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى آخِرِ الْأَئِمَّةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَلْ كَانُوا دَائِمًا قُطْبَ الْمَعَارِضَةِ وَمُحَوْرَهَا وَمَرْكَزَهَا.

والحاصل: إنَّ أطوارَ مُوَاجَهَةِ الْأَئِمَّةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَرَجَةَ سَخُونَتِهَا مَعَ الطَّرْفِ الْآخَرِ اخْتَلَفَتْ وَتَنَوَّعَتْ بِحَسَبِ الْأَدْوَارِ وَالظُّرُوفِ وَلَكِنِهَا أَدْوَارٌ مُتَكَامِلَةٌ.

أهمية خطاب الزهراء عليها السلام لأمر المؤمنين عليهم السلام:

وموقف الزهراء عليها السلام مكمل لموقف أمير المؤمنين عليه السلام لأنها هي التي أزاحت اللبس والوهم عن موقفه عليه السلام. ولو لم تقل ما قالت ولم تقم بما قامت به لقليل في موقف أمير المؤمنين عليه السلام والزهراء، مثل ما قيل في موقف الإمام الحسن عليه السلام كما يحلو للكثير من الأعلام الأموية أن تصور أن في موقف الإمام الحسن عليه السلام تحطئة لموقف أمير المؤمنين وتصحيحاً للنهج الأموي.

وما نريد قوله: أنَّ موقفَ الزهراء مَعَ إِحْجَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام

عتاب الزهراء عليها السلام لأmir المؤمنين عليه السلام..... ١٩٣
نسبياً وَكَيْسَ كَلياً، رفع توهم موافقة أمير المؤمنين لما صنعوه أو توهم
تخطئة أمير المؤمنين لموقف الزهراء عليهن السلام.

فَلأَبْدُ مِنْ لفت الأنظار إلى أَنَّ موقف أمير المؤمنين وسيدة النساء
موقف واحد وإن اختلفت صورته، وإنَّ ما كَانَ مِنْ علي عليه السلام إِنَّمَا هُوَ
بسبب الظرف الاستثنائي وَلَمْ يَكُن تخطئةً للزهراء عليهن السلام أو تصحيحاً
لأهل السقيفة؛ ولذا ينقل الفريق الآخر كَمَا فِي صحيح البخاري أَنَّ
أمير المؤمنين كَانَ مُعَارِضاً ما دامت الزهراء حيّة، فلما توفيت عليهن السلام تغيّر
موقفه^(١)، فالموقف واحد منهما ولا توجد مغايرة بَلْ هُنَاكَ كمال
الانسجام فِي الموقف، ولا يمكن حيثئذٍ التزييف بالقول بمغايرة موقف
الإمام لموقف الزهراء عليهن السلام، فلا تغاير وَإِنَّمَا هُنَاكَ تعدد للأدوار مَعَ كمال
الانسجام.

وَهُنَا نعرف سرّ عتاب الزهراء عليهن السلام فَهِيَ أَرَادت أَنْ تكشف
بلسان العتاب، أَنَّ موقف أمير المؤمنين عليه السلام مِنْ الإحجام فِي نفسه

(١) أورد البخاري (٤/١٥٤٩/٣٩٣٨) ومسلم (٣/١٣٨٠/٥٢) عن عائشة: ان
فاطمة عليها السلام بنت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما آفأ
الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر... فأبى أبو بكر ان يدفع إلى فاطمة منها
شيئاً، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت، وعاشت
بعد النبي صلى الله عليه وسلم ستة أشهر.

فما توفيت دفنها زوجها على ليلا ولم يؤذن بها أبا بكر وصلى عليها وكان لعلي من الناس
وجه حياة فاطمة فلما توفيت استنكر على وجوه الناس فالتمس مصالحة أبي بكر
ومبايعته ولم يكن يبايع تلك الأشهر.

وبالعنوان الأولي ولولا طروء الظرف الاستثنائي لَيْسَ مَحَلًّا وَكَيْسَ صحيحاً ولا مرغوب فيه شرعاً ولا مرضياً لأمر المؤمنين عليه السلام نفسه، وَإِنَّمَا جَاءَ بِهِ مِنْ بَابِ الاضطرار والتقية، فالإحجام عَنْ نصره الزهراء عليها السلام وَعَنْ مقام بيت النبوة محرمٌ فِي نفسه، وَأَمَّا عَلِيٌّ عليه السلام فَلَهُ وضعه الخاص ولا يستطيع أن يقدم بوحده وبمفرده، ولا يحق للآخرين أن يتخاذلوا ويتقاسعوا تدرعاً بموقف أمير المؤمنين ويقولوا: ما دام علياً عليه السلام قد أحجم فنحن نحجم وما دام أمسك فنحن نمسك، هذا لَيْسَ مبرراً لِأَنَّ عَلِيًّا فعل ما فعل لا مِنْ بَابِ حلية الإحجام والإمساك بَلْ اضطراراً إِلَيْهِ مِنْ بَابِ حفظ الدين والنبوة.

وَعَلَيْهِ فِي الحين الذي يجب عَلَى أمير المؤمنين عليه السلام أَنْ يحفظ الواجب الأهم يجب أَنْ يبيّن أَنَّ هذا الفعل فِي نفسه محرم، وهذه هِيَ حالة مِنْ تشابك الأوراق والذي يحلّ هذا الاشتباك هُوَ تكامل مواقف المعصومين عليهم السلام، وتبين وتفسير بعضهم لمواقف البعض الآخر.

فالفعل الذي يُتَقَى بِهِ منكر فِي نفسه، وَهُنَا يجب أَنْ يُنكَر المنكر ولو قلباً، فالإحجام عَنْ نصره الزهراء عليها السلام يجب أَنْ يتبرم مِنْهُ وحفظ الدين وَإِنْ كَانَ واجباً وأمر مرغوب فيه ومقدماً، ولكن مَعَ تقديمه يجب أَنْ يتبرم مِنْ حالة الإحجام عَنْ نصره الزهراء وَإِنْ ارتكب مِنْ أَجْلِ واجب أهم.

وهذه نكتة مُهمّة فِي باب التزاحم وَهِيَ أَنْ بَعْضَ الأفعال تَقَدَّمَ

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ١٩٥
 عَلَى بَعْضِ الْأَفْعَالِ، وَلَكِنْ هَذَا لَا يَرْفَعُ الْقَبْحَ عَنِ الْفِعْلِ الْآخِرِ؛ وَلِذَا
 لَا يَجُوزُ أَنْ يَشْرَحَ الصِّدْرَ وَيَتَلَذَّذَ بِتَرْكِ الْوَاجِبِ الْآخِرِ؛ كَمَا يَعْبُرُ الْقُرْآنُ
 فِي قِصَّةِ عِمَارٍ: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ
 شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.
 فَعِمَارٌ تَلَفَّظَ بِالْفَاظِ الْكُفْرِ وَلَكِنْ قَلْبُهُ غَيْرُ رَاضٍ عَنِ هَذِهِ الْأَفْظَاظِ فَالآيَةُ
 تَقُولُ: ارْتَكَبَ وَلَكِنْ لَا تَشْرَحُ صَدْرَكَ وَلَا تَتَلَذَّذُ وَلَا تَرْتَحُ نَفْسِيًّا بِهَذَا
 الْفِعْلِ، وَإِنْ كَانَ جَائِزًا بِالْعِنْوَانِ الثَّانَوِيِّ.

فعلي عليه السلام مضطري في ارتكاب الإحجام عن نصرته الزهراء، ولكن
 يجب أن يلتفت المسلمون والمؤمنون والجميع أن هذا الفعل في نفسه
 وبعنوانه الأولي منكر ومتبرأ منه، فعلي عليه السلام مضطر من جهة ومن جهة
 أخرى لأبداً من التبرأ من الإحجام عن نصرته الزهراء عليهن السلام ولأبداً من
 الاعتذار للزهراء، فالفعل المنكر طامة كبرى في نفسه وإذا ارتكب
 لأجل واجب أهم لأبداً أن يتبرأ منه ولو قلباً على أقل تقدير.

وهناك مشاهد ثلاث أو أكثر يستعرضها القرآن الكريم فيها
 عتاب من الله للمعصوم أو من معصوم لمعصوم آخر في حالة مشابهة
 لما جرى بين سيد الأوصياء وسيدة النساء عليها السلام.

المشهد الأول: محاسبة الله تعالى لعيسى بن مريم عليه السلام :

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ
 اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا

لَيْسَ لِي بِحَقِّي إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُهُ، تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْتَ الْغُيُوبَ مَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١﴾.

ما هي فلسفة هذا السؤال وهذا الإحراج من الله تعالى لعيسى بن مريم مع أنه يعلم أن عيسى ليس هو الذي أمر بهذه العقيدة المنحرفة.

ولو لاحظنا الجواب نجد أن عيسى في كمال وغاية الأدب مع الله فهو أجاب لا بصيغة تنزيه نفسه بل بصيغة تنزيه الله، فقال «سبحانك» أي يا رب أنت منزّه أن ترسل نبياً يكذب عليك، ولم يقل أنا نبي منزّه من الكذب فنسب التنزيه إلى الله أولاً وبالذات وإلى نفسه ثانياً وبالعرض، وهذا من كمال الأدب مع الله تعالى.

ثم قال: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّي﴾. ولم يقل «ما كنت لأفعل» فهو في مقام التواضع بين يدي عظمة الله ويحيب بأنه ليس من حقه أن يدعي ما نسبته إليه النصراري ولا يحيب أنا لم أقل ما قالته النصراري وفي هذا أيضاً كمال الأدب مع الله تعالى.

فما هو السرّ في ذلك السؤال وما هو السرّ في هذا الجواب؟

والجواب: ما ورد في الصحيح إلى مصادف، قال: (لما أتى القوم

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ١٩٧
الذين أتوا بالكوفة: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فأخبرته بذلك، فخر
ساجدا وألّزق جؤجؤه بالأرض وبكى، وأقبل يلوذ بأصبعه ويقول:
بل عبد الله قن داخر مرارا كثيرة، ثم رفع رأسه ودموعه تسيل على
لحيته، فندمت على أخباري إياه.

فقلت: جعلت فداك وما عليك أنت من ذا؟

فقال: «يا مصادف ان عيسى لو سكت عما قالت النصارى فيه
لكان حقا على الله أن يصم سمعه ويعمي بصره، ولو سكت عما قال في
أبو الخطاب لكان حقا على الله أن يصم سمعي ويعمي بصري^(١)».

وفي خبر آخر عنه عليه السلام: «لا والله لا يأويني وإياه سقف بيت أبدا،
هم شر من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا، والله ما صغر
عظمة الله تصغيرهم شيء قط، ان عزيزا جال في صدره ما قالت فيه
اليهود فمحي الله اسمه من النبوة».

والله لو أن عيسى أقربا قالت النصارى لا ورثه الله صمما إلى يوم
القيامة، والله لو أقررت بما يقول في أهل الكوفة لأخذتني الأرض، وما
أنا الا عبد مملوك لا أقدر على شيء ضر ولا نفع^(٢).

فالمنكر لأبَدٍ مِنْ إنكاره ولو قلباً، وإنَّ ما جرى مِنْ سؤال ومحاسبة

(١) رجال الكشي: ج ٢ ص ٥٨٨ ح ٥٣١.

(٢) رجال الكشي: ج ٢ ص ٥٩٠ ح ٥٣٨.

لعيسى عليه السلام كله لكي يتبرأ عيسى من قول النصارى ويمتحن عيسى في ذلك. فكذاك ما جرى بين علي وفاطمة عليهما السلام من عتاب لكي يتبرأ ويتبرم علي عليه السلام من عدم نصرته الزهراء عليها السلام والإحجام عن نصرتها ولو جاء به تقية ومن أجل الحفاظ على واجب أهم، فالمنكر لا بد أن يتبرأ منه وينكر ولو بالقلب.

المشهد الثاني: بين موسى وهارون عليهما السلام:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَقَوْمٍ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِذُنُوبِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (٢).

وهذا مشهد آخر من العتاب بين نبين معصومين فما هو السر؟

(١) الأعراف: الآية ١٥٠.

(٢) طه: الآية ٩٠ - ٩٤.

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام ١٩٩
وَهُنَا هَارُونَ أَكْبَرُ سِنًا مِنْ مُوسَى وَمَعَ ذَلِكَ نَرَى أَنَّ مُوسَى يَأْخُذُ
بِلِحِيتهِ وَبِرَأْسِهِ يَجْرَهُ إِلَيْهِ وَيَعَاتِبُهُ عَلَى عَدَمِ اللِّحَوقِ بِهِ.

ولكن هذه صورة عتاب وواقعاً لَيْسَ عتاباً بَلْ فِيهِ مَغْزَى آخِرٌ
وَهَدَفٌ آخِرٌ وَحَقِيقَةٌ أُخْرَى.

المشهد الثالث: بين موسى والخضر عليهما السلام:

حَيْثُ عَاتَبَ مُوسَى عليه السلام الخضرَ فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ فِي خَرَقِ السَّفِينَةِ
قَالَ لَهُ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ وَفِي قَتْلِ الْغُلَامِ قَالَ لَهُ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا
نُكْرًا﴾، وَفِي بِنَاءِ الْجِدَارِ: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

وَهَذِهِ الشَّوَاهِدُ الثَّلَاثُ أَوْ أَكْثَرُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا
النَّمَطَ مِنَ الْحَوَارِ أَوْ مِنَ الْبَيَانِ مَوْجُودٌ بَيْنَ الْمُعْصُومِينَ، أَوْ بَيْنَ اللَّهِ
وَالْمُعْصُومِينَ وَكَيْسَ مَعْنَاهُ تَخَطُّةُ الْمُعْصُومِ لِلْمُعْصُومِ، وَهَذَا الْجَوَابُ
نَقْضِي إِجْمَالِي.

وَهُنَا يَثَارُ هَذَا التَّسَاؤُلُ: كَيْفَ يَنْسَجِمُ سُؤَالُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ عَيْسَى
﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ مَعَ عَدْلِ اللَّهِ
تَعَالَى أَمْ هَذَا مِنْ إِحْسَانِ اللَّهِ وَمَا هُوَ فَوْقَ عَدْلِ اللَّهِ؟.

وَمَجْرَدُ إِطَالِ حِجَّةِ النَّصَارَى لَا تَبْرُرُ الْمَسْ بَكْرَامَةَ بَرِيءٍ، وَهَبْ أَنَّ
الْمَشْهَدَ صُورِي وَمِنْ أَجْلِ إِطَالِ حِجَّةِ النَّصَارَى وَلَكِنْ هَذَا هَلْ يَبْرُرُ
إِتْهَامَ نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ أَوْلِي الْعِزْمِ، فَإِنَّ كُلَّ شَخْصٍ لَهُ اعْتِبَارُهُ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ

يمس هذا الاعتبار بسهولة؛ ولذا نجد في المحاكم والقوانين الوضعية أن المتهم له حق رد الاعتبار إذا تبين أنه بريء.

ولذا لو شاهدنا أحد الرعية يسأل النبي ﷺ أو الإمام بهذه الصيغة فإن فيها من التجاسر ما لا يخفى، ومن يستطيع أن يخاطب المعصومين بهذه الصيغة؟ ولذا نجد أن الأئمة في مقام رد المتجاسرين كانوا يستخدمون خطاباً دامغاً لعدم مراعاتهم الأدب مع المعصوم.

فالأدب مع المعصوم يخضع لقواعد دقيقة لا تسمح بأي تجاسر معه ﷺ كما في سورة الحجرات: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، وفي قصة الإفك ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾، فإن تأتي بكلمة غير لائقة بلسانك أمام النبي أو المعصوم فهذا عظيم لأن المقام مقدس والمخاطب مقدس.

ولذا من يجراً أن يخاطب علياً ﷺ باللسان الذي خاطبته به الزهراء ﷺ فلم يكن لأي أحد أن يستخدم هذا اللون من الخطاب مع أمير المؤمنين إلا الزهراء ﷺ، وكان جواب علي ﷺ جواب التهذئة والتوقير والاحترام لها ﷺ، «نهني عن وجدك يا ابنة الصفة وبقية النبوة».

فهنالك أسرار في هذه المشاهد ولا يصح أن نقرأها بصورة سطحية

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ٢٠١

وفي مشهد سؤال الله تعالى لعيسى بن مريم عليها السلام أسرار وقواعد ومعاني بيئتها روايات أهل البيت عليهم السلام، فوجد عيسى في مقام الجواب لا يبدأ بتبرئة نفسه بل ينزه الله ويبتدأ بإصغار وإذلال مكانته أمام الله تعالى، فالمغزى من هذا الحساب والسؤال والجواب هو أن يقوم عيسى عليه السلام بواجبه وأداء حقه أمام الله تعالى وفي مقام عبوديته والاستقامة عليه.

فليست المسألة مسألة اتهام بريء ولا محاجة النصارى، بل من لطف الله تعالى وعظيم منته أن يتكلم مع عيسى بهذه الصيغة حتى يبدي عيسى عبوديته وتواضعه وفقره واستكانته في المحضر الربوبي، وهذا كمال عظيم للمخلوقات.

فالباري له حق عظيم وليس للمخلوق أن ينادد الله تعالى، ويحييه عن تساؤله كند لند تكبراً وتجبراً، فالأدب أمام الله تعالى هو أدب التذلل والتخضع والتمسكن وليست الآداب صرف مجاملات وإنما هي سلوكيات تبين الحقائق التكوينية.

حقيقة الآداب:

فالآداب ليست مجرد مجاملات وسلوكيات لا تعكس عن شيء خلفها، وإنما هي سلوكيات تحكي عن خلفيات وعن أمور واقعية، ومن باب المثال روى الصدوق في الأمالي بسند صحيح عن أبي

عبدالله ﷺ قَالَ: «إِنَّ دَاوُدَ ﷺ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ يَقْرَأُ الزَّبُورَ وَكَانَ إِذَا قَرَأَ الزَّبُورَ لَا يَبْقَى جَبَلٌ وَلَا حَجْرٌ وَلَا طَائِرٌ وَلَا سَبْعٌ إِلَّا جَاوَبَهُ، فَمَا زَالَ يَمْرُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى جَبَلٍ، فَإِذَا عَلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ نَبِيٌّ عَابِدٌ، يُقَالُ لَهُ: حَزْقِيلُ: فَلَمَّا سَمِعَ دَوِيَّ الْجِبَالِ وَأَصْوَاتَ السَّبَاعِ وَالطَّيْرِ عِلِمَ أَنَّهُ دَاوُدَ ﷺ فَقَالَ دَاوُدُ: يَا حَزْقِيلُ، أَتَأْذِنُ لِي فَأَصْعَدُ إِلَيْكَ، قَالَ: لَا فَبَكَى دَاوُدَ ﷺ، فَأَوْحَى اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ إِلَيْهِ: يَا حَزْقِيلُ لَا تَعَيِّرْ دَاوُدَ وَسَلْنِي الْعَافِيَةَ، فَقَامَ حَزْقِيلُ فَأَخَذَ بِيَدِ دَاوُدَ فَرَفَعَهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ دَاوُدُ يَا حَزْقِيلُ، هَلْ هَمَمْتَ بِخَطِيئَةٍ قَطُّ؟ قَالَ: لَا، قَالَ فَهَلْ دَخَلَكَ الْعُجْبُ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ، لَا،... الحديث»^(١). فهذا الفعل مِنْ حَزْقِيلٍ وَجَوَابِهِ بـ (لَا) لِدَاوُدَ يَنْطَوِي عَلَى مَعَانٍ وَدَوَاعٍ فِي نَفْسِهِ وَإِنْ لَمْ يَتَلَفَّظْ بِهَا حَزْقِيلُ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَبْدَاهَا، فَكَأَنَّمَا تَنَزَّهُ حَزْقِيلُ عَنِ دَاوُدَ وَرَغِبَ عَنِ الْاجْتِمَاعِ مَعَهُ لَمَّا حَدَثَ لِدَاوُدَ فِي قَضِيَّةِ ﴿إِذْ سَوَّرُوا الْأَمْحَرَابَ﴾ فَعَاتَبَ اللَّهُ تَعَالَى حَزْقِيلَ وَنَهَاهُ عَنِ عِتَابِ دَاوُدَ.

فالأدب والسلوكيات نطق وكلام عَنْ خَلْفِيَّاتٍ وَدَوَاعِي نَفْسِيَّةٍ وَنَحْوَهَا.

وَفِي أَدَبٍ آخَرَ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ نَجَدَ قَوْلَ مُوسَى لِلْخَضِرِ ﷺ: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾^(٢) فهذا أدب مِنْ

(١) أمالي الصدوق: ص ١٥٩، المجلس ٢١ ح ٨.

(٢) الكهف: ٦٦.

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ٢٠٣

النَّبِيِّ موسى للخضر وَكَيْسَ مجرّد مجاملة، إذ ينطوي هذا الأدب عَلَى مقام الحجية للخضر وَأَنَّ الخضر مِنْ بَعْض الجهات والحشيات لا كلها يفضل على موسى، وَإِلَّا لما صحّت تبعية موسى لَهُ، فالصورة فِي هذا التصرّف آداب ولكن الواقع يحكي عَنْ معانٍ وحقائق واقعية، ومقامات اصطفاية.

وفي رواية أُخرى عَنْ الإمام الصادق عليه السلام فِي قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا نَطَعَكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾^(١) «والله ما قالوا هذا لهم وَلَكِنَّهُمْ أَضْمَرُوهُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَأَخْبَرَ اللَّهُ بِأَضْمَارِهِمْ يَقُولُونَ: لا نريد منكم جزاءً تكافئوننا به ولا شكوراً تثنون علينا به، ولكن إنما أطمعناكم لوجه الله وطلب ثوابه»^(٢). فصفت الإنسان فِيها نطق، وعمل الإنسان يتكلّم وينطق وإن لم يجرّك شفّيته ولسانه.

ففاعل الإنسان وكذا سائر المخلوقات ينطوي عَلَى معانٍ يعلمها الباري أو يعلمها من يعلمه الباري تَعَالَى.

فالتكلم كَيْسَ صرف الأصوات والألفاظ بلّ يمكن أن يحصل الكلام بلا صوت ولا تلفظ بلّ مِنْ خلال ما يعكسه الفعل مِنْ المعاني. وَمِنْ هُنَا كَانَ خلق الله تَعَالَى للشيء كلاماً لله، فإذا شاهد الأنبياء والأوصياء ظاهرة كونية معيّنة يتلقون بها رسالة مِنْ الله ويقرأون كلام

(١) سورة الإنسان: الآية ٩.

(٢) الأمل للشيخ الصدوق، المجلس ٤٤ ح ١٣ ص ٣٣٣.

الله تَعَالَى مِنْ خِلالِ تِلْكَ الظَّاهِرَةِ الكَوْنِيَّةِ لِأَنَّ نَفْسَ هَذَا الخَلْقِ مِنْ اللهُ لَهُ مَعْنَى أْبْدَاهُ اللهُ فَتَكَلَّمَ بِهِ.

فالأفعال كلام ونطق، وَعِنْدَمَا يُوَاخِذُ اللهُ تَعَالَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الكِيفِيَّةِ فَالْقَضِيَّةُ لَيْسَتْ صَرَفَ آدَابٍ وَإِنَّمَا هِيَ إِيْصَالٌ وَإِبْدَاءٌ لِلْمَعَانِي، وَهَذِهِ المَشَاهِدُ الَّتِي مَرَّتْ بَيْنَ الأنْبِيَاءِ وَالْمَعْصُومِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كُلِّهَا مَمْلُوءَةٌ بِالْمَعَانِي وَبِالحَقَائِقِ وَالوَأَقْعِيَّاتِ الَّتِي تُشكِّلُ خَلْفِيَّةَ لِتِلْكَ المَشَاهِدِ.

القاعدة التاسعة:

محاسبة المعصوم بذنب الأمة غير مخل بالعصمة:

أَمَّا الجَوَابُ الحَلِّيُّ عَنُ وَاقْعَةِ عِتَابِ الزَّهْرَاءِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسَائِرِ الشُّوَاهِدِ القُرْآنِيَّةِ المُتَقَدِّمَةِ:

فَإِنَّ لِلْمَشَاهِدِ الَّتِي تُقَدِّمَتْ وَكَانَتْ تُحْكِي حَالَةَ العِتَابِ بَيْنَ اللهُ وَأَحَدِ المَعْصُومِينَ أَوْ بَيْنَ المَعْصُومِينَ أَنْفُسَهُمْ مَغَازٍ وَغَايَاتٍ.

وَمِنْ أَمِّهِمُ تِلْكَ المَغَازِي وَالغَايَاتِ الَّتِي تُشكِّلُ خَلْفِيَّةَ تِلْكَ المَشَاهِدِ هُوَ بَيَانُ عِظَمَةِ الفِعْلِ المُنْكَرِ فِي نَفْسِهِ. لِأَنَّ الفِعْلَ إِذَا كَانَ مُنْكَرًا، أَوْ وَقَعَ فِي المَجْتَمَعِ فَإِنَّ المَسْئُولِيَّةَ ابْتِدَاءً تُوجِّهُ لِرَئِيسِ وَقَائِدِ المَجْتَمَعِ؛ وَلِذَا إِذَا وَقَعَ خَطَأً مَا فِي مَدْرَسَةٍ أَوْ مَوْسَسَةٍ أَوْ وَزَارَةِ أَوْ دَوْلَةٍ فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ يَتَحَمَّلُ المَسْئُولِيَّةَ هُوَ الرَئِيسُ وَالقَائِدُ كَمُدِيرِ المَدْرَسَةِ أَوْ المَوْسَسَةِ أَوْ الوَازِرِ أَوْ الرَئِيسِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَيُّ ذَنْبٍ أَوْ تَقْصِيرٍ وَكَانَ

عتاب الزهراء عليها السلام لأmir المؤمنين عليه السلام..... ٢٠٥
الخطأ هُوَ نتيجة الجهاز ونتيجة للعمل المجموعي للمؤسسة وَكَانَ
بالتحليل يرجع إلى غير الرئيس، فالمسئولية البدوية والرئيسية للمجموعة
وللمنظومة تقع على رأس ومدير تلك المجموعة والمنظومة.

وَمِنْ المقاطع التاريخية التي تحكي هذه المسئولية ما وَرَدَ عَنُ
الفريقين مِنْ واقعة تبري النَّبِيِّ ﷺ مِنْ فعل خالد بن الوليد حينما قتل
جماعة بغير حق حينما كَانَ عَلَى رأس سرية بعثها رسول الله ﷺ فلما
وصل الخبر إليه ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا فَعَلَ خَالِدٌ»^(١) وأرسل
رسول الله ﷺ علياً ليدي القتلى، فهناك الذي ارتكب الخطأ ليس هو
النبي ﷺ وحاشاه، وإنما الجهاز والمنظومة التي كان رسول الله ﷺ على
رأسها فتراها من عمل خالد.

وفي حديث لأmir المؤمنين عليه السلام: «فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة
ولا تظنوا بي استتقالاتي في حق قيل لي ولا التماس إعظام نفسي، فإن من
استقل الحق أن يُقال له أو العدل أن يعرض عليه، كَانَ العمل بهما أثقل
عليه فلا تكفوا عَنُ مقالة بحق أو مشورة بعدل، فَإِنِّي لست في نفسي
بفوق أن أخطئ ولا آمن ذَلِكَ مِنْ فعلي إلا أن يكفي الله مِنْ نفسي ما هُوَ
أملك به مني» الحديث^(٢)، وَقَدْ حاول البعض أن يستشهد بهذا
الحديث للاستدلال على أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن يرى لنفسه

(١) الطبقات لابن سعد: ج ٢، ص ١١١.

(٢) الكافي: ج ٨ ص ٣٥٥ ح ٥٥٠، نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦.

العصمة، ولكن هذا البعض لم يفهم ما أراده علي عليه السلام من الخطأ، لأنه عليه السلام لم يكن يتحدث عن خطأ نفسه وإنما عن خطأ الجهاز الحكومي الذي يدير من خلاله الأمور، فقد قالها علي عليه السلام وهو ماسك بمقاليد الأمور وتحدث عن جهازه الحكومي لأن جهازه بشري وليس جهازاً ملائكياً ومسئولية هذا الجهاز تقع على الرئيس أو المدير.

ونظير ذلك ما بينه أهل البيت عليهم السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بأن المراد من الذنب هو ذنب الأمة لا ذنب الرسول صلى الله عليه وآله وحاشا له من أن يذنب، ونسبة الذنب إليه باعتباره راعياً للأمة ومسئولاً عنها.

المسئولية المشتركة بين الراعي والرعية:

فَهُنَاكَ مسئولية مشتركة بين الراعي والرعية والمسئول والمسئول عنه، وَمِنْ الشواهد عَنْ ذَلِكَ ما يدعو به زين العابدين عليه السلام في دعائه في السحر: «إلهي إن أدخلتني النار ففي ذلك سرور عدوك وإن أدخلتني الجنة ففي ذلك سرور نبيك وأنا والله أعلم أن سرور نبيك أحب إليك مِنْ سرور عدوك» فنجاة المسلم تعد من عوامل السرور للنبي صلى الله عليه وآله.

ولو لاحظنا العلاقة بين الوالد والولد نجد أن الوالد هو المسئول عن تصرفات ابنه، سواء كان الوالد مقصراً أو لم يكن مقصراً، تهاون أم لم يتهاون، فهو وإن أدى مسئوليته وواجباته بالشكل الصحيح ولكن

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ٢٠٧
بالتالي هناك مسئولية تقع على عاتقه، مسئولية مشتركة على الجميع وإن
كَانَ التقصير منهم لا مِنْ الرئيس.

أَمَّا كيف يفسر هذا المصير المشترك بين الراعي والرعية قانونياً،
وفي ظل بحث «لا جبر ولا تفويض» و«ولا تزرر وازرة وزر أخرى»
فإنَّ بحث ذلك إلى محل آخر ويحتاج إلى تعميق في البحث.

وَمِنْ الشواهد عَلَى هذا المصير المشترك والعلاقة والرابطة هُوَ ما
ذكره بعض أهل المعنى أَنَّك تلاحظ أَنَّ هُنَاكَ إنساناً لا تربطك به صلة
وَأَيَّ ارتباط، قَدْ يصاب بحادث معين فتصيبك جراء ذلك وعكة
صحية بَلْ قَدْ تقع هذه العلاقة مَعَ حيوان ما، مما يدل على وجود رابطة
روحية بين الطرفين.

وَمِنْ الشواهد عَلَى هذا المصير المشترك قوله تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي
قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾^(١)، فالجاعل للرفقة والرحمة هُوَ الله
تَعَالَى جعلها في إتباع عيسى بن مريم، وهذا ناشئ مِنْ رابطة وعلاقة بين
عيسى وأتباعه بسببها أفاض الله تَعَالَى تلك الكمالات عليهم، وهذه
علاقة بين الراعي والرعية عَلَى صعيد التكوين، غَيْرَ العلاقة عَلَى صعيد
الجزاء والمسئولية.

وفي الروايات أَنَّ من وَالىَ علياً فَلَهُ في البرزخ كذا وفي المحشر كذا

وفي الصراط كذا وفي الدُّنيا كذا، فلمتابعة علي عليه السلام هذه الخواص.

والمقصود أنَّ بين الرئيس والمرئوسين وفي هذا الجهاز مصير مشترك، أو تداعي تكويني أو آثار مشتركة في المسائلة والحساب، وَمَنْ هُنَا نستطيع أن نفسر العتاب الذي يوجهه القرآن لرسول الله صلى الله عليه وآله فَإِنَّهُ لَيْسَ عتاباً بلحاظ فعله، بَلْ هُوَ بلحاظ فعل الأُمَّة.

وَذَلِكَ لأنه هُوَ راعي الأُمَّة نظير الوزير الذي يقع خلل في وزارته فَهُوَ وإن لم يقصر ولكنه هو المخاطب الأوَّل بالمسئولية.

ولعل مِنْ الأُمور البديعة في شخصية سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله هُوَ حرصه عَلَى أمته وإن مِنْ أولى مسؤولياته وأهم أموره هِيَ نجاة وهداية أمته؛ ولذا كَانَ هَمَّ رسول الله صلى الله عليه وآله فِي يَوْمِ القيامة ما يظهر فِي قوله «أمتي أمتي».

فالجهة المَهِّمة فِي شخصية رسول الله صلى الله عليه وآله هُوَ كونه راعياً وهادياً ونبياً للأُمَّة، فرسول الله صلى الله عليه وآله حينما يجازى ويثاب ويحاسب فِي الدرجة الأولى لا يكون ذَلِكَ بلحاظ أفعاله الشخصية بَلْ بلحاظ أفعاله بما هُوَ رئيس وهادٍ ونبى وراعٍ، وَمَنْ ثُمَّ لا معنى لان نقول أن هناك أُمور اعتيادية فِي حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، لِأَنَّ كَلَّ أفعاله الاعتيادية إنما تصبُّ فِي هداية الآخرين.

فكم لهذا النَّبِيِّ من شخصية عظيمة كانت أولى اهتماماته وأكثر

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ٢٠٩
مواقعه حساسية وَالَّتِي تعبر عَنْ أَكْمَلِ كِمالاته هِيَ هداية الآخرين؛
ولذا تقع أول موارد المسائلة والمحاسبة فَإِنَّ أَوَّلَ الْأُمُورِ الَّتِي يسأل
عنها هي اكمل الأمور وأهمها.

ولذا لا نحمل التعابير الَّتِي تعاتب النَّبِيُّ ﷺ فِي القرآن عَلَى المجاز
لأنَّ المسائلة والمحاسبة فِي تلك الموارد لَيْسَ لفعله الشخصي حَتَّى تنافي
عصمته وَإِنَّمَا بلحاظ فعل أُمته، وبما هُوَ راعٍ ومَسْئُولٌ عَنْ أُمته، وَهَذَا
معنى القاعدة التاسعة، فالقاعدة التاسعة هِيَ أَنَّ فعل المعصوم عَلَى
نمطين فعل للمعصوم بما يرتبط به وفعل للمعصوم بما يرتبط برعيته
وَأَنَّ المحاسبة عَلَى النمط الثَّانِي مِنَ الْفِعْلِ لَيْسَ دَخِيلًا فِي عصمته؛ لِأَنَّ
العتاب بالتحليل لا يرجع إِلَى تقصير بدر منه وَإِنَّمَا للتقصير فِي رعيته.

وَمِنَ التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ الْبَدِيعِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيِّ إِلَّا إِذْ أَنْتَمْتُمْ أَقْوَامٌ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١).

وقوله تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٢).

فَأَمْنِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ هِيَ هداية الأُمَّة وَلَيْسَ المراد مِنَ الْآيَةِ الْأَمْنِيَةِ
الَّتِي فِي صدره، بَلْ هداية أُمته بما لها مِنْ تقررٍ فِي الخارج والذِي يعبرُ
عَنْ مصير مشترك بين فعله وفعل أُمته، وَإِذَا كَانَ فِي هَذَا المصير

(١) الحج: ٥٢.

(٢) القصص: ٥٦.

المشترك مداينة فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يخاطب بها لا مِنْ جهة فعله وَإِنَّمَا مِنْ بَاب أَنَّهُ طرف فِي هذه العلقه المشتركة.

ومن ثمَّ ورد في النصوص وصية بعدم أذية النَّبِيِّ ﷺ بالمعاصي، وأذية النَّبِيِّ ﷺ بالمعاصي هي للصلة التي لرسول الله ﷺ بأتمته، فكلما شاهد الحسنات فِي أمته فرح بها وإذا رأى السيئات اغتم، نظير رب الأسرة الذي إذا رأى تفوقاً فِي الأولاد ازداد بهجة وسروراً، وإذا رأى انتكاسة فيهم اغتم وحزن.

ولذا ولهذا المصير والمسئولية المشتركة فإنَّ أَوَّل مَنْ يحاسب وَيُسَاءَل مِنْ أهل الإنجيل هُوَ الراعي عليهم وَهُوَ المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام. مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَقْصُر فِي أداء مسئوليته وَمَعَ ذَلِكَ عَلَيْهِ أَنْ يقوم بواجب ردِّ هذه الحقوق وأداءها أمام الله تَعَالَى ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾.

وَالنَّبِيُّ موسى عليه السلام حينما يرجع ويرى الانحراف فِي قومه فإنَّ أَوَّل مَنْ يساءل هُوَ أخوه هارون عليه السلام لا مِنْ جهة أَنَّهُ شريك فِي الانحراف أو مقصّر - والعياذ بالله - وَإِنَّمَا مِنْ جهة موقعه كوصي وخليفة عَلَى الأُمَّة ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١). فَهُوَ أَوَّل مَنْ يُسَاءَل وَيُحَاسَب؛ لأنه المدبر الذي يجب

عتاب الزهراء عليها السلام لأmir المؤمنين عليه السلام..... ٢١١
أن يبدي تدبيره.

والإمام بَعْدَ رسول الله ﷺ هُوَ علي بن أبي طالب، وماذا صنعت الأُمَّة بَعْدَ نبيها ﷺ بابتته؟ ومنَ المسؤُول الأَوَّلَ وَمَنْ تَسأَلُ فاطمة عليها السلام؟ ففاطمة تَسأَلُ أمير المؤمنين عليه السلام بها هُوَ إمام الأُمَّة، وانظر كيف يبين أمير المؤمنين عليه السلام أنَّ فعل القوم قبيح في نفسه ولكن طبيعة الموازنات وتزاحم الملاكات الشرعية تقتضي اتخاذ موقف آخر سيما أنَّ الزهراء شريكة علي في الوصية، وإنَّ كَانَ الإمام أمير المؤمنين يفضلها بدرجة لكنَّ لَيْسَ الفاصل بينهما كالفاصل بين علي والحسين عليهما السلام. أو كالفاصل بين علي وسائر الأئمة أو بَقِيَّةِ المصطفين، فَهَناكَ جهة مشاركة بين علي وفاطمة في الفضل؛ ولذا لو لَمْ يَخْلُق اللهُ علياً لما كَانَ لفاطمة كفواً... آدم فَمِنْ دونه.

فالمقصود أنَّ هذا الحقَّ العظيم لفاطمة قَدْ انتهك واستيبح فَمَنْ أَوَّلَ مِنْ يُسأَلُ؟ علي عليه السلام لكنَّ لا بلحاظ فعله الشخصي بل بما هُوَ إمام ووصي ومسئول عَنْ هداية الأُمَّة.

وَمِنْ الآيات التي تبدي وتبين القاسم المشترك والعلاقة بين الأُمَّة ومديرها والرعية وراعيتها، هُوَ ما يذكر فيه دور التعليم والتزكية والتلاوة للآيات للنبي ﷺ ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

وَأَلْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾. وإذا انحرفت
واخطأت فهل التقصير عَلَى الفاعل أم عَلَى القابل؟

فانفعال القابل عَنْ الفاعل فعل مشترك بين الفاعل والقابل
فتفوق التلميذ فعل مشترك بين المعلم والمتعلم، وزكاة خلق المربي فعل
مشترك بين المربي والمربي، وبين المهذب والمهذب، فَالنَّبِيُّ ﷺ مسئول
فِي تدبير أمته، وتدبير أمته نتيجة لَيْسَ فِي نفسه بَلْ فِي أمته، والنتائج فِي
الأُمَّة هِيَ مِنْ مسؤوليات المربي والهادي والراعي والقائد والإمام؛ ولذا
الشغل الشاغل لدى الراعي والرئيس هِيَ نفس حالات المأموم
والمرئوس والرعية.

وَمِنْ هُنَا نجد مدى حرص أمير المؤمنين عليه السلام عَلَى هداية الأُمَّة
حينما أرادت الزهراء عليها السلام أَنْ تدعو عَلَى الغاصبين فربما عمَّ العذاب
جميع الأُمَّة فأرسل إليها سلمان (رضوان الله عَلَيْهِ) وَقَالَ لَهُ: «ادرك ابنة
مُحَمَّدَ ﷺ فَإِنِّي أرى جنبتي المدينة تكفئان والله إِنْ نشرت شعرها
وشقت جيها وَأنت قبر أبيها وصاحت إلى ربها لا يناظر بالمدينة أَنْ
يخسف بها وبمن فيها» فأدركها سلمان (رض) فَقَالَ: يا بنت مُحَمَّدَ ﷺ
إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بعث أباك رحمة فانصرفي،... فَإِنَّ عَلِيًّا بعثني إليك
وأمرك بالرجوع... الخبر^(٢) فرغم تمرّد الرعية وعصيانها ولجاجها نرى
الراعي يداريها ويربيها بشكل أرفق، نظير لجاج الأطفال فِي الأسرة

(١) آل عمران: الآية ١٦٤.

(٢) الاختصاص: ص ١٨٦.

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام ٢١٣
الذي لا يجتد معه الوالد في مقام التربية لهم لا تعاوناً في الإثم وإنما رفقا
في تربيتهم بالأرفق فالأرفق.

إذَنْ فعل الأُمَّة مصير مشترك بين الراعي والرعية فلا يظن أن
قوله تَعَالَى ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ مجاز، لَيْسَ مجازاً وَلَيْسَ
الذنب ذنب النَّبِيِّ ﷺ بَلْ ذنب الأُمَّة الَّتِي يرعاها النَّبِيُّ؛ ولذا وَرَدَ في
الروايات وعد الله إياه بالشفاعة الكبرى والمقام المحمود، والذي هُوَ
غفران الكبائر لأهل الكبائر مِنْ أُمَّته؛ لأنه هُوَ المسئول عَنْ أُمَّته وَعَنْ
كبائرهم فيكون الوعد وعداً لَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُن رسول الله ﷺ مقصراً في
أداء تكليفه ولكن النتيجة مشتركة بينه وبين أُمَّته.

المصير المشترك بين فعل الخالق والمخلوق:

وهذه العلاقة ليست فقط بين الراعي والرعية بَلْ أعظم مِنْ
ذَلِكَ، هذه العلاقة هِيَ بين الله وخالقه أيضاً «فالخلق عيال الله تَعَالَى
وأحبهم إليه أنفعهم لعياله» والله تَعَالَى هُوَ مسبب الأسباب فيما يجري
في خلقه وَمِنْهُ القضاء والقدر؛ ولذا قَدْ يتحوّل التذمر مِنْ بَعْضِ
المصائب والوقائع والظواهر في الخلق إلى التذمر مِنْ فعل الله وبالتالي
سخط عَلَى الله تَعَالَى والعياذ بالله.

ولذا حينما سئلت عقيلة بني هاشم مِنْ قبل الدعوي ابن زياد
«كيف رأيت صنع الله بأخيك» أجابت: «ما رأيت إلا جميلاً» لأنها

سألت عَنْ صنع الله وما يصنعه الله بخلقه كله جميل، وفي نفس الحين تبكي وتقول مِنْ سوء فعل العباد وفي نفس الحين تحمد الله عَلَى صنيعه.

ولذا لا بُدَّ للإنسان أن يسيطر عَلَى نفسه في المصائب فإذا سخط بشكل مفرط وتجاوز الحد في الجزع، فَهَذَا يعني أن لا شيء حسن وجميل في ما وقع، وبالتالي ذم فعل الله فَكُلُّ فعل الله جميل حَتَّى في خلقه للشياطين؛ وإن كانت أفعال الشياطين كلها شراً، ولذا كَانَ مِنْ أسماء الله تَعَالَى (ورب الشياطين وما أضلت).

ففعل المخلوق فيه جنبتان جنبه تسند إليه وتقع مورداً للذم أو المدح وجنبه ترجع إلى فعل الله تَعَالَى وهي حسنة على كل حال، ولذا تحرم المثلة حَتَّى بجسم الكافر؛ لأنَّ بدن الكافر لَيْسَ مِنْ فعل نفسه وَإِنَّمَا مِنْ فعل الله تَعَالَى.

وفي الخبر أن لقمان الحكيم عليه السلام كَانَ دميم الخلقة وأسود اللون بَلْ أقبح أهل زمانه ولكن لجمال روحه كَانَ يجب داود عليه السلام مجالسته والاستماع لحكمه فعاب شخص عَلَى لقمان وجهه ومنظره، فأجابه لقمان أتعيب عَلَى الخالق ما خلق فأسكته.

فهذه الجهة مرتبطة بفعل الله وإذا أردت أن تعيب عَلَى لقمان فليكن عيبك عَلَى أفعاله وأعماله وأخلاقه.

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ٢١٥

فالمقصود حتى في فعل الله تعالى توجد هذه الرابطة المشتركة بين الخالق والمخلوق، وحذار على الإنسان أن يسخط من كل وجوه الفعل، وإلا فسوف يعود سخطه إلى الجهة التي تربطه بالله تعالى.

ولذا لا نجد شيئاً كله ذميم وكله سوء بل في كل شيء جهات حسن وجمال، وفي الخبر أن عيسى بن مريم والحواريين مروا بجيفة حمار فبدأ الحواريون بدم تلك الجيفة من شكلها وريحها ونبتها، فقال لهم المسيح أفلا نظرتم إلى بياض أسنانه؛ ولذا يبحث في العلوم الحديثة اليوم عن الفوائد الموجودة في العقارب والحيات والنمل والذباب: فلكلها حكمة وفائدة في صنعها وخلقها.

فلا يصح ذم الشيء من كل جهاته وإلا فيعود الدم إلى فعل الله تعالى والعياذ بالله، والمقصود أن الفعل في حين أنه ينسب إلى البشر فيذم ويقبح ويتبرأ منه، كما في قتل سيد الشهداء عليه السلام ولكن إذا رأينا الجنبه الإلهية فيما حدث وصنع الله فيها وقع لا نرى إلا الرحمة والكرامة والإكرام والتعظيم الرباني لسيد الشهداء عليه السلام، وهذا تطبيق من تطبيقات قاعدة (لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين) ونتيجة عدم فهم هذه الحثيات وهذه الجهات خلط الأمويون والمرجئة والجبرية، فأراد عبيدالله بن زياد أن ينسب قبح مقتل سيد الشهداء إلى الله سبحانه وتعالى.

ومما يدل على هذه العلقه والرابطة المشتركة بين فعل الخالق

والمخلوق قوله تَعَالَى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾^(١) فالفعل مَعَ أَنَّهُ يَنْسَبُ إِلَى الْعَبْدِ وَلَكِنْ نَتِيجَتُهُ رِضَا اللَّهِ نَظِيرَ «إِنَّ فِي ذَلِكَ سُرُورًا نَبِيكَ». فَهَذَا الْفِعْلُ فِيهِ جَنْبَةٌ مُشْتَرَكَةٌ وَهُوَ وَإِنْ كَانَ فَعَلَ الْعَبْدَ وَإِرَادَتُهُ دَخِيلَةٌ فِيهِ وَلَكِنْ يَثْمُرُ نَتِيجَةً شَبِيهَةً بِثَمَرَةِ الْإِنْسَانِ حِينَمَا يَرِي أَوْلَادَهُ، فَأَفْعَالُ الْأَبِ تَرْتَبُطُ بِمَصِيرِ الْإِبْنِ فَإِذَا زَكِيَ وَنَجِبَ الْإِبْنُ فَرِحَ الْأَبُ لِمَا فِي الْبَيْنِ مِنْ رَابِطَةٍ بَيْنَ الْأَبِ وَالْإِبْنِ وَأَنَّ الْإِبْنَ إِجْزَاءُ تَكْوِينِيٍّ مِنَ الْأَبِ، وَمَا يَفْعَلُهُ الْإِبْنُ لَيْسَتْ نَتِيجَةٌ فَعَلَهُ هُوَ وَحْدَهُ بَلْ هُوَ نَتِيجَةُ الْفَعْلَيْنِ.

ولذا يوصي القرآن الإنسان إذا أراد مجازاة الظالمين بأن لا يعتدي بالمجازاة لها حدّ باعتبار أنّها لأبداً أن تكون في الجهة والجانب التي ترجع إلى فعل الظالم أمّا في الجانب والجهة التي ترجع إلى فعل الله تعالى فلا، لأنّ كلّ ما هو من الله فهو حق وصدق وجمال.

وفي العزاء والبكاء والحزن والجزع على الفقيد المقدار الذي يرجع منه للعلاقة الرابطة بين أهل المصائب وبين الفقيد حسن. أمّا إذا اشتدّ فسرى إلى النفرة والجزع من فعل الله تعالى أصبح نوعاً من الردّ على الله والجزع والتبرم من فعل الله تعالى.

الجزع على المعصوم عليه السلام قمة التسليم لأمر الله تعالى:

ومن نماذج تعدد الحيثية والجهة في الفعل الواحد هي المصائب التي نزلت على أهل العصمة، ولكنّ الجزع على فقد المعصوم مهما بلغ واشتدّ فإنّه لا يكون خروجاً عن التسليم لأمر الله تعالى ولا من الردّ على الله تعالى؛ ولذا كان جزع الزهراء عليها السلام على أبيها عليه السلام شديداً وجزع وبكاء زين العابدين عليه السلام على أبيه سيد الشهداء عليه السلام كذلك فقد بكاه على طول أربعين سنة، ولم يكن فيه ذرة من السخط على أمر الله تعالى.

وهذا لأنّ البكاء على فقد أحد إنّما هو لأهمية ذلك الشخص وتذكير بالتغيير الحاصل بفقدته؛ وقد كان في بكائها وبكائه تبرم من فعل الطالحين وكَيْسَ تبرماً من فعل الله تعالى؛ ولذا تأذى القوم من بكاء الزهراء، وقلعوا شجرة الأراك التي كانت تستظل تحتها في البقيع للبكاء، فالمسألة ترجع إلى تظاهرة مضادة ضدّهم ونوع من التنديد بالوضع القائم بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله.

والغاية الأخرى من هذا البكاء هو التصرع إلى الله تعالى واستمداد الفرج والنصر منه، وليس البكاء اعتراضاً عليه تعالى وإنما تضرع واسترحام كالذي يفعله الطفل حينما يطلب حاجة من أبيه، فهو يسترحم ويستمد ولا يعترض ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فإن بكاء يعقوب على يوسف عليه السلام لم يكن اعتراضاً وشكاية من الله تعالى بل شكاية إليه تعالى، وأمل كبير

برحمة الله وبفرجه ونصره .

وهذا اللون مِنْ التفجّع الشديد الذي عاشته الزهراء عليها السلام وعاشه زين العابدين عليه السلام لأبَدَ لَهُ مِنْ تحليل أكثر ويفيدنا أيضاً في الجواب عَنْ التوهّم الناشئ مِنْ عتاب الزهراء عليها السلام لأمر المؤمنين عليهم السلام وتفسيره بما يظهر غاياته وحقيقته .

فإنَّ بكاء الزهراء عليها السلام عَلَى أبيها صلى الله عليه وآله كما يروى في طرق الفريقين - وَكَيْسَ عَنْ طرق الخاصة فحسب - لم يكن بكاءً وتفجعاً اعتيادياً بَلْ بلغ مِنْ الشدّة إلى درجة ليست في قدرة البشر الطبيعي بَلْ يحتاج إلى طاقة عجيبة وعظيمة، والتفجّع الشديد سببه معرفي، لِأَنَّ معرفتها عليها السلام بأبيها صلى الله عليه وآله كَيْسَ عَلَى حد معرفة الآخرين به صلى الله عليه وآله، ولذا كَانَ تفجّع الزهراء عَلَى أبيها كأنما تفجّع إنسان مفجوع بنفسه، لا مفجوع بغيره كالإنسان الذي يخاف أن يفقد نفسه، أو يقع في الهلكة فكيف يكون اضطرابه. أمّا علاقة بنت البنت بأبيها فإنها مهما بلغت فَهِيَ تصل إلى حدٍّ معيّن وتقف، وَبَعْدَ ذَلِكَ إذا زادت مِنْ تفجّعها سيكون تصنعاً وتكلفاً، أمّا الزهراء عليها السلام لم يكن تفجّعها وبكاؤها يقف عِنْدَ حدٍّ مِنْ الحرارة لتهدأ، بَلْ كانت تشتد أكثر فأكثر وهذا كله نابع مِنْ عمق المعرفة .

وَلأبَدَ مِنْ الالتفات إلى أن المعصوم يبقى في أشد حالات التسليم أمام فعل الله وامتحان الله تَعَالَى متحكماً باحاسيسه وعواطفه ولا تبرز مِنْهُ أيّ حالة اعتراض عَلَى الله تَعَالَى؛ ولذا نقرأ في قصة يونس ﴿ وَإِنَّ

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ٢١٩
 يُؤَسِّسَ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ
 فَالْتَقَمَهُ الْحَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ
 يُبْعَثُونَ ﴿١﴾ فالقرعة سهم الله وتخرج ثلاث مرّات على يونس ولا بدّ
 أن يلقى إلى البحر ليلتقمه الحوت، ومع ذلك لا يفقد ذرة من تسليمه
 وخضوعه ورضاه بفعل الله تعالى ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ يَلَ إِلَهَ إِلَّا
 أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢﴾ ففي هذه الوضعية
 المربكة التي تنزل فيها النفوس من يستطيع أن يبقى بينه وبين ربه
 جبل الوصال والوداد والتسليم والرضا؟ فإنّ الإنسان الاعتيادي إذا
 ابتلي فضلاً عما إذا اشتد بلاؤه فعادة ما تنقطع حبال الوصال بينه وبين
 الله تعالى ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلْنُهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهَنَّنُ﴾ ﴿٣﴾ ونظير
 إبليس الذي فقد كلّ توازنه حينما أمر بالسجود لآدم فأبى واستكبر
 وأخذ يجادل لجأاً ويزيد في عتوه واستكباره على الله تعالى.

أما المعصوم عليه السلام فهو لا يفقد تذللّه وخضوعه وتضعضه
 وهدوئه أمام الله تعالى، في ظل كلّ هذا الصخب من البلايا والرزايا فلا
 تتغلب عليه غرائزه ونفسياته بل بالعكس يظل مرابطاً وصابراً ورابط
 الجأش؛ ولذا كان من معجزات سيد الشهداء أنّه رغم هول المصائب
 التي نزلت عليه لم يفقد ذرة من شجاعته وقوته وذلك للحاظ الحثيثين

(١) سورة الصافات: الآية ١٣٩ - ١٤٤.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.

(٣) سورة الفجر: الآية ١٦.

في الفعل والتي تريده معرفة وشجاعة وقوة، فيقول عنه أحد الأعداء «فوالله ما رأيت مكثوراً قط قَدْ قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً ولا أمضى جناناً [ولا أجراً مقدماً] مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِنْ كَانَتِ الرِّجَالُ لَتَشُدَّ عَلَيْهِ فَيَشُدَّ عَلَيْهَا بِسَيْفِهِ فَتُنْكَشَفُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ انْكَشَافَ الْمَغْزَى إِذَا شُدَّ فِيهَا الذَّنْبُ»^(١).

وهذا يبيّن مدى صفاء أفعال المعصوم عليه السلام وَقَدْ تَقَدَّمَ الْبَحْثُ عَنْهُ فِي الْقَاعِدَةِ الثَّلَاثَةِ.

أَمَّا الْمَغْزَى مِنْ بَكَائِهَا وَشِدَّةِ تَفَجُّعِهَا فَمِنْهُ إِحْيَاءُ ذِكْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَرْبِيَةِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى ذَلِكَ أَوْ قَلَّ تَنْمِيَةَ مَعْرِفَةِ الْمُسْلِمِينَ بِعِظْمَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَكْرِيسِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ فِي أَذْهَانِهِمْ وَتَعْرِيفِهِمْ بِمَدَى عِظْمَةِ الْخَسَارَةِ بِفَقْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ الطَّبِيعِيُّ إِنْ زِيَادَةَ مَعْرِفَةِ الْمُسْلِمِينَ بِهِ يَعْنِي زِيَادَةَ فِي إِيمَانِهِمْ وَتَعْمِيقاً لِعَقِيدَتِهِمْ، وَهَذَا أَيْضاً مِنْ غَايَاتِ تَفَجُّعِ عَقِيلَةِ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنَاتِ أَهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام عَلَى سَيِّدِ الشَّهَدَاءِ عليه السلام.

وَكذَلِكَ السَّرُّ فِي شِدَّةِ بَكَاءِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ عَلَى أَبِيهِ الْحُسَيْنِ عليه السلام فَإِنَّ أَحَدَى الْغَايَاتِ وَالْمُؤَدِّيَاتِ الْعِظِيمَةَ الَّتِي كَانَتْ فِي ذَلِكَ هُوَ تَرْبِيَةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَعْرِفَةِ عِظْمَةِ سَيِّدِ الشَّهَدَاءِ، وَعِظْمَةِ الْخَسَارَةِ الَّتِي تَكْبِدُوهَا جَرَاءَ فَقْدَانِهِمْ لَهُ عليه السلام فَقَدْ افْتَقَدُوا آخَرَ مِنْ بَقِيٍّ مِنْ أَصْحَابِ الْكِسَاءِ

عتاب الزهراء عليها السلام لأmir المؤمنين عليه السلام..... ٢٢١
ولقد فقدَ أهل الكساء عليه السلام بفقد الحسين وإنَّ شدة البكاء والتفجع ينبه
الغافل على ضرورة الارتباط وتوطيده مع الشخص المفجوع به
والمبكي عليه.

وَمِنْ أهم الغايات أيضاً وبها يرتبط ببحثنا هو أنَّ في شدة البكاء
إدانة لمشروع السقيفة لأنها حينما تحمى ذكرى رسول الله صلى الله عليه وآله وعظمته
وتذكر المسلمين بالعهود والمواثيق التي كانت بينهم وبينه صلى الله عليه وآله أو قل
عندما تذكرهم برسول الله صلى الله عليه وآله تبيّن لهم أنَّ الذي قعد على منبر رسول
الله صلى الله عليه وآله من بعده لا يملأ ذلك الفراغ، ولا يمكن أن يتوفّر على
الصلاحية والقابلية التي تؤهله لخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله.

وَلَمْ تكتف الزهراء عليها السلام بالتصريح في خطبتها بذلك بل عاشت
عظمة الفاجعة ببكائها وشدة تألمها لأنَّ التصريح في الخطبة بمثابة
التنظير الذي لا يرقى في التأثير في نفوس الناس إلى ما يفعله البكاء
كحالة عملية مُعاشة تُوجد تعاشياً عملياً وتفاعلاً نفسياً وروحياً مع
الفاجعة.

فسياسة الزهراء عليها السلام كانت قائمة على هذا التذكير برسول الله صلى الله عليه وآله
حينما كانت تذكر انقطاع الوحي وانقطاع صوت النبي صلى الله عليه وآله بقراءة
القرآن وكلّ تلك الأمور العظيمة التي افتقدتها بفقدان رسول الله صلى الله عليه وآله
وذلك بخلاف مشروع الطرف الآخر وسياسته والذي كان يهتم بإماتة
ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وذلك عبر شعار «حسبنا كتاب الله» وشعار «مَنْ كَانَ

يعبد محمداً فَإِنَّ محمداً قَدْ مات» والذي أطلقه أبو بكر.

والباحث يثيره العجب مِنْ هذا التعبير وهذه النبرة. فَمَنْ كَانَ مِنْ المسلمين يعبد رسول الله ﷺ؟ ولماذا التعبير بعبادة رسول الله ﷺ عَنْ شِدَّةِ العلاقة القلبية برسول الله ﷺ؟ ليس ذلك إلا من أجل التنفير وتصوير شدة العلاقة برسول الله أنها تطرف وغلو. وَإِنَّمَا قِيلَتْ هذه المقولة عِنْدَمَا شوهدت هذه الدرجة مِنْ العلاقة القلبية فِي الناس وَكَمَا يصفهم أمير المؤمنين عليه السلام لقد ذهل الناس ثلاثة أيام كأنها لَمْ تكن لهم عقول مِنْ شدة المصاب والدهشة، فهذه الحالة مِنْ الانشداد والانجذاب لشخصية النَّبِيِّ ﷺ يعد خطراً للمشروع الآخر؛ ولذا عبر فِي ختام استنكار هذه العلاقة القلبية «مَنْ كَانَ يعبد محمداً ﷺ فَإِنَّ محمداً قَدْ مات».

فالانجذاب الشديد إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يسبب الانجذاب لأهل بيته عليهم السلام ولسيرته، وإصراراً للإبقاء عَلَى وصيته وآثاره، ويثير السؤال حول جدارة مَنْ يخلف مقام النَّبِيِّ ويسد مسدّه، وَكُلُّ هذه الهواجس والأحاسيس لا تلائم مشروع الطرف الآخر الذي سار عَلَى خلاف ما أَرَادَ رسول الله ﷺ فرفعوا شعاراً مقابلاً لمشروع الزهراء عليها السلام ولما قامت به بالضبط.

وحينئذٍ ندرك عظمة وأهمية ما قامت به الزهراء عليها السلام حَيْثُ كَانَ الناس فِي ذهول لما حدث مِنْ رحيل رسول الله ﷺ فتأتى فاطمة

عتاب الزهراء عليها السلام لأmir المؤمنين عليه السلام ٢٢٣
 الزهراء عليها السلام وتزيد في وقود هذا المسار، وفي حرارة الإحساس بفاجعة
 مصيبة رسول الله صلى الله عليه وآله، أمّا الطرف الآخر فيرفع شعار «مَنْ كَانَ يَعْبُدُ
 مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ» فلماذا هذا الشعار وهل كَانَ أَحَدٌ مِنَ
 المسلمين يعبد النبي؟ ولماذا تسمى هذه العلاقة والانجذاب الشديد إلى
 النبي عبادة مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ ولماذا تعتبر هذه الطاعة والمحبة لرسول الله
 عبادة لغير الله وبالتالي انحرافاً عَنِ الدِّينِ؟ فما المغزى الكامل والحقيقي
 وراء هذا الشعار؟ ثمّ لماذا وصف النبي بأنه قَدْ مَاتَ؟ فالقرآن وإن
 تكلم عَن مَوْتِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ولكن هدف أبي بكر
 شيء آخر فما الذي أَرَادَ قَوْلُهُ مِنَ الإِخْبَارِ بِمَوْتِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله فَهَلْ مَاتَ بَدَنُهُ أَمْ
 مَاتَ رُوحُهُ أَمْ مَاتَ مِنْهُجُهُ وَمَشْرُوعُهُ؟ فَهَذِهِ الكَلِمَاتُ الَّتِي أَطْلَقْتَ فِي
 أَجْوَاءِ تِلْكَ الفِتْنَةِ لَيْسَتْ عِبْطِيَّةٌ بَلْ لِأَبَدٍ مِنْ تَحْلِيلِهَا وَالتَّدْقِيقِ فِيهَا وَاكتشاف
 إِرَادَةِ القَوْمِ فِي إِمَاتَةِ ذِكْرٍ وَمِنْهُجِ رَسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله.

وَمِنْ هُنَا نَدْرِكُ عِظْمَةَ مَا قَامَتْ بِهِ الزهراء عليها السلام وَزِينِ العَابِدِينَ مِنْ
 شِدَّةِ البِكَاءِ وَالتَّفْجَعِ، فَمَا قَامَا بِهِ لَمْ يَكُنْ جِزْعًا وَسَخَطًا عَلَى اللَّهِ؛ وَلِذَا لَمْ
 تَقُلْ الزهراء مَا يَسْخِطُ الرَّبَّ وَلَمْ تَنْبِرِ مِنْ زِينِ العَابِدِينَ مَعَ شِدَّةِ
 المِصَابِ كَلِمَةً اعْتِرَاضَ عَلَى قِضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ، بَلْ كَلِمًا زَادَ البِكَاءَ
 وَالجِزْعَ عَلَى المَعْصُومِ زَادَ التَّسْلِيمِ وَالرِّضَا بِقِضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ (اللَّهُمَّ لَكَ
 الْحَمْدُ حَمْدُ الشَّاكِرِينَ عَلَى مِصَابِهِمْ، الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى عَظِيمِ رِزْيَتِي)
 فَالتَّفْجَعُ عَلَى فَقْدِ مَعْصُومٍ سِوَاكَ كَانَ مِنْ مَعْصُومٍ أَوْ مِنْ غَيْرِ مَعْصُومٍ

لَيْسَ فِيهِ أَيْ لَوْنٌ أَوْ رَائِحَةٌ مِنَ الْإِعْتِرَاضِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى. وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي بَحْثِ الشَّعَائِرِ الْحُسَيْنِيَّةِ أَنَّ الْجُزْعَ عَلَى الْمُعْصُومِ أَوْ عَلَى الْفَضِيلَةِ بِلِحَازِ الْمُعْصُومِ نَفْسِهِ وَبِلِحَازِ الْفَضِيلَةِ نَفْسِهَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَذْمُومًا وَلَوْ وَصَلَ إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ حَادِثَةِ هَجُومِ سَرَايَا مَعَاوِيَةَ عَلَى الْأَنْبَارِ وَسَلْبِهِمُ لِلْمُسْلِمَةِ وَالْمَعَاهِدَةِ «فَلَوْ أَنَّ أَمْرِي مُسَلِّمًا مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسْفًا مَا كَانَ بِهِ مَلُومًا بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيرًا»^(١) فَلَا يَلَامُ شَرعًا وَلَا عَقْلًا لِأَنَّ شِدَّةَ الْإِنْجِدَابِ إِلَى الْفَضِيلَةِ وَشِدَّةَ التَّبَرُّمِ مِنَ الرَّذِيلَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَلَامَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ وَإِنْ بَلَغَتْ مَا بَلَغَتْ، فَهَذَا النُّحُو مِنَ الذُّوْبَانِ فِي الْفَضِيلَةِ مِمَّا يَمْدَحُ عَلَيْهِ الْمَرْءَ وَيَعْدُ مِنْ شَرَفِهِ وَكَمَالِهِ.

وَمِنْ هُنَا ذَكَرْتُ النُّصُوصَ «إِنَّ الْبِكَاءَ وَالْجُزْعَ مَكْرُوهٌ لِلْعَبْدِ فِي كُلِّ مَا جَزَعَ مَا خَلَا الْبِكَاءَ وَالْجُزْعَ عَلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَإِنَّهُ فِيهِ مَا جُور»^(٢) وَلَيْسَ هَذَا الْإِسْتِثْنَاءُ تَخْصِيصًا بَلْ هُوَ تَخْصِيصٌ؛ لِأَنَّ هَذَا الْجُزْعَ عَلَى الْمُعْصُومِ لَيْسَ تَبَرُّمًا عَلَى اللَّهِ بَلْ تَبَرُّمٌ مِنَ فِعْلِ الظَّالِمِينَ وَالتَّبَرُّمُ مِنَ فِعْلِ الظَّالِمِينَ فَضِيلَةٌ، وَكَذَلِكَ جَزَعُ الزُّهْرَاءِ عَلَيْهَا السَّلَامُ عَلَى أَبِيهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذِهِ الشَّدَّةِ لَمْ يَكُنْ تَبَرُّمًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وَلِذَا لَا يَوْجَدُ فِي هَذِهِ الْمَشَاهِدِ الَّتِي بَكَتَ فِيهَا الزُّهْرَاءُ وَخَاطَبَتْ

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٧.

(٢) كامل الزيارات ب ٣٢ ح ٢ ص ٢٠١.

عتاب الزهراء عليها السلام لأmir المؤمنين عليه السلام ٢٢٥
 أمير المؤمنين عليه السلام بالعتاب ما ينافي العصمة أو ما يبدو أنه فقدان للتوازن
 - والعياذ بالله - فَإِنَّ كُلَّ هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ إِنَّمَا هِيَ فِي أَحْكَمٍ وَأَتْقَنَ
 أشكاله وأشدَّ حالات الاتزان والموافقة للمعايير الشرعية حالها حال
 بَقِيَّةِ المَشَاهِدِ الَّتِي نَقَلْنَاهَا فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَمَا فِي مَا وَقَعَ بَيْنَ
 موسى وهارون عليهما السلام ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ
 إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا
 تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١). ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا
 بِرَأْسِي﴾^(٢)

فَالنَّبِيُّ مُوسَى عليه السلام لَمْ يَفْقِدْ تَوَازُنَهُ وَحَاشَا لَهُ ذَلِكَ فَهَذِهِ المَشَاهِدُ
 كُلُّهَا لَا تَنَافِي وَلَا تَخَلُّ بِالعصمة وَلَا تَخْرُجُ عَنِ المَوَازِينِ.

فموسى يريد أن يبدي امتعاضه واستنكاره لما وقع وخاطب
 هارون لأنه هو المسئول والرئيس والخليفة، وَكَانَ خُطَابُهُ لِعَرَضِ تَبْيِينِ
 مَدَى شِنَاعَةِ الانْحِرَافِ وَمَدَى تَبَرُّمِهِ مِنْ ذَلِكَ وَكَانَ هَذَا الأسلوب مِنْ
 خُطَابِ هَارُونَ هُوَ أَفْضَلُ طَرِيقٍ لِإِصْطِحَالِ ذَلِكَ.

وكذلك ما كَانَ مِنْ عِتَابِ الزهراء لأmir المؤمنين عليه السلام إِنَّمَا كَانَ
 لِبَيَانِ شِدَّةِ التَّبَرُّمِ وَالْإِنْكَارِ وَبَيَانِ مَدَى عِظْمَةِ الْمُنْكَرِ الَّذِي فَعَلُوهُ بَعْدَ
 رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَدْ أَبَدَتِ العِتَابُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ حَتَّى تَرْفَعُ تَوْهَمَ أَنَّ

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٠.

(٢) سورة طه: الآية ٩٤.

الشخصي؟ فَمِنْ الطَّيْبِيِّ أَنْ أَهْلَ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَجَلُّ وَأَنْزَهُ مِنْ الْعِدَاوَاتِ الشخصية، ولكن لهم عداوة مَعَ مشروع الطرف الآخر كيف لا وَهُمْ حملة المشروع الإلهي الذي يضاده المشروع الآخر. فهذا نوع مِنْ التلبس والإيهام، فَهَلْ عَلِيٌّ مَعَ الطَّرْفِ الْآخَرَ؟ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مَعَ المشروع الإسلامي لا أَنَّهُ مَعَ مشروع الطرف الآخر؛ ولذا صدرت مِنْ الزهراء كُلُّ الاستنكار والشجب والتفريع بمشروع السقيفة، وقالت ما قالت فِي عتابها لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِتَبَيَّنَ أَنَّ الْحَقَّ الْإِلَهِيَّ قَدْ أَضِيعَ وَأَنَّ هذا الوضع كَيْسَ وضِعاً صحيحاً، ولا يرضى عنه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تَدَافِعَ عَنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَنْ حَقِّهِ، لا أَنَّهُ تَعَاتَبَهُ وَإِنَّمَا هُوَ عِتَابٌ صَوْرِي هَدَفَهُ بَيَانُ الْحَقِّ لئلا يلبس عَلَى النَّاسِ أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ رَاضِياً عَمَّا جَرَى فِي غِصْبِ الْخِلاَفَةِ.

فلو لم تَبَيَّنْ لَأَتَى بَعْضُ الْكُتَّابِ الْيَوْمَ فِي وَسْطِنَا الدَّخْلِيَّ وَلَقَالُوا: (علي عَلَيْهِ السَّلَامُ فَوْقَ الْحَقْدِ الشَّخْصِيِّ) فَهَلْ الْقَضِيَّةُ قَضِيَّةُ شَخْصِيَّةٍ أَمْ هِيَ قَضِيَّةُ حَقِّ اللَّهِ وَهَلْ الْمَسْأَلَةُ مَسْأَلَةُ نِزَاعَاتٍ عِشَائِرِيَّةٍ أَمْ هِيَ نِزَاعٌ بَيْنَ مَشْرُوعِ الْحَقِّ وَمَشْرُوعِ الْبَاطِلِ.

فالعديد حَتَّى مِنْ وَسْطِنَا الدَّخْلِيَّ يَكْرُرُ عِبَارَاتٍ أَنَّ عَلِيًّا مَعَ مَصْلَحَةِ الْإِسْلَامِ أَوْ أَنَّ عَلِيًّا مَعَ الْمَشْرُوعِ الدِّينِيِّ فِي حَالَةٍ مِنْ الْخَلْطِ بَيْنَ الْأَوْرَاقِ وَالْعِجْزِ عَنِ التَّفْكِيكِ بَيْنَ مَجْرِيَّاتِ الْوَأَقِعِ. فَعَدَمُ تَحَرُّكِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَسْكَرِيًّا كَيْسَ مِنْ بَابِ رِضَاةٍ وَإِمْضَائِهِ لِمَشْرُوعِ الطَّرْفِ

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ٢٢٩
الآخر، وَإِنَّمَا مِنْ بَابِ أَنْ صَلَاحَ دِينِ اللَّهِ وَدِينِ رَسُولِ اللَّهِ وَالَّذِي هُوَ
المسؤول عنه، هُوَ أَنْ لَا يُوَاجِهَ فِعْلاً مُوَاجِهَةً سَاخِئَةً وَلَكِنْ لَا يَعْنِي
ذَلِكَ أَنَّهُ مَعَ مَشْرُوعِ الطَّرْفِ الْآخَرِ، بَلْ يَتَّبِرُ وَيَسْتَنْكَرُ مَشْرُوعِ الطَّرْفِ
الآخر أشدَّ إنكاراً.

فعلي سكت حفاظاً عَلَى المشروع الإلهي وحفاظاً عَلَى المشروع
النبي وَعَلَى بِيضَةِ الْإِسْلَامِ، وَلَكِنْ سَكَتَهُ هَذَا لَا يَعْنِي مَدْحاً أَوْ
تصحيحاً لما قام به الطرف الآخر، فالسكوت اضطراراً وتقيةً وحفاظاً
عَلَى دِينِ اللَّهِ لَيْسَ تَصْحِيحاً لِلزَّيْغِ وَالانْحِرَافِ كَمَا يَتَوَهَّمُ الْبَعْضُ نَتِيجَةً
عجزه عَنِ التَّفْكِيكِ بَيْنَ الْأَوْرَاقِ، مِمَّا يُوَقِّعُهُ فِي نَتَائِجِ فَادِحَةِ الْخَطُورَةِ.

ولذا كَانَ مَوْقِفَ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَحْتَاجُ إِلَى مَوْقِفِ الزَّهْرَاءِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي بَكَائِهَا
وَخَطْبَتِهَا وَعَتَابِهَا فَمَوْقِفِ الزَّهْرَاءِ مَوْقِفِ الدِّفَاعِ عَنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ
وما قامت به صلوات الله عَلَيْهَا مِنْ عِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَكُنْ مَخْلَافاً
بِالعصمة بَلْ كَانَ هُوَ مُقْتَضِي الْعِصْمَةِ، وَوَجِبَ الْمَعْصُومِينَ فِي الدِّفَاعِ
عَنِ الْحَقِّ وَتَبْيِينِ بَطْلَانِ الْانْحِرَافِ وَالزَّيْغِ فِي الطَّرْفِ الْآخَرِ.

أعرف الناس بسنة المعصوم هو المعصوم الآخر:

إن أعرف الناس بحقيقة سنة النبي ﷺ وباقي المعصومين عليهم السلام
هو المعصوم نفسه، فإن انعكاس سيرة المعصوم لدى الآخرين قد
يكون مشوباً بالعديد من التوهّمات التي لا تمثل القراءة الصحيحة

لواقع فعله وسيرته، بينما يكون تبين وتفسير المعصوم الآخر خالصا ومخلصا ومعصوما من كل توهم خاطئ، فإن تبيانه تبيان وحياني ومعصوم.

وما فعلته الزهراء عليها السلام هو بيان وتبيان وتفسير لموقف علي عليه السلام وَأَنَّهُ قَدْ صَدَرَ تَقِيَةٌ.

فالآخرون إذا رأوا هذا الفعل من المعصوم والمفروض أن يسند إليه وينسب إليه فلا بُدَّ من التعويل عليه، وهُنَا تأتي ضرورة دور المعصوم الآخر لبيّن أن المعصوم الأوّل قَدْ فعل ما فعل تقيه، وأنَّ ما فعله إنَّما جاء به في ظروف معيّنة اضطرارية ولم يأت به بلحاظ حكمه الأوّلي، نظير تمويه بني أمية لصلح الإمام الحسن عليه السلام على أنه كان يرتئي الصلح أساساً كحالة أولية وطبيعية، بينما هو عليه السلام وغيره من الأئمة يعللون الهدنة بضعف الجيش وتشقّقه وخذلانه ونحو ذلك.

فما فعله علي عليه السلام فعله لا بحسب الطبع الأوّلي للفعل وإنَّما من باب الاضطرار وَقَدْ تَقَدَّمَ الكلام عَنْ ذَلِكَ.

والمشهد التاريخي يحكي وقوع اللبس والوهم في فهم موقف علي عليه السلام حتّى من قبل خواص الخواص، ومن كان قد لجأ إلى بيت أمير المؤمنين عليه السلام، فكأن ما قامت به الزهراء في خطابها مع أمير المؤمنين عليه السلام نوع من المشهد المفتعل حتّى يفهم الآخرون حقيقة ما حصل، نظير

عتاب الزهراء عليها السلام لأmir المؤمنين عليه السلام ٢٣١
وضوء الحسن والحسين عليهما السلام أمام الرجل الشَّيخ الكبير.

فالمواجهة قبل أن تكون مواجهة سياسية وعسكرية وإعلامية
هيّ مواجهة لبيان الموقف الشرعي والمفاد الشرعي والقانوني والعقائدي
والتنظيري، وَكَانَ تَبْيَانُ هَذَا الْمَوْقِفِ ضَرْوْرِيًّا تَوْطِيْدًا لِلْقَاعْدَةِ
وَالأَرْضِيَّةِ الَّتِي تَنْطَلِقُ مِنْهَا وَتَبْنِي عَلَيْهَا الْمَوْجَهَةَ فِيْمَا بَعْدَ.

فَمِنْ الْمَهْمِ أَنْ تَقُومَ الزَّهْرَاءُ عليها السلام وَيَقُومَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِمَا قَامَا بِهِ
تَوْضِيْحًا لِهَذَا الْأَسَاسِ الشَّرْعِيِّ، فَكَمَا خَاطَبَ اللهُ تَعَالَى عَيْسَى بْنَ مَرْيَمَ
﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيِ أَنْفِ لَهُمْ
ذَلِكَ كَيْ لَا يَلْتَبِسَ الْأَمْرَ كَذَلِكَ خَاطَبَتِ الزَّهْرَاءُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
«اشْتَمَلتْ شَمْلَةَ الْجَنِينِ وَقَعَدتْ حَجْرَةَ الظَّنِينِ... الخ» أَيِ هَلْ أَنْتَ
رَاضٍ عَمَّا حَدَثَ؟ حَتَّى لَا يَلْتَبِسَ الْأَمْرَ عَلَى الْمُقْرِبِينَ فَضْلًا عَنْ
الْأَبَاعِدِ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ بِهَذَا الْمَسْتَوَى مِنَ الْإِلْتِبَاسِ بِحَيْثُ يَتَوَهَّمُ
المُقْرَبُونَ وَالْخَوَاصُّ فَكَيْفَ بِالْأَبَاعِدِ، فَلَا بُدَّ مِنْ هَذِهِ الصُّورَةِ مِنْ
المَسْأَلَةِ وَالْمَحَاكِمَةِ وَالْمَدَايِنَةِ.

ثُمَّ مَنْ الَّذِي لَهُ صِلَاحِيَّةٌ أَنْ يَقِيْمَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ وَالْمَحَاكِمَةَ
الصُّورِيَّةَ؟ لَيْسَ إِلَّا الزَّهْرَاءُ عليها السلام وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَوْقِعِهَا بِالنِّسْبَةِ لِأَمِيرِ
المُؤْمِنِينَ عليه السلام، وَهَذِهِ الْعِلَاقَةُ تَخْتَلِفُ عَنْ عِلَاقَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِبَاقِي
الْأُمَّةِ حَتَّى بِالنِّسْبَةِ لِلْحَسَنِينِ عليهما السلام؛ وَلِذَا أَرَادَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَنْ يَعْزِمَ
عَلَى الْمَوْقِفِ الْمَسْلُوحِ وَفِي أَمْرٍ يَرْتَبِطُ بِمَصِيْرِ الدِّينِ لَطَلَبَ طَلْبَتَهُ

فاطمة عليها السلام وكَيْسَ لطلب الحسين أو طلب علي بن الحسين أو باقي الأئمة أو طلب الخضر، بَلْ لطلب فاطمة، ولكن ذكَّرها بالخطر عَلَى دين رسول الله صلى الله عليه وآله فقد روى ابن أبي الحديد أَنَّ فاطمة عليها السلام حرصته يوماً عَلَى النهوض والثوب فسمع صوت المؤذن (أشهد أن محمداً رسول الله)، فَقَالَ لها: «أيسرك زوال هذا النداء مِنْ الأرض؟ قالت: لا، قَالَ فَإِنَّهُ مَا أَقُولُ لَكَ»^(١) وطلب الزهراء وجواب أمير المؤمنين عليه السلام إضافة للدلالة عَلَى عدم شرعية الوضع القائم وإنَّ السكوت عنه إِنَّمَا هُوَ للخوف عَلَى أصل الدين فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى مكانة وموقعية الزهراء بحيث تصدر الأمر بالمواجهة المسلحة؛ ولذا خاطبها أمير المؤمنين عليه السلام فِي جواب عتابها «نهني عَنْ وجدك يا ابنة الصفة وَبَقِيَّةِ النبوة» مذكراً بمقامها وموقعها وأنها ابنة الصفة وَبَقِيَّةِ النبوة؛ وقد وَرَدَ فِي وصية النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «يا علي انفذ لما أمرتك به فاطمة فقد أمرتها بأشياء أمر بها جبرئيل عليه السلام ، واعلم يا علي إني راض عن رضيت عنه ابنتي فاطمة»^(٢) الحديث، وَلَمْ يَقُلْ «ما تبلغك به فاطمة» بَلْ تأمرك. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مدى عظمة موقع الزهراء عليها السلام، وَإِنْ كَانَ أمير المؤمنين عليه السلام مقدماً عَلَى فاطمة حسب مجموع الأدلة وأعظم مقاماً، ولكن هُنَاكَ نوعٌ مِنَ التشاطر والدور المشترك والتكافؤ بين علي والزهراء عليهما السلام كما فِي النبوي: «لولا علي لما كَانَ لفاطمة كفؤ آدم فَمَنْ دونه».

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١١ ص ١١٣.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٤٨٥.

فلها موقعية خاصة، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنْ الْأَدَابَ بَيْنَ الْمُعْصومِينَ وَبَيْنَ أوليَاءِ اللَّهِ لَيْسَتْ مَجَامِلَةً وَتَشْرِيفًا، وَإِنَّمَا تَنَمُّ عَنْ حَقَائِقِ وَمَعَانٍ وَمَوَاقِعَ، وَمَنْ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لِرَجُلٍ أَنْ يَكُونَ قِيَمًا عَلَى الزَّهْرَاءِ وَقَوَامًا عَلَيْهَا إِلَّا عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهِيَ كَفُوُّ عَلِيٍّ وَعَلِيٌّ كَفُوُّهَا، وَنَظِيرُ هَذَا التَّشَاظُرُ مَا بَيْنَ مُوسَى وَالْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ خَاطَبَهُ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا.. لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ وَإِنْ كَانَ الْخَضِرُ فِي تِلْكَ الْحَيْثِيَّةِ الَّتِي عَمِلَ بِهَا أَعْلَى مِنْ مُوسَى وَلَكِنْ مُوسَى مِنْ جِهَةِ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ وَالنَّبُوَّةِ أَعْلَى مِنَ الْخَضِرِ وَالْخَضِرِ أَعْلَى مِنْهُ فِي عِلْمِ الْوَلَايَةِ.

وَعَلَى كُلِّ كَانَ مَوْقِفَ الزَّهْرَاءِ لِلدِّفَاعِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَفْعًا لِلْبَسِ الَّذِي يَدْعَى وَيُخَالِ مِنْ الطَّرْفِ الْآخَرِ؛ وَلِذَا أَجَابَهَا «وَمَا وَنَيْتَ عَنْ دِينِي» وَكَذَا فِي قِصَّةِ هَارُونَ وَمُوسَى فَقَدْ كَانَ أَتْبَاعَ السَّامِرِيِّ يَحْرَفُونَ الْمَوْقِفَ وَأَنَّ هَارُونَ رَاضٍ وَمُوسَى غَيْرُ رَاضٍ، وَلَكِنْ حَتَّى يَبِينَ مُوسَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ مَوْقِفَ أَخِيهِ هَارُونَ مَعَ سَكَوْتِهِ هُوَ مَوْقِفُ الرَّافِضِ، قَامَ بِمَا قَامَ بِهِ مِنْ مَحَاسِبَةِ هَارُونَ حَتَّى يَجِيبَهُ ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَّفُونِي وَكَادُوا يُقْتُلُونَنِي﴾ فَلَيْسَ السَّكَوْتُ لِلرِّضَا بِمَا صَنَعُوهُ وَإِنَّمَا لِأَنَّهُ قَدْ اسْتَضَعَفَ، فَمِنْ أَجْلِ تَبْيَاحِ أَنَّ مَوْقِفَ هَارُونَ لَا يَخَالِفُ مَوْقِفَ مُوسَى وَإِنَّمَا أَلْجَأَهُ الْآخَرُونَ فِي مَوْقِفِ حَرْجِ وَضَاغِطِ عَلَيْهِ فَقَامَ مُوسَى بِجَرِّ رَأْسِهِ وَحَيْثِهِ، فَمَا قَامَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ دِفَاعٌ عَنْ هَارُونَ، وَتَبْيِاحِ لِمَوْقِفِهِ وَبَيَانِ الْحَقِيقَةِ سَكَوْتِهِ وَعَدَمِ قِيَامِهِ بِالْمُوَاجَهَةِ الْمُسَلَّحَةِ ضِدَّ أَتْبَاعِ الْعَجَلِ.

عدم الفرقة عن الدين وحكمة موقف أمير المؤمنين:

وَمِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي مَنَعَتْ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَنْ يَقُومَ بِالْمُوَاجَهَةِ الْمُسَلَّحَةِ الْعَلْنِيَّةِ ضِدَّ السَّامِرِيِّ وَأَتْبَاعِهِ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وَهَذَا السَّبَبُ هُوَ أَيْضاً مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي اسْتَدَلَّ بِهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِمَوْقِفِهِ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي خُطْبَةٍ لَهُ فِي حَرْبِ الْجَمَلِ: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ قَبِضَ كُنَّا نَحْنُ أَهْلُ بَيْتِهِ وَعَصْبَتُهُ وَوَرِثَتُهُ وَأَوْلِيَائِهِ وَأَحَقُّ خَلْقِ اللَّهِ بِهِ، لَا نَنَازِعُ فِي ذَلِكَ... فَاتَنَزَعُوا سُلْطَانَ نَبِينَا مَنَّا وَوَلَوْهُ غَيْرِنَا وَأَيْمَ اللَّهُ فَلَوْلَا خِيفَةُ الْفِرْقَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَعُودُوا إِلَى الْكُفْرِ لَكُنَّا غَيْرِنَا ذَلِكَ بِاسْتِطَاعَتِنَا»^(١)، وَفِي خُطْبَةٍ أُخْرَى لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَأَيْمَ اللَّهُ، لَوْلَا خِيفَةُ الْفِرْقَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَعُودَ الْكُفْرَ، وَيُورِثَ الدِّينَ، لَكُنَّا عَلَى غَيْرِ مَا كُنَّا لَهُمْ عَلَيْهِ»^(٢) وَكَذَلِكَ نَصُوصٌ عَدِيدَةٌ أُخْرَى يَذْكَرُ فِيهَا الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا السَّبَبَ.

وقد استدلل البعض بهذا المشهد والموقف على ضرورة الوحدة، فهارون رغم وجود الكفر في الطرف المقابل لم يفرط بالوحدة وحافظ عليها ولم يستسلم للفرقة وإن كان دين الطرف الآخر هو الكفر.

ولكن هذا التعبير فيه إيهام واضح، فصحيح أن هارون عليه السلام حافظ على الوحدة ولم يفرق الأمة ولكن ليس معنى ذلك أنه صحح

(١) كتاب الجمل للشيخ المفيد: ص ٤٣٧ والأمالى للمفيد: ص ١٥٥.

(٢) الارشاد: ج ١ ص ٢٤٥.

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ٢٣٥
 مسار السامري وأتباعه أو تابعهم عَلَى انحرافهم وارتكب الذنب الذي
 ارتكبه، ففرق بين القول بأنه لَمْ يزرع الفرقة وَأَنَّهُ حافظ عَلَى وحدة
 الأُمَّة، وبين أَنَّ بني الوحدة عَلَى انحراف الطرف الآخر، وَعَلَى لون
 الاحداث والتبديل في مسار المنحرفين، بَلْ العكس لقد بنى هارون
 عَلَيْهِ السَّلَامُ وحدة بني إسرائيل عَلَى الأُمُور المتبقية المتفق عليها من الدين وما
 اجتمعت عليه الأمة من الدين من الثوابت والأسس، وَهُوَ الإِيْمَانُ
 بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وإله موسى وأتباعه وحافظ عَلَى هذا الأمر فيهم وَهُوَ
 كونهم مِنْ أُمَّة موسى وأتباعه، ولم يفرط في أصل انتحالهم وانتسابهم
 إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وملته، وَهَذَا هُوَ الجانب المشترك الصحيح الذي بنى
 عَلَيْهِ وحدته لا أَنَّهُ بنى وحدة الأُمَّة عَلَى قبول الانحراف، فَهُوَ لَمْ يدعم
 الانحراف، واعتزلهم في جانب انحرافهم وَإِنْ لَمْ يعتزلهم في الجانب
 المشترك وَلَمْ يصدع وفاقهم في المشتركات الصحيحة، فَلأبَدٍ مِنَ التمييز
 بين كُلِّ هذه الحيشات وعدم الخلط بينها.

فالوحدة إِنَّمَا هِيَ في الأُمُور الصحيحة بنظر كُلِّ الأطراف، ولا
 تُبْنَى الوحدة عَلَى الأخطاء وَعَلَى الأُمُور الخلافية المبتدعة والمحدثة في
 الدين، فالذي ورد من الأمر بعدم التفرقة هو عدم التفرقة عن الدين
 الواقعي الصحيح لا عدم التفرقة عن الأخطاء والانحرافات
 والضلالات، ففي قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ
 مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ وقوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ

الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿١٠﴾
 وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَفْرُقُوا فِيهِ﴾ وهذه الآيات صريحة
 في أن الذي أمر بعدم التفرق عنه هو الدين لا ما هو خارج عن الدين
 وإن تلبس بلبوسه، وقوله (ولا تفرقوا فيه) أي لا تفرقوا عنه، فمعنى
 الوحدة هي الوحدة في الإقامة على الدين، لا الوحدة على من غير
 وبدل في ما غير وبدل، بل في ما بقي عليه مقيماً من الدين، ومن ثمَّ
 أقرهم هارون على أقرارهم واعتقادهم بموسى والهه، ولم يصطف
 معهم في عبادة العجل واتباع السامري، ومن ثمَّ فسر أمير المؤمنين في
 خطبه مخافة الفرقة بين المسلمين بمخافة أن يعودوا إلى الكفر وأن يبور
 الدين ويرفعوا اليد عما تبقى من قواعد الرسالة.

وقد بين في دعاء الندبة أن مقدار الاجتماع ولمّ الشمل هو دائرة
 التقوى والصلاح والرضا، (أين جامع الكلمة على التقوى.. أين
 مؤلف شمل الصلاح والرضا) فمدار الاجتماع مع بقية الاطراف هو
 في ما يُشترك معهم في التقوى والصلاح، أي ما كان سديدا وصوابا
 بحسب واقع الدين، ولا اجتماع على الأمور الباطلة والمبتدعة.

ولابدَّ من الالتفات إلى أن بحث الوحدة والاجتماع غير بحث
 التقية وإن كانا متقاربين ومتلازمين؛ بل وحدة الاجتماع أمر حقيقي
 تبني على المواد المتبقية من الدين لدى الأطراف المختلفة، وضرورة
 الوحدة تأتي من باب ضرورة عدم التفريط بهذه المشتركات المتبقية من

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ٢٣٧
أمر الدين، فلا تفريط بأمة رسول الله ﷺ ولا بالقبلة ولا بالقرآن ولا
في سنة النبي ولا في أصل التوحيد لله تعالى ولا في المعاد ولا في الحفاظ
على أرض الإسلام وكرامتها وصونها من الكافرين، وهذه كلها أمور
واقعية وحقّة وصادقة بلا أيّ مجاملة والكل من بقية المذاهب يعرف
ذلك ويعرف جديتها وواقعيتها، كما أنهم يعرفون الأمور التي نجامل
ونداري فيها، وأنا لسنا جادين في ذلك وأنها ليست دائمة كما تدوم
الحقائق الجدية والواقعية.

وفرق واسع بين المعاشة بحسن الخلق وبحقن الدماء كأمر
حقيقي، وبين المجاملة بالنحو التي تصحح أخطاء الطرف الآخر مع
أنا لا نعتقد بصحتها، ولا تثمر هذه المجاملة لبناء صرح رصين
للوحة بين الأطراف المختلفة وإنما البناء على ما هو حقيقي ومشترك
مصصح من قبل الجميع، وإذا أراد أحد حينئذ أن يخرج عن هذه
المشتركات الصحيحة لكان عليه أن يخرج من ملة الإسلام وعن
صبغته ويأتي بدين جديد وملة وصبغة جديدة.

فالوحدة الصحيحة هي بمعنى الاجتماع على ما تبقى من الدين،
لا بمعنى ايجاد لون موحد جديد واحداث مواضع جديدة للتوحيد في
الأمور الخاطئة والمحدثّة المبتدعة.

وهذا التفكيك بين المسارات المختلفة بين مسار ما هو الصواب
ومسار ما هو غير صواب ومسار المشترك مع الانحراف أمر مهم جداً

وبالغ الخطورة ويشكل عمق موقف أمير المؤمنين عليه السلام والزهراء عليها السلام، ولذا كان المحور الأول لخطبة الزهراء هو التأكيد على الأساسيات في الدين وتأصيلها، من التوحيد والنبوة وأركان فروع الدين.

ثمَّ إنَّ معنى الإقرار بوجود خلافات بين الأطراف لا يعني التفريط بالوفاقيات والمشاركات الحقيقية، ولا يلزم من الاختلاف في أسس الإيمان هدر الدماء، بل الاتفاق على المشاركات تعني حقن الدماء والتعايش والاتجاه للقبلة الواحدة والولاء والتعهد للملة والدين والنحلة الواحدة ولكن لا يعني ذلك نفي الخلاف.

وَلَيْسَ الإقرار بوجود كلا الحثيثين ازدواجية بل التنكر لأحدهما هي عين الازدواجية والفرار عن الواقع.

والذي يستفيد على طول التاريخ من هذا التفريط بأحد الجانبين هم الحكام السياسيون الظلمة حتى لا تزول قدرتهم وسلطتهم وإلا فإن أصل التعايش المدني السلمي مع الصبغة المشتركة في الملة ومع الإقرار بوجود الخلافات فهو موجود على طول تاريخ الإسلام.

ولا يعني الاتفاق على المشاركات عدم الاختلاف في أسس الإيمان ولا غلق باب الحوار، كما أنَّ فتح الحوار لا يعني إشعال حوار الفتنة فهذه الأمور لا تتضاد مع بعضها البعض ولا تتصادم، وإنَّ عدم الللملة والإحاطة بكلا الجانبين بغور وتعمق ودقة هو الذي يسبب

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ٢٣٩
الوقوع في أخطاء منهجية في معرفة حقيقة الوحدة الإسلامية.

أما لو أردنا أن نتنكر لوجود الاختلافات فهل هذا أوفق
بالوحدة؟ القضية بالعكس فإن التنكر لوجود الخلافات مدعاة للفتنة،
لأننا حينئذ نفهم الطرف الآخر أنه لو بنينا على وجود جهات مختلفة
لتصدع التعايش السلمي بين المذاهب، وهذا تلقين خطر جداً بل يجب
أن تنصف الطرف الآخر، وتبين له أنه رغم وجود الاختلاف في
أسس الإيمان لا يفسد ذلك من ود التعايش السلمي، ولا من حقن
الدماء ولا يقلل ويبطل المسؤوليات والواجبات المشتركة تجاه دين
الإسلام، فعندنا وظائف مشتركة كما عندنا حقوق وخدمات مشتركة
لا يفرط بها لمجرد وجود تلك الخلافات فيجب إفهامهم أن التلاؤم
والتوأمة بين هاتين الحثيتين غير ممتنعة بل ممكنة بل ضرورة وواجبة.

والذي يقول بالامتناع هو الذي يثير الفتنة ويخل بأساس
الوحدة، والمؤسف أن العديد ممن خاض في بحث الوحدة لا يلم
علمياً ولا صناعياً بهذه الجهات، ولو ألم بها لصاغ هيكلية بحث
التقريب والوحدة بشكل واقعي وجدي وهو الذي مارسه رواد علماء
الامامية على طول التاريخ.

ولا تعني الوحدة ايضاً التفريط بمقدرات الطائفة وبقوتها
وقدرتها وبنائها، ففي بلاد أكثره من المؤمنين لا معنى لأن نقلد الحكم
لشخص من الطرف الآخر أو أن يتولى بعض المسؤوليات الخطيرة،

فهذا تفريط بأبسط حقوق الطائفة وبقوتها وقدرتها.

بل نجد هذا التواءم والتلاؤم بين الجانين والمشركات والخلافيات في السنة وسيرة رسول الله ﷺ، فرسول الله ﷺ في نفس الحين الذي يعطي صبغة الإسلام لكل الموجودين في زمانه ولمن تشهد الشهادتين كذلك بين وأسس لجانب آخر وهو «علي مع الحق والحق مع علي» «من كنت مولاه فهذا علي مولاه».

ففي الحين الذي لم يفرط بإسلام أولئك لم يفرط أيضاً بالجانب الآخر؛ ولذا ذكرنا في بحث التقريب أن المذهبية لم تؤسس بعد حياة رسول الله ﷺ كما يتخيل بعض رواد التقريب وإنما أسست وبيئت في القرآن وعلى عهد رسول الله ﷺ، ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَانًا قُلْ لَمْ تَوْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ (١).

فهناك من يجب عليهما الصلاة وهناك من أنصار الطرف الآخر في زمن رسول الله، وقد صنّفهم القرآن على طوائف عديدة في زمن رسول الله ﷺ.

فسيرة رسول الله ﷺ هي أعظم نبراس لوحدة اجتماع الأمة على الضرورات المتفقة من الدين، فهو لم يفرط بحقن الدماء وبنى حقن الدماء والأموال والأعراض على الشهادتين، فمن تشهد الشهادتين

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام ٢٤١
كان له ما للمسلمين وَعَلَيْهِ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وتترتب عَلَيْهِ الواجبات
والحقوق المشتركة، ولكنه عَلَيْهِ ﷺ فِي نَفْسِ الْحَيْنِ يُبَيِّنُ مَعْيَاراً وَنَهْجاً
ومساراً آخر للإيمان، فَلَمْ يَفِرِّطْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَحْلَةِ الْإِسْلَامِ عَلَى
حَسَابِ الْإِيمَانِ، كَمَا لَمْ يَفِرِّطْ بِالْإِيمَانِ عَلَى حَسَابِ نَحْلَةِ الْإِسْلَامِ.

فللمذهب والإيمان أسس يختص بها ومجرد الاختلاف في أسس
الإيمان لا يعني التفريط في الحقوق والواجبات المشتركة.

فَلأُبَدُّ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْحَيْثِيَّتَيْنِ وَالْجَانِبَيْنِ فِي نَفْسِ الْحَيْنِ الَّذِي
يسكت علي عليه السلام، ولا يقوم بالعمل المسلح خوفاً مِنْ ذَهَابِ الْإِسْلَامِ،
تقوم فاطمة عليها السلام ببيان انحراف الطرف الآخر، بَلْ وَتَسْتَنْهَضُ
المهاجرين والأنصار عسكرياً وَهِيَ الْخَطْوَةُ الَّتِي لَمْ يَخْطُوهَا أَمِيرُ
المؤمنين عليه السلام عملياً بخلاف الزهراء عليها السلام. وَهَذَا أَمْرٌ مَهْمٌ يَدُلُّ عَلَى أَهْمِيَّةِ
وعظمة موقع الزهراء مِنْ إِمَامَةِ الْأُمَّةِ وَتَكَامُلِ مَجْمُوعَةِ الْأَدْوَارِ
بِهِمْ ﷺ جَمِيعاً.

فلا يمكن الأخذ بموقف علي وترك موقف فاطمة ولا العكس
صحيح بَلْ الْحُجَّةُ هِيَ فِي الْمَجْمُوعَةِ كَمَنْظُومَةِ أَدْوَارِ مُتَكَامِلَةٍ بَيْنَ
المعصومين عليه السلام فِي نَفْسِ الْحَيْنِ الَّذِي انْتَمَى لِنَحْلَةِ الْإِسْلَامِ وَاتَابَعَهَا،
اعتزَّ وَأَفْتَخَرَ بِتَبَعِيَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ ﷺ كَمَنْهَاجِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ.

تحليل ما جرى بين موسى والخضر عليهما السلام :

وَمِنَ الْمَشَاهِدِ الَّتِي تَقَدَّمَ اسْتِعْرَاضُهَا هُوَ مَشْهَدُ مَا جَرَى بَيْنَ
مُوسَى وَالْخَضِرِ وَالْحَوَارَاتِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي اعْتَرَضَ فِيهَا مُوسَى عَلَى
الْخَضِرِ عليهما السلام ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِنُفُورِ أَهْلِهَا
لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا... فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا
رُكْبَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا... فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ
فَأَقَامَهُ، قَالَ لَوْ شِئْتَ لَفَجَدْتَهُ عَلَىٰ أَجْرًا﴾ (١).

وهذا المشهد يعبر عن ملحمة عظيمة في معايير المعرفة المدنية
والحجج التي تقام عليها المعرفة.

فموسى عليه السلام اعترض على الخضر عليه السلام وفقاً للشريعة ولقضايا مسلمة
في شرائع الأنبياء، ومعنى كونها مسلمة في شرائع الأنبياء أي أن
حجيتها فوق حجية الخضر، فالحجج على مراتب وأعلى الحجج هي
حجية الله تعالى التي هي فوق حجية كل الأنبياء والأوصياء، وبالتالي
الولاية التشريعية لله تعالى أعظم من طاعة الأنبياء والأوصياء وفرائض
الله حجيتها فوق حجية الأنبياء والأوصياء؛ لأن أول المخاطبين
بوجوب طاعة الله «أطيعوا الله» هم الرسل وعلى رأسهم سيد
الأنبياء صلى الله عليه وآله، وأول المخاطبين بـ «أطيعوا الرسول» هم الأمة عليهم السلام ثم

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام ٢٤٣
عموم الناس.

وَعَلِيهِ فَوَلَايَةُ اللَّهِ وَطَاعَتُهُ وَحُجَّتُهُ فَوْقَ حُجَّةِ وَطَاعَةِ وَوَلَايَةِ
سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ فَمَنْ دُونَهُ، وَهَذَا يُلْزَمُ مِنْهُ أَنْ تَكُونَ فَرَائِضُ اللَّهِ
الْمُحْكَمَةُ مِيزَانًا وَضَابِطَةً لَصَدَقَ أَيُّ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِذَا تَعَدَّى أَيُّ
مَدْعٍ لِلنَّبُوَّةِ فَرَائِضُ اللَّهِ وَدِينُ اللَّهِ سَيَكْتَشِفُ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ كَذِبَهُ فِي
دَعْوَى النُّبُوَّةِ، فَأَنْبِيَاءُ اللَّهِ يَعْلَمُ صِدْقَهُمْ وَحَقَانِيَّتَهُمْ بِتَوْسُطِ إِتْبَاعِهِمْ
لِفَرَائِضِ اللَّهِ وَلِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى.

والمراد من فرائض الله هي تلك الفرائض القطعية والمحكمة غير
الظنية والثابتة في أصل الدين وفي كل الشرائع والتي تعد من تشريعات
الله مباشرة، كأصل وجوب الصلاة وأصل وجوب الزكاة وأصل
وجوب الصوم وأصل وجوب الحج والجهاد والأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر وتحريم الزنا والكذب والخيانة والسرقه وحسن
مكارم الأخلاق، من دون الدخول في التفاصيل فأصل هذه الواجبات
والمحرمات من تشريع الله وداخلة في أصل الدين لا في الشرائع
المتغيرة وليست من الأمور الظنية، وإنما هي قطعية ولا تختص بنبي من
الأنبياء بل تعم كل الشرائع، وعليه فإن هذه الفرائض - في أصلها لا في
تفاصيلها - حجيتها وصلاحيتها من حجية وصلاحية ولاية الله وفوق
حجية وصلاحية الأنبياء والأوصياء، فلا يستطيع أن يأتي نبي ويدعي
رفع وجوب الصلاة أو الصوم أو الزكاة أو الجهاد - على خلاف ما

ينسب زوراً مِنْ قَبْلِ النصارى إِلَى عيسى بن مريم عليه السلام مِنْ رَفْعِهِ لَوْجُوبِ الجهاد - وَلَا باقِيَ الفرائض وَلَا تحليل الزنا وَلَا الكذب والسرقة والخيانة، فَهَذِهِ كُلُّهَا مِنْ الدِّينِ وَلَيْسَتْ مِنْ سُنَنِ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى يُمْكِنَ نَسْخُهَا.

فالحجية عَلَى مراتب وَعَلَى سلسلة ومطلوبة ككل وكمجموعة واحدة، فمبدأ الحجج هُوَ أدراكنا العقلي البديهي الأولي الفطري كَمَا فِي بيانات النصوص الشرعية بمعنى إِذَا ثبت أمر عقلاً بالبداهة والفطرة فَإِنَّ دِينَ اللَّهِ وَفرائض اللَّهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَخَطَّاهُ وَتُخَالَفَهُ، لِأَنَّ تَعَامُلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ خَلْقِهِ بِتَوَسُّطِ الْعَقْلِ الَّذِي فَطَرَهُمْ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ الْعَقْلُ الْفَطْرِيُّ هُوَ الَّذِي يُوصلنا ويرشدنا ويهتدنا إِلَى اللَّهِ فَكَيْفَ يُمْكِنُ لِلْبَارِي وَلِلدِّينِ أَنْ يَتَخَطَّى وَيُخَالَفَ مَا يُوصل إِلَيْهِ، وَلَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ حُجِّيَةَ الْعَقْلِ فَوْقَ حُجِّيَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُجِّيَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ بِمَعْنَى أَنَّ الْعَقْلَ بِبِدْيَاتِهِ وَفَطْرِيَاتِهِ هُوَ الْمَبْدَأُ الْمَعْرُوفَ وَالْمُرْشِدَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالَّذِي لَا يَدْرِكُ وَلَا يَصَابُ مِنْ دِينَ اللَّهِ بِالْعُقُولِ لَيْسَ هُوَ أَصْلُ الدِّينِ وَإِنَّمَا هُوَ تَفَاصِيلُ الدِّينِ، أَمَّا أَصْلُ مَعْرِفَةِ الدِّينِ فَهِيَ بِالْعُقُولِ؛ وَلِذَا وَرَدَ فِي الْكَافِي عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «إِنَّ أَوَّلَ الْأُمُورِ وَمَبْدَأُهَا وَقُوَّتُهَا وَعِمَارَتُهَا الَّتِي لَا يَتَنَفَعُ بِشَيْءٍ إِلَّا بِهِ الْعَقْلُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ زِينَةً لَخَلْقِهِ وَنُوراً لَهُمْ فَبِالْعَقْلِ عَرَفَ الْعِبَادُ خَالِقَهُمْ... الْحَدِيثُ»^(١) إِلَّا أَنْ الْعَقْلَ

حيث أنه محدود ولا يدرك التفاصيل علم أنه يحتاج الى العلم، والعلم إنما يأتي من الوحي فاحتاج العقل إلى الوحي ليعرف مواطن رضا الله من سخطه.

والحجج في الوحي ايضاً على مراتب وعلى رأسها فرائض الله تعالى التي لا يمكن أن تتخطاها أي حجة، فكيف يأتي مدح من الأدياء باسم الارتباط الغيبي بالمعصومين عليهم السلام وباسم السفارة الخاصة لهم، ويحاول أن يتجاوز ويتخطى كل بديهيات العقل وفرائض الله، كيف وأن الله تعالى قد استدل على ألوهيته بالعقل ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ^(١) وإذا كان الميزان لمعرفة الله تعالى هو العقل فكيف يمكن أن يفرط بهذا الميزان العظيم؟

وكذلك فرائض الله وسلسلة من المحكمات التي لا يمكن لأحد أن ينكرها فتوحيد الله وعدله وكمالاته ومعبوديته وكمال الخضوع له لا يمكن أن ينكرها أحد، ولا يمكن لنبي من الأنبياء مهما بلغت حجته وعلو شأنه أن يأتي ويقول لا توحيدوا الله، وإلا بانته عدم نبوته ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ^(٢).

فلا يمكن لنبي أن يتنكر لهذه المحكمات وفرائض الله وإن لم تعلم

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧٩.

عَنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ بَلْ عَنْ طَرِيقِ النُّقْلِ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُثَبِّتْ بِنَصِّ نَبِيِّ وَاحِدٍ بَلْ تَوَاتَرَتْ بِهِ رِسَالُ اللَّهِ وَأَنْبِيَآؤُهُ، فَدِينُ اللَّهِ وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ وَالَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ الْعُقَائِدِ وَأَرْكَانِ الشَّرِيعَةِ وَالَّذِي لَا يَعْتَرِيهِ النُّسْخُ وَالتَّبْدِيلُ لَا يُمْكِنُ لِنَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يَتَخَطَّاهُ وَيُخَالِفَهُ، لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الْمُحْكَمَةَ قَدْ أَخْبَرَ بِهَا كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ وَهُمْ قَدْ صَدَّقُوا عَلَى اللَّهِ وَقَالُوا هَذَا مِنْ دِينِ اللَّهِ وَكَيْسَ مِنَ الشَّرِيعَةِ، وَمَنْ أَوْامَرَ اللَّهُ وَكَيْسَ مِنْ سُنَنِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ فَرَّضَ اللَّهُ الَّتِي لَا تَخْتَلِفُ وَلَا تَتَخَلَفُ، فَلَا يُمْكِنُ لِنَبِيِّ أَنْ يَأْتِيَ وَيُخَالِفَ تِلْكَ الْفَرَائِضَ الْمُحْكَمَةَ.

والعلم بنبوة النبي إنما هو بالعلم بطاعته لله تعالى، ومعرفة دين الله لا يمكن أن يتيم بحجة واحدة فقط بل بمجموع الحجج، فطبيعة الحجج هي طبيعة مجموعة منظومية وأكبر تفريط بالحجج كما حصل لدى الخوارج وأشباههم هو التفريط بهذه المجموعة، فالحجج مترابطة منتظمة غير مبعثرة، وهذا ما يصرح به القرآن ويذم أقواماً على مخالفته ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾^(١) فلا يمكن الأخذ بحجة منفصلاً عن بقية الحجج، وهذه قاعدة مهمة في باب الحجج وإن لم تبلور بهذه الصياغة في علم الأصول، ولكن هذا هو واقع الحجج فكل حجة وإن كان لها نحو من الاستقلال ولكن لا يمكن أن تتجزأ وتنفصل عن بقية الحجج، وإن تلاعب أدعياء الدجل

يتحقق بترك هذا الميزان المهم في الحجج.

فَهُنَاكَ مجموعة من فرائض الله ومحكماته هي فوق صلاحية وحجية الأنبياء ولو أراد مدعي النبوة أن ينكرها ثبت وعرف كذبه، لأنه لَيْسَ مِنْ صلاحية النَّبِيِّ أَنْ يتجاوز فرائض الله، وكذلك صلاحيات الأئمة والأوصياء لا يمكن أن تتجاوز قطعيات سنن النَّبِيِّ ﷺ فضلاً عَنْ فرائض الله وبديهيات العقل لِأَنَّ ولايتهم هي دون ولاية رسول الله ﷺ وَكَمَا يقول الإمام الرضا عليه السلام: «لأننا لا نرخص فيما لم يرخص فيه رسول الله ﷺ، ولا نأمر بخلاف ما أمر رسول الله ﷺ، إِلَّا لعلَّة خوف ضرورة، فَأَمَّا أَنْ نستحل ما حرم رسول الله ﷺ أو نحرم ما استحل رسول الله ﷺ فلا يكون ذَلِكَ أبداً، لأننا تابعون لرسول الله ﷺ مسلمون لَهُ كَمَا كَانَ رسول الله ﷺ تابعاً لأمر ربه عَزَّ وَجَلَّ مسلماً له»^(١). فالمدار والمحور والميزان هي بديهيات العقل ومحكمات الكتاب والسنة أي القطعيات، لا ظنيات العقل ولا متشابهات الكتاب والسنة فهِيَ ليست المدار الاساسي للمعرفة الدينية، بَلْ الأساس عَلَى محكمات العقل والكتاب والسنة والمراد مِنْ القطع هُنَا هُوَ القطع البديهي لا النظري الذي هُوَ قطعُ صورةٍ وظنٍّ واقِعاً وحقيقةً، وَمِنْ ثَمَّ تكون هذه المحكمات سوراً وحصناً عَنْ أيِّ تلاعب في المعرفة فلا يمكن لأي حجة أن تتخطى تلك المحكمات.

ولذا نلاحظ موسى عليه السلام كيف يعترض على الخضر عليه السلام فهب أن الخضر هو من وصفه القرآن ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾^(١) ولكن لا يعني ذلك أن يحل له أن تخطي وتجاوز فرائض الله تعالى، بل على رغم ما عليه من الحجية ورغم إتباع موسى له ولكن تبقى الثوابت ثابتة، فما قام به موسى هو في عين الصواب والصحة وهذا يعبر عن ملحمة عظيمة في المعرفة الدينية.

وفي المقابل لا نجد الخضر يعترض على هذه الثوابت ولم يقل إنني فوق المحكمات والثوابت بل هو دونها ولكن سيئين فيما بعد كيفية انسجام فعله مع تلك الثوابت، فلم يصطدم الخضر مع الكبرى ومع القاعدة الكبرى، ولم يخالف حرمة قتل البريء ولا حرمة إتلاف أموال الناس ولكن ناقشه في الصغرى. وبين له أن تلك الصغريات ليست مصاديق لتلك الكبريات، فلم يدع الخضر حجة فوق حجة تلك الأحكام وإنما بين من خلال أجوبته كيفية انصياعه لتلك الأحكام وإن تلك الموارد غير داخلة صغرياً تحتها.

وكذلك باقي المعصومين عليهم السلام حينما كانوا يحاجون أعداءهم إنما كان يحتجون عليهم بتلك الكبريات وتلك الثوابت والأحكام، وأنه لماذا خرجتم عن تلك الكبريات المسلمة ولم تنصاعوا إليها، فيدينونهم من باب مخالفتهم للثوابت الشرعية، وهذا أمر مشهود في حجاجهم

عتاب الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام..... ٢٤٩
مَعَ الْخِصْمِ؛ وَلِذَا تَقُولُ الزَّهْرَاءُ عَلَيْهَا السَّلَامُ لِأَبِي بَكْرٍ «أَمْ هَلْ تَقُولُونَ إِنَّ أَهْلَ
مِلَّتَيْنِ لَا نَتَوَارَثُ أَوْلَسْتُ أَنَا وَأَبِي مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ»^(١) وَحَاجَجَ سَيِّدَ
الشَّهَدَاءِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قَتَلْتَهُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ «وَيُحَكِّمُ تَطْلُبُونِي بِقَتِيلٍ مِنْكُمْ قَتَلْتَهُ أَوْ
مَالٍ لَكُمْ اسْتَهْلَكْتَهُ أَوْ بِقِصَاصٍ جِرَاحَةٍ»^(٢) مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ثَوَابِتَ دِينِ
اللَّهِ تَعَالَى فَوْقَ حُجِّيَّةِ الزَّهْرَاءِ وَالْحُسَيْنِ وَالْأَئِمَّةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَأَنَّ أَوْلَى النَّاسِ
بِالْإِنْقِيَادِ إِلَى تِلْكَ الْحُجَجِ.

ونجد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ حين عاتبته الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ يجيبها «فما ونيت
عن ديني ولا أخطأت مقدوري» وهذه قمة العبودية أن ينقاد للفرائض
والحجج فهو لا يتجبر على فرائض الله ولا سنن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يخرج
عَنْ أَدَاءِ التَّكْلِيفِ الشَّرْعِيِّ وَلَكِنِ الصَّغْرَى تَخْتَلِفُ. وَأَيْنَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ
يُنْقَادُونَ لِلْمَحْكَمَاتِ وَلِلثَوَابِتِ وَلَا يَتَخَطُونَهَا وَأَيْنَ سُلَاطِينَ الْجُورِ
الَّذِينَ يَرِيدُونَ أَنْ يَقْفِزُوا عَلَى الثَّوَابِتِ وَالْمَحْكَمَاتِ فَيَدْعِي أَنَّهُ ظَلَّ اللَّهَ
فِي الْأَرْضِ وَلَوْ أَمَرَ النَّاسُ بِمَا أَمَرَ بِهِ لَوْجِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَلَوْ كَانَ
أَمْرُهُ مَعْصِيَةَ اللَّهِ، فَيَقْفِزُ وَيَتَطَاوَلُ وَيَتَجَاسَرُ عَلَى كُلِّ تِلْكَ الْأَحْكَامِ
وَالثَّوَابِتِ حَتَّى يَصِلَ التَّجْبَرُ إِلَى أَنْ يُنْصَبَ السُّلْطَانُ الْأُمَوِيُّ الْقُرْآنَ
هَدَفًا لِلسَّهَامِ وَيَمْزِقُهُ بِهَا.

فستان بين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي يبين للزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ أنه منقاد للفرائض

(١) الاحتجاج: ج ١، ص ١٣٨ ع.

(٢) الإرشاد: ج ٢ ص ٩٨.

ومسلم لها، وبين أبي بكر الذي يتسلق ويقفز على الفرائض بتزوير الحديث على رسول الله ﷺ «إن ما تركناه صدقة» فلا ينصاع لأوامر الله ولفرائضه بل يلتوي عليها بخلاف أولياء الله الذين هم في قمة التسليم والانقياد لها؛ ولذا لم يأب الخضر أو علي عليه السلام ويأنف عن فريضة الله وإنما أجاب بانقياده لها وأن الصغريات تندرج في مواد أخرى.

وهذه هي علامة المحق من المبطل، فالمحق منقاد لمراتب الحجج وللمنظومة الكاملة فلا يعترض ولا يستتكف إذا ساءلته، وهذا معنى الخضوع والعبودية لله تعالى، بينما المبطل يحاول أن يتكبر ويفرض لنفسه مقاماً وموقفاً فوق الفرائض والمحكمات.

القاعدة العاشرة:

شبهت كون العصمة من الصفات الإلهية

(بحث في دور وسائط الفيض في الفعل الإلهي)

هُنَاكَ اعْتِرَاضٌ قَدِيمٌ رُبَّمَا اسْتَوْحِي أَصْلَهُ مِنَ النِّصَارِيِّ وَهُوَ أَنَّ
الِاتِّزَامَ بِالْعِصْمَةِ الْمُطْلَقَةِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَصْفِيَاءِ يَرْجِعُ إِلَى دَعْوَى
الْأَلُوْهِيَّةِ، لِأَنَّ الْعِصْمَةَ الْمُطْلَقَةَ صِفَةٌ إِلَهِيَّةٌ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَّصِفَ بِهَا
الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ وَالْأَئِمَّةُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِلَّا لَلَزِمَ تَأْلِيهِمْ أَوْ الْإِاتِّزَامَ بِنَظَرِيَّةِ
حُلُولِ اللَّاهُوتِ فِي النَّاسُوتِ - كَمَا هُوَ مُصْطَلَحٌ عِلْمُ الْكَلَامِ الْمَسِيحِيِّ -
وَالْمُرَادُ مِنَ اللَّاهُوتِ هُوَ عَالَمُ الْأَلُوْهِيَّةِ وَالنَّاسُوتِ عَالَمُ الْبَشَرِ، وَالِاتِّزَامُ
بِالْعِصْمَةِ فِي النَّاسُوتِ لَا يَكُونُ - حَسَبَ زَعْمِ النِّصَارِيِّ - إِلَّا مِنْ خِلَالِ
حُلُولِ اللَّاهُوتِ فِي النَّاسُوتِ، كَمَا هُوَ عَقِيدَةُ النِّصَارِيِّ فِي الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَلِذَا يَلْتَزِمُ الْيَهُودَ وَالنِّصَارِيِّ كَمَا فِي الْإِنْجِيلِ وَالتَّوْرَةِ أَنَّ كُلَّ
الْأَنْبِيَاءِ قَدْ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَتَمَرَّدُوا عَلَيْهِ فِي الْجُمْلَةِ وَعَلَى
أَمْرِهِ، فَرَأَى اللَّاهُوتُ أَنَّ الْبَشَرَ (النَّاسُوتِ) لَا يَفُونَ بِالْعَهْدِ وَلِذَا
تَطَلَّبَ الْأَمْرَ أَنْ يَأْتِيَ بِنَفْسِهِ إِلَى الْمِيدَانِ؛ فَتَلَبَّسَ وَتَمَثَّلَ اللَّاهُوتُ بِلِبَاسِ
وَثُوبِ النَّاسُوتِ فَصَارَ الثَّلَاثُ وَالْأَقَانِيمُ الثَّلَاثَةُ.

ومن يتبنى هذه الفكرة الحشوية والسلفية القدامى وجملة من المحدثين حيث ذهبوا إلى أن الالتزام بالعصمة المطلقة فكرة نصرانية لأنَّ العصمة من اللاهوت وصفة إلهية والالتزام بها في بشر تعني تأليهه.

وهذا البحث جارٍ حتّى في غير العصمة من بقيّة الصفات الإلهية، كعلم الغيب فإذا نسبنا علم الغيب إلى الأنبياء والأئمة عليهم السلام فهل يعني هذا مضاهاتهم للألوهية أو تأليههم أو القول بحلول اللاهوت في الناسوت؟ وكذلك قدرة الأصفياء على بعض الأفعال التكوينية، فهل الالتزام بهذه الأمور يعد تأليهاً لهم؟ ومن ثمّ استدلت النصارى على تأليه عيسى بن مريم عليه السلام بأنه يخلق فالحلق من صفات الله تعالى وإذا اتّصف عيسى به فهذا يعني تأليهه.

فهل الالتزام بثبوت هذه الصفات في الأصفياء يعني حلول اللاهوت في الناسوت أو إثبات صفة الألوهية لهم.

نسبة الصفات الإلهية إلى وسائط الفيض في القرآن

والقرآن الكريم والسنة الشريفة تثبتان العديد من هذه الصفات للأنبياء والأصفياء عليهم السلام.

١ و ٢- الخلق ونفخ الروح:

نظير نسبة الخلق إلى عيسى بن مريم عليه السلام وَإِذْ نَخَلُّقُ مِنْ الطِّينِ

كَهَيْتِهِ الطَّيْرُ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴿١﴾ والمنسوب إلى عيسى لَيْسَ فَقَطْ خَلَقَ هَيْئَةَ الطَّيْرِ مِنَ الطِّينِ وَإِنَّمَا نَفَخَ الرُّوحَ وَالْمَرَادُ مِنْهُ هُوَ إِجْبَادُ الرُّوحِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ ﴿٢﴾ فنفخ الروح في البدن هو إيجاد الروح فيها.

وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ غَيْرَ اللَّهِ لَا يَكُونُ فَاعِلًا إِلَّا بِقُدْرَةِ اللَّهِ، فَغَيْرُ اللَّهِ إِذَا كَانَ فَاعِلًا فَسَيَكُونُ فَاعِلًا بِمَعْنَى (مَا بِهِ الْوُجُودُ)، أَمَّا الْفَاعِلُ بِمَعْنَى (مَا مِنْهُ الْوُجُودُ حَقِيقَةً) فَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَالْفَاعِلُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ الَّذِي يَكُونُ مِنْهُ الْوُجُودُ، وَأَمَّا الْبَاقِي أَيُّ مَا بِهِ الْوُجُودُ فَهِيَ عِلَلٌ مُتَوَسِّطَةٌ وَوَسَائِطٌ فِي الْفَيْضِ؛ وَلِذَا عَبَّرَتْ الْآيَةُ «بِإِذْنِ اللَّهِ».

وإن إطلاق الخلق في القرآن على نحوين الخلق بالمعنى الأخص والمراد منه التشكيل من المادة. والخلق بالمعنى الأعم والمراد منه مطلق الإيجاد لا خصوص التشكيل من المادة.

فَمِنْ الْأَوَّلِ (بِالْمَعْنَى الْأَخْصِ) مَا مَرَّ فِي الْآيَةِ ﴿تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣﴾، فَإِنَّ الْخَلْقَ هُنَا مُقَابِلُ الْأَمْرِ وَالْمَرَادُ مِنَ الْأَمْرِ هُوَ الْوُجُودُ الْإِبْدَاعِيُّ الْمَجْرَدُ وَيُقَابِلُهُ الْخَلْقُ وَهُوَ التَّشْكِيلُ مِنَ الْمَادَّةِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

(١) سورة المائدة: الآية ١١٠.

(٢) سورة الحجر: الآية ٢٩.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٥٤.

﴿وَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾^(١)
الآية.

فَهُنَا اسْتَعْمَلَ الْخَلْقَ بِمَعْنَى التَّشَكُّلَاتِ فِي الْمَادَّةِ، وَهَذَا هُوَ الْخَلْقُ
بِالْمَعْنَى الْأَخْصِ، أَمَّا الْخَلْقُ بِالْمَعْنَى الْأَعْمِ فَهُوَ مَطْلُوقٌ لِإِجَادِ اللَّهِ تَعَالَى،
﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾^(٢)، ﴿قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(٣).

فَالْخَلْقُ بِالْمَعْنَى الْأَخْصِ يَعْنِي تَكَامُلَ الْأَطْوَارِ فِي الْمَادَّةِ كَمَا فِي آيَةِ
خَلْقِ الْإِنْسَانِ الْمَتَقَدِّمَةِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ فِيهَا الْقُرْآنُ عَنْ خَلْقِ طُورٍ بَعْدَ طُورٍ
وَخَلْقِ بَعْدَ خَلْقٍ، وَكَثِيرًا مَا يَسْتَعْمَلُ الْخَلْقَ بِمَعْنَى الْأَطْوَارِ النُّوعِيَّةِ
وَهُوَ نَفْسُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْإِكْمَالِ وَالْإِتْمَامِ، فَالْإِتْمَامُ لَيْسَ تَكَامُلَ طُورٍ إِلَى
طُورٍ وَإِنَّمَا هُوَ ضَمُّ الْأَشْيَاءِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، أَمَّا الْإِكْمَالُ فَهُوَ خُرُوجُ
مِنْ طُورٍ نَاقِصٍ إِلَى طُورٍ كَامِلٍ وَأَكْمَلُ فَأَكْمَلُ.

وَعَلَىٰ كُلِّ حَالٍ فَإِنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَخْلُقْ مِنَ الطِّينِ هَيْئَةَ الطَّيْرِ فَقَطَّ
بَلْ أَوْجَدَ الرُّوحَ وَنَفَخَهُ وَمِنْ هُنَا قَالَتِ النَّصَارَى: إِنَّ هَذِهِ صِفَةُ إِلَهِيَّةِ
وَحُلُولِ اللَّاهُوتِ فِي النَّاسُوتِ.

وَقَدْ تَأَثَّرَ الْعَدِيدُ مِنْ مُتَكَلِّمِي سَائِرِ الْمَذَاهِبِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْأُخْرَى

(١) سورة الحج: الآية ٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٠٢.

(٣) سورة الرعد: الآية ١٦.

عَيرَ مذهب أهل البيت عليهم السلام بهذا المنهج وتلك الإثارات وَمِنْ ثَمَّ استصعبوا تفسير هذه الآيات القرآنية؛ ولذا حاول البعض أن يحصر فعل عيسى عليه السلام بمجرد تشكيل هيئة الطير.

وحيثما واجه نفخ الروح فسره بمجرد نفخ للهواء مِنْ فمه إلى تلك القطعة مِنْ الطين، وحاول بذلك تجريد هذه القضية من كُلِّ تلك الصفات الَّتِي توهم بها التأليه. ولكن هذه التفسيرات ساذجة وسقيمة لِأَنَّ المراد مِنْ الخلق كَمَا تَقَدَّمَ لَيْسَ مجرد تركيب بسيط بَلْ هُوَ التطوُّر النوعي، وأمَّا نفخ الروح فَمِنْ الواضح أَنَّهُ إيجاد الروح في البدن لقوله تَعَالَى ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وَمِنْ ثَمَّ تلكأ بعضهم في الجواب وقدم وأخر بلا جدوى.

٣ - الإمامة:

ولا يقتصر الأمر على الخلق والنفخ بَلْ هُنَاكَ العديد مِنْ الصفات محل البحث الَّتِي نسبت إلى عَيرَ الله تَعَالَى، كالإمامة، فالمميت مِنْ صفات الله تَعَالَى، ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾^(١) وَمَعَ ذَلِكَ أسند الموت إلى عزرائيل عليه السلام ﴿قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾^(٢) فالإمامة مَعَ أنها فعل إلهي أسندت بصريح القرآن إلى ملك الموت الذي لَيْسَ موكلًا بقبض أرواح البشر فَقَطْ بَلْ بقبض أرواح

(١) سورة الزمر: الآية ٤٢.

(٢) سورة السجدة: الآية ١١.

الملائكة والجن والحيوانات، بل حتّى النباتات لأنها ذات روح نباتية.

فَهَلْ إِسْنَادُ الْإِمَامَةِ مَعَ أَنَّهَا فَعَلَ إِلَهِي إِلَى عِزْرَائِيلَ تَأْلِيهِ لَهُ؟ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ تَأْلِيهَا فِي مَلِكِ الْمَوْتِ فَهُوَ لَيْسَ تَأْلِيهَا فِي غَيْرِهِ، وَإِذَا كَانَ تَأْلِيهَا فِي غَيْرِهِ فَهُوَ تَأْلِيهِ فِي مَلِكِ الْمَوْتِ، لِأَنَّ الضَّابِطَةَ الْعَقْلِيَّةَ لَا تَخْتَلِفُ وَلَا تَتَخَلَفُ بِلَا فَرْقٍ بَيْنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ؛ وَكَذَلِكَ الْإِحْيَاءُ وَنَفْخُ الرُّوحِ فَهُوَ لَيْسَ فِي عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَطُّ بَلْ إِسْرَافِيلَ النَّافِخَ فِي الصُّورِ، فَإِذَا كَانَ إِسْنَادُ نَفْخِ الرُّوحِ إِلَى أَحَدٍ تَأْلِيهَا لِأَنَّهُ فَعَلَ إِلَهِي فَهُوَ تَأْلِيهِ فِي الْجَمِيعِ سِوَاءٍ لِلْإِنْسِ أَوْ الْمَلَائِكَةِ، وَلَا يَقْتَضِي ذَلِكَ تَأْلِيَهُ إِسْرَافِيلَ لَا عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ فَقَطُّ، وَمِنْ الْعَجِيبِ أَنَّ الْمَدَارِسَ الْكَلَامِيَّةَ الْأُخْرَى لَا تَتَحَسَّسُ مِنْ إِسْنَادِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ وَلَا تَعْتَبِرُهُ تَأْلِيهَا وَلَا غُلُوءًا وَأَمَّا إِذَا نَسَبَتْ وَأُسْنَدَتْ إِلَى الْإِنْسِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْ الْأَصْفِيَاءِ عَدُوَّهُ غُلُوءًا وَتَأْلِيهَا لَهُمْ وَالْحَالُ أَنَّ الْقَاعِدَةَ الْعَقْلِيَّةَ وَاحِدَةً فِي الْجَمِيعِ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَغَيَّرَ.

وَإِذَا كَانَ إِسْنَادُ هَذِهِ الْأَفْعَالِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ لِأَنَّهُ حُلُولُ اللَّاهُوتِ فِي النَّاسُوتِ أَوْ التَّأْلِيهِ فَهَذَا يُلْزَمُ أَيْضًا فِي الْمَلَائِكَةِ.

وَلِذَا ذَهَبَتْ عِدَّةٌ مِنَ الْمَدَارِسِ الْكَلَامِيَّةِ فِي ظَلِّ هَذَا التَّخْبِطِ إِلَى حَصْرِ الْعَصْمَةِ بِخُصُوصِ التَّبْلِيغِ وَحَتَّى فِي التَّبْلِيغِ لَا يَلْتَزِمُونَ بَعْصِمَةَ كَامِلَةً بَلْ هِيَ نَسَبِيَّةٌ بِمَعْنَى أَنَّ النَّبِيَّ مُسَدَّدٌ يَسْتَدْرِكُ الْبَارِيَّ عَلَيْهِ فِي مَوَارِدِ الْخَطَأِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - .

٤ - الرزق:

ولا يقتصر الأمر في القرآن على هذه الأمور فميكائيل سمي بذلك من باب أن المكيال لتقدير الأرزاق فالرزق فعل إلهي ومع ذلك أسند إلى ملك مقرب.

٥ - الجبروت:

وجبرائيل أخذ من الجبر والجبروت والجبروت له معنيان أحدهما بمعنى الغضب والقدرة؛ ولذا كان جبرائيل مظهراً للبطش والجبروت الإلهي فهو الذي دمر قري قوم لوط بطرف جناحه والعديد من الأقوام التي عذبها الله كان عذابها من قبل جبرائيل عليه السلام، والمعنى الثاني للجبروت هو جبر النقص بالكمال لأنه يمد الأنبياء والأصفياء بالعلم والوحي، وغير ذلك من موارد جبر الكائنات المخلوقة.

٦ - تقدير الأمور:

وهناك العديد من الآيات التي تتحدث عن الملائكة الذين يقومون بتدبير الأمر ونحوها من الأفعال التي تسند إلى الله تعالى أساساً، ﴿وَالنَّزْعَتِ غَرَقًا وَالنَّشِطَتِ دَشْطًا وَالسَّيْحَتِ سَبْحًا فَالسَّيْقَتِ سَبْقًا فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا﴾ (١).

٧ - قول كلام الله والوحي:

وفي جبرائيل نرى في القرآن أن كلام الله يسند إلى جبرائيل كما في سورة التكوير ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾^(١)، وفي سورة الحاقة ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا يَقُولُ كَإِهْنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، والمراد هنا هو النزول الثاني للقرآن لا النزول الأول الدفعي له والنزول الثاني هو النزول المتفرق التدريجي وهنا أسند الكلام إلى قول جبرائيل مع أنه كلام الله جزماً، وإذا دققنا النظر وجدنا أن العديد من الأفعال الإلهية ينسبها القرآن في غالب الموارد إلى (وسائط الفيض) ملائكة كانوا أم غير ملائكة، ومن الغريب كما تقدّم أن النصارى واليهود وسائر المذاهب الإسلامية لا يتحسسون من نسبة هذه الأفعال إلى الملائكة، أمّا إذا نسبت إلى غير الملائكة فإنّ الموقف سيختلف فيحكم إمّا بالتأليه أو الغلو أو حلول اللاهوت في الناسوت.

وإذا كان في اتصاف غير الملائكة بهذه الأفعال وبالصفات المشتقة منها محذوراً، فالمحذور موجود في الملائكة أيضاً.

(١) سورة التكوير: الآية ١٩ - ٢٥.

(٢) سورة الحاقة: الآية ٤٠ - ٤٣.

الفرق بين إسناد الأفعال الإلهية إلى الله

وبين إسنادها إلى وسائط الفيض:

إِنَّ مِنَ الْأَدَبِ الْإِلَهِيِّ أَنْ لَا تَسْنَدَ هَذِهِ الصِّفَاتُ وَلَا تَنْسَبَ هَذِهِ الْأَفْعَالُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ مِنْ وَسَائِطِ الْفَيْضِ بِشَكْلِ مُطْلَقٍ بَلْ تَقِيدُ بِ (إِذْنِ اللَّهِ) وَلِذَا يُقَالُ أَنَّ عِزْرَائِيلَ يَمِيتُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنَّ إِسْرَافِيلَ يَحْيِي بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَا يُقَالُ أَنَّهُ حَيٌّ أَوْ مَمِيتٌ بِشَكْلِ مُطْلَقٍ، وَكَذَلِكَ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عليه السلام أَحْيَى وَخَلَقَ وَأَبْرَأَ وَنَفَخَ كُلُّ ذَلِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَا تَسْنَدُ إِلَيْهِ تِلْكَ الْأَفْعَالُ بِشَكْلِ مُطْلَقٍ.

وَكَدَّرَ فِي الْبَحْثِ السَّابِقَةِ أَنَّ الْأَدَبَ فِي بَابِ الْمَعَارِفِ لَيْسَ مَجْرَدٌ مَجَامِلَاتٍ تَشْرِيفِيَّةٍ وَإِنَّمَا يَنْمُ وَيَحْكِي عَنْ حَقَائِقِ خَلْفِهِ، وَبَيَّنَّ الْمَقَامَاتِ وَالدرجات الواقعية، فهذا الأدب في استعمال الصفات أو إسناد الأفعال إلى غير الله تعالى يكشف عن حقيقة تكوينية وهي أن إمامة عزرائيل - مثلاً - للخلائق ليست من قدرته الذاتية، وإنما بإقدار من الله تعالى. وإن إحياء عيسى عليه السلام وخلقه للطير ليس إلا بقدره من الله تعالى. فقيد «بإذني» في آية معاجز عيسى عليه السلام ليس مجرد أدب وإنما يبين حقيقة النافع والخالق والمحيي والمبرئ وأنه هو الله تعالى أما الوسائط في الفيض (عيسى وعزرائيل وإسرافيل وغيرهم) فهم يارسون الفعل ويسند إليهم ولكنها ممارسة وإسناد مقيد بإذن الله تعالى وبنمط يجري الله الفعل على أيديهم، أما الإسناد المطلق فإنما هو لله تعالى فقط، ولا

يسبب حينئذ هذا الإسناد إلى وسائط الفيض تأليهاً ولا غلواً ولا التزاماً بحلول اللاهوت في الناسوت، ولا استقلالاً لهم من الله تعالى .

أما النهي الشرعي الوارد في النصوص عن إسناد بعض الصفات إلى غير الله تعالى كصفة الخلق والرزق والإحياء، فهو منصب على الإسناد المطلق ولئلا يتوهم ضعفة العقول من الإسناد المقيد أنه عين المطلق، أو أنه ندّ وكفو له، وقد اختصت الأفعال العظيمة بهذا النهي مع أن كل فعل يفعله المخلوق سواء كان عظيمًا كالخلق والرزق والإماتة والإحياء أو بسيطاً كحركة يده ورجله لا يمكن أن يكون باستقلال عن الله تعالى وإنما تدخل كل هذه الأفعال عظيمها وحقيرها في قاعدة «لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين»، ولكن الخطورة في تلك الصفات والأفعال العظيمة في أنها مظنة أو مدعاة لتخيّل تأليه من تسند إليه أو توهم الاستقلال في فاعلها سيما مع كثرة الاستعمال.

وَمِنْ ثَمَّ كَانَ مِنَ الْأَدَبِ اللَّازِمِ بِمَقْتَضَى الْحَقِيقَةِ فِي بَابِ الْمَعَارِفِ وَالْعَقَائِدِ هُوَ تَقْيِيدُ إِسْنَادِ تِلْكَ الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ بِ(إِذْنِ اللَّهِ) كَمَا يَشَاهِدُ فِي مَوَارِدٍ عَدِيدَةٍ فِي الْقُرْآنِ حَيْثُ يَسْنَدُ ذَلِكَ الْفِعْلَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿قُلْ يَتُوبُ فَعَلِكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾^(١)، فَإِنَّ الْمُرَادَ مِنَ التَّوَكُّيلِ هُنَا أَنَّ الْفِعْلَ يَقَعُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾^(٢)، وَإِضَافَةَ الرَّسْلِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

(١) سورة السجدة: الآية ١١ .

(٢) سورة الأنعام: ٦١ .

واضح في إسناد الفعل إليه تعالى وأنَّ الفعل إنَّما وقع بإذنه تَعَالَى.

فمصعب النهي الوارد إمَّا هُوَ عَلَى الإسناد المطلق إلى الوسائط، وإمَّا عَلَى الإكثار والتكرار وإن كَانَ الإكثار بتقييد، لأنه يوهم الإطلاق وبالتالي يوقع الإنسان في توهم استقلال الوسائط في أداء تلك الأفعال مما يربِّي في الأذهان وَهْمًا عَلَى خلاف الواقع.

وإِلَّا فأصل الإسناد المقيّد إلى غَيْرِ الله تَعَالَى فَغَيْرِ فكثير في الآيات فضلا عن الروايات، وَقَدْ تَقَدَّمَ بعضها ونقرأ في دعاء السمات «وبكلمتك الَّتِي خلقت بها السماوات والأرض»^(١) وغيرها من المواضع في هذا الدعاء الشريف ودعاء ليلة عرفة وغيرهما من الأدعية الواردة، فَهُنَا كلمة وجودية مخلوقة هِيَ الَّتِي أصبحت ممرًّا للفيض الإلهي إلى السماوات والأرض، وفي بَعْضِ النصوص أَنَّ الله تَعَالَى أسند خلق السماوات والأرض إلى ملكٍ مِنَ الملائكة العظام، ولكن لا يعني ذَلِكَ وجود قدرة مستقلة لَهُ وَإِنَّمَا كُلُّ فعل أجري على يده فَهُوَ بإذن الله تَعَالَى، أي أوجده الله تعالى من خلاله.

فالوسطاء في الفيض غَيْرِ مستقلين في الفعل وَإِنَّمَا هُمْ موكلون.

والمراد مِنَ الوكالة هُنَا ليست الوكالة العقدية كَمَا في التوافقات العقلائية، وَإِنَّمَا وكالة تكوينية والمراد منها هُوَ (الأمر بين الأمرين لا جبر ولا تفويض)، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الله تَعَالَى أقدر منهم عَلَى الفعل الذي

أقدرهم عَلَيْهِ، نظير أَنَّ الله تَعَالَى أُوكلَ إلينا القدرة عَلَى أفعالنا فَإِنَّ الوكالة هُنَا تعني الأمر بين الأمرين وَهُوَ تَعَالَى أَقدر عَلَى أفعالنا مِنَّا.

أَمَّا التفويض الباطل فَهُوَ أَنَّ يسند الفِعْلَ إلى الواسطة مَعَ قطع النسبة إلى الله تَعَالَى، والنسبة إلى الله تَعَالَى وَإِنْ كانت مرتكزة فِي غالب الأحيان ولكن عدم إظهارها يعطي انطباعاً للنفس بالاستقلال، وكذلك الإطلاق أو الإكثار مِنَ الإسناد ولو مَعَ التقييد يُوهم المحورية والاستقلالية الذاتية للواسطة وَهَذَا خلاف واقع التوحيد وخلاف عبودية وافتقار الواسطة ذاتاً إلى الله تَعَالَى؛ ولذا كَانَ الأدب الإلهي أَنْ لا يكثر أو لا يسند ذَلِكَ مِنْ دون تقييد؛ وقد وَرَدَ النهي عَنْ إسناد الرزق إلى غَيْرِ الله تَعَالَى مَعَ أَنَّ القرآن نفسه أسند الإغناء إلى رسول الله ﷺ، وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿١﴾ ولكن وقع هذا الإسناد فِي موارد قليلة وَغَيْرِ متكررة بكثرة، إِمَّا الإسناد الغالب فَهُوَ إلى الله تَعَالَى ففي مثل «أطيعوا الله» وَرَدَ الأمر بإطاعة الله تَعَالَى أَكثر مما وَرَدَ «أطيعوا الرسول» والأمر بإطاعة الرسول وَرَدَ أَكثر مِنْ الأمر بإطاعة أولي الأمر، وَهَذَا الاختلاف فِي الدرجات ليبيّن افتراق المراتب وَكَيْسَ هذا مجرد أدب مجاملي وَإِنَّمَا حقيقة قرآنية فالإسناد المتكرر بكثرة لا بُدَّ أَنْ يكون إلى الله، وَأما لغير الله فَلا بُدَّ أَنْ يُقَيَّدَ ولا يكثر مِنْهُ، فهذا الأدب يكشف عَنْ الحقائق المعرفية.

هل التوحيد في نفي الواسطة:

ربما يتوهم البعض أننا إذا نسبنا هذه الأفعال إلى الله تعالى مباشرة ونفينا النسبة والإسناد إلى الواسطة، فهذا فيه تعظيم وتنزيه أبلغ لله تعالى والتزام أشد بالتوحيد، أمّا إذا أسندناها إلى الوسائط كعزرائيل وإسرافيل فهذا فيه نوع من الخدش في التوحيد وتقليل من عظمة الله تعالى، وهذا النمط من التفكير هو الطابع العام في العقلية السلفية.

والحال أن هذا توهم فاسد لأن هذه الأفعال مهما كانت عظيمة وضخمة وجوداً ولكنها ملابسة ذاتا وهوية بالمعدّات والمباشرة المادّية والروحية، فالإماتة مثلاً نوع من الارتباط الروحي والجذب الروحي بين المميت والميّت فيزرعها القابض من بدن الميت. والباري تعالى لا يحتاج في أفعاله إلى مباشر وتلاحم وتجاذب فهو منزّه عن كلّ هذه الحثيات الجسمانية والمادّية بل حتّى الروحانية لأنه تعالى ليس بجسم ولا بروح ولا بعقل فالله تعالى لا يشبه بشيء من خلقه.

فهذه الأفعال مع أنها عظيمة ولكن فيها نوع من التشبيه الخلفي والباري تعالى منزّه عن ذلك. فالذي يحتاج إلى المباشر والمباشرة في فعله هو البعيد والغائب وإذا أراد عزرائيل أو رسله أن يقبضوا روح الإنسان لأبد أن يصير عنده أو عندهم محاذاة روحية خاصّة مع روح الميت المعين فيجذبوها، فلعزرائيل غيبة وحضور وقرب وبعُد، ولذا ورد أنّه يمر على أهل كلّ بيت في اليوم خمس مرات، مما يعني أنّه قد

يَحْضُرُ وَقَدْ يَغِيبُ أَمَّا الْبَارِي تَعَالَى فَلَيْسَ لَدَيْهِ هَذَا الْحُضُورُ الْمُتَحَيِّرُ بِالْجُغْرَافِيَا أَوْ الْحُضُورُ التَّعْلِقِي بِالرُّوحِ أَوْ الْاِرْتِبَاطُ النَّفْسَانِي وَالْغَرَائِزِي أَوْ الْغِيْبَةُ الْجُغْرَافِيَّةُ أَوْ التَّعْلِقِيَّةُ الرُّوحِيَّةُ وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنِ كُلِّ شَوَائِبِ خَلْقِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ بَابِ سَلْبِ النِّقْصِ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَى إِثْبَاتِ صِفَاتِ الْجَمَالِ وَالْكَمَالِ لَهُ تَعَالَى.

وكذلك النفخ يحتاج إلى التباشر والمحاذاة الروحية والجسمانية، والذي يحتاج إلى التباشر ليفعل هو البعيد والباري تعالى منزّه عن القرب والبعد والتباشر، فهو مستوٍ بالنسبة إلى كل شيء ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(١) وَمَنْ ثُمَّ يُظْهِرُ الْبَارِي تَعَالَى هَذَا الْفِعْلَ عَلَى يَدِ الْوَاسِطَةِ لِأَنَّ الطَّرْفَ الْآخَرَ لِلْوَاسِطَةِ وَهُوَ الْمَيْتُ - مَثَلًا - يَحْتَاجُ إِلَى التَّبَاشِرِ لِيَسْتَعِدَّ لِهَذَا الْفَيْضِ الْإِلَهِيِّ مِنْ خِلَالِ هَذَا التَّوَسِيطِ، فَالْعَجْزُ فِي الْقَابِلِ وَتَمَامُ قَابِلِيَّتِهِ لِأَخْذِ الْفَيْضِ الْإِلَهِيِّ لَا فِي تَمَامِ فَاعِلِيَّةِ الْفَاعِلِ، وَالْوَسَائِطُ فِي الْفَيْضِ فِي الْحَقِيقَةِ (مَعْدَاتٌ) لَصُدُورِ الْفِعْلِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، وَجِهَةٌ إِعْدَادُهَا هُوَ تَكْمِيلُ قَابِلِيَّةِ الْقَابِلِ لِتَلْقَى الْفَيْضَ، فَإِذَا تَمَّتِ الْقَابِلِيَّةُ أَظْهَرَ اللَّهُ ذَلِكَ الْفِعْلَ وَهُوَ فَعْلٌ صَادِرٌ مِنْ اللَّهِ بِنَحْوِ الْإِبْدَاعِ لَا بِنَحْوِ التَّبَاشِرِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالَى، فَفِي الْأَفْعَالِ الْخَلْقِيَّةِ التَّدْرِيجِيَّةِ حَقِيقَةُ الْفِعْلِ هُوَ الْإِبْدَاعُ، أَمَّا التَّدْرِيجُ فَهُوَ فِي إِعْدَادِ الْمُتَلْقَى وَالْمُسْتَفِيضِ وَإِتْمَامِ قَابِلِيَّتِهِ.

ولا مباشرة في فعل الله تعالى لِأَنَّ الْمُبَاشَرَةَ تعني أَنَّهُ بعيد فاقترَب، أو نحو مَنْ التماس بين البشريتين والباري منزّه عَن أَنْ تكون لَهُ بشرة أو حيز وَأَنْ يكون بعيداً حَتَّى يقترَب فكلُّ شيء حاضر لَهُ ومقهور لَهُ، ومتى ابتعد حَتَّى يباشره وَإِنَّمَا الذي يباشر هُوَ الذي لا يكون مسيطراً فيقترَب كي يسيطر، فلا تقول: الله مباشر بَلْ تقول مهيمن وقهار ومسيطر، فإِسناد الفعل إلى الله تعالى موجود لا بمعنى الْمُبَاشَرَةَ بَلْ بمعنى الإيجاد لتنزّهه عَن الْمُبَاشَرَةَ.

وَمَنْ يتوهم فيربط توحيد الله تَعَالَى بصدور الفعل مِنْهُ مُبَاشَرَةً يقع في ما يخالف التوحيد مِنْ التشبيه بخلقه، والسبب في هذا التوهم والخطأ هُوَ أَنَّهُمْ لَمْ يميزوا بين قابلية القابل وفاعلية الفاعل، فالذي يحتاج إلى الْمُبَاشَرَةَ هُوَ القابل حتى تكتمل قابليته لنزول الفيض عَلَيْهِ، وَلَيْسَ ثمت نقص في فاعلية الله تَعَالَى، ونتيجة لعدم التفكيك بين هذه الأُمُور وَقَعُوا في تلك الأخطاء الفادحة فأرادوا أَنْ ينزهوا الله فشبهوه.

وكذلك الأمر في النفخ، فَإِنَّ النافخ يحتاج إلى تباشر مَعَ المنفوخ فيه فإذا أردت أَنْ تنفخ في أي شيء فَلابدٌ مِنْ مُبَاشَرَةَ مَعَ ذَلِكَ الشيء ومحاذاة لَهُ، فالنفخ بحاجة إلى تباشر مَعَ بدن أو جسم القابل.

بَلْ حَتَّى نزول جبرائيل بالقرآن عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَهُوَ صوت يحتاج إلى سامع فَهُنَاك فاعل وقابل وَمُبَاشَرَةَ، وَمَنْ ثَمَّ ينزه الباري عَن التباشر ولذا احتاجت النفس النبوية النازلة إلى توسط جبرائيل، وهذا في

المراتب النازلة مِنَ الوحي، فالله تَعَالَى كَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ بجبرائيل فِي بَعْضِ أقسام الوحي لا كله، والوحي مِنَ أعظم الأفعال وَمَعَ ذَلِكَ يسند الله هذا الوحي والكلام إلى جبرائيل ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٢﴾﴾^(١) فالرسول الملك يوحى وينسب الوحي إليه، ولكن وحيه بإذن الله وبإقدار مِنْ الله تَعَالَى، فَهُنَاكَ جملة مِنْ المراتب النازلة فِي الوحي تحتاج إلى المباشرة وَالْمُبَاشَرَة تعني العجز فِي القابل وكذلك فِي الفاعل المباشر، أم الباري تعالى فلا يفعل بالمباشرة، وَمِنْ ثَمَّ لا ينسب النقص إليه تَعَالَى.

فوجه ضرورة الوساطة هُوَ إتمام قابلية القابل واستعداده لكي يفاض عَلَيْهِ الكمال مِنْ الله تَعَالَى، وَعَلَيْهِ فالوسائط فِي الفيض كلها معدات والذي يوجد الأفعال هُوَ الله تَعَالَى الذي يوجد على أيدي تلك الوسائط لِأَنَّ هذه الأفعال مادية تخلقية وتحتاج إلى إعداد مادي، أمَّا أفعال الله تَعَالَى فَهِيَ أعظم مِنْ ذَلِكَ وَإِنَّمَا تصدر مِنْهُ إبداعاً، وهذا الإبداع متقرر فِي طَيِّ الفعل المادي.

وصدور هذه الأفعال العظيمة مِنْ الوساطة هُوَ إعداد لصدور الفيض مِنْ الله تَعَالَى إبداعاً وَمِنْ ثَمَّ قالوا أَنَّ فعل الله إيداعي دوماً وَعَلَىٰ نحو كن فيكون ما أن تستم قابلية القابل لتقبل الفعل ﴿إِنَّمَا

أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ ﴿١﴾ ففعله دوماً إبداعي بلا تباشر وتمهل، فالأفعال المادية حيثُ أنها تحتاج إلى إعداد ومباشرة ومحاذاة، احتاجت في إتمام قابليتها إلى الوسائط فالوسائط حقيقة فعلها هو الإعداد أمّا الفعل الحقيقي وهو الفعل الإبداعي فهو منه تعالى، ومن هنا صحّ كلام الحكماء «لا فاعل في الوجود إلا الله تعالى» فالفاعل الحقيقي هو الله تعالى بالنحو الإبداعي وهو الذي (منه الوجود)، أما ما (به الوجود) فهي تلك الوسائط في الفيض التي حقيقة دورها وفعلها الإعداد وإتمام قابلية القابل.

فهذه الأفعال كلها تصدر من الباري إبداعاً ولكن متى تصدر؟ تصدر إذا تمت قابلية القابل. وتمت قابلية القابل بالكلمة التي خلق بها السماوات والكلمة التي خاطب بها إبراهيم والكلمة التي تجلّى بها للجبل والكلمة التي أغرق بها فرعون، فالكلمة هي واسطة الفيض التي تتم قابلية القابل حتى يفيض الله ذلك الكمال على القابل إبداعاً، فالمباشرة فعل عزرائيل لأن عزرائيل فاعل ناقص، بل الألتصق مباشرة هو الألتصق فاعلية وهم أعوان ملك الموت من الملائكة، أمّا الإمامة الحقيقية فلا تتم إلا إبداعاً.

وهذا الخلط الذي وقع لأصحاب العقلية السلفية وأوقعهم في خلاف ما يريدونه فأرادوا توحيد الله تعالى فشبّهوا الله، وأراد البعض أن يهرب من التشبيه فالتزم بالتعطيل، والحال أنه لا تعطيل ولا تشبيه

بَلِّ تَحْمِيدٍ وَتَنْزِيهِهِ وَهَذِهِ مِنْ الْقَوَاعِدِ الَّتِي اقْتَبَسْتَ مِنْ كَلِمَاتِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وفي الختام أيضاً ما ذكر كَانَ تطبيقاً للأمر بين الأمرين ففعل الله إبداعاً، أي لا تشبهه ولا تجعل فعله تَعَالَى تباشرياً وتمازجياً وإعدادياً فلا قصور في الله تَعَالَى حَتَّى يَحْتَاجَ إِلَى إِعْدَادٍ لِفِعْلِهِ، وَإِنَّمَا النِّقْصُ فِي قَابِلِيَةِ الْقَابِلِ الَّذِي لَا يَسْتَعِدُّ لِقَبُولِ ذَلِكَ الْفِعْلِ الْإِبْدَاعِيِّ إِلَّا بِالْوَسَائِطِ الْمَعْدَةِ.

استواء هيمنة الله على كل الأشياء:

مِنْ الْقَوَاعِدِ الْمُهَمَّةِ الَّتِي تَبْحَثُ فِي بَحْثِ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَةِ هِيَ أَنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ مَتَسَاوِيَةٌ وَإِسْنَادُ كُلِّ الْأَفْعَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى (من جهة الله، لا من جهة الأفعال) عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، بِمَعْنَى عَدَمِ كَوْنِ شَيْءٍ أَسْهَلَ وَأَصْعَبَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ وَلَا كَوْنِ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى شَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى شَيْءٍ آخَرَ، فَقُرْبُهُ وَقُدْرَتُهُ عَلَى جَمِيعِ الْأَفْعَالِ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ.

وبذلك فسّر أئمة أهل البيت عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(١) ففي الكافي بإسناده عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ فَقَالَ: (استوى عَلَى كُلِّ

شيء فليس شيء أقرب إليه من شيء»^(١) وفي صحيحة عبدالرحمن بن الحجاج عنه عليه السلام «استوى في كل شيء فليس شيء أقرب إليه من شيء لم يبعد منه بعيد ولم يقرب منه قريب، استوى في كل شيء»^(٢) وفي رواية أخرى عن علي بن محمد عليه السلام: «والأشياء كلها له سواء علماً وقدرَةً وحكماً وإحاطة»^(٣).

والعرش هو مركز القدرة والقدرة منشأها وقوامها الأساس هو العلم فهو ينبوع القدرة. والمراد من استواء الله على العرش هو سيطرته وهيئته المتساوية على كل الأشياء، وهذه من عظمة الباري تعالى فلا يختلف قربه لشيء عن قربه لشيء آخر ولا قدرته على شيء عن قدرته على شيء آخر، وهذا كله بلحاظ صفات الباري وفعله أما من جهة المخلوقات فهي تختلف قريباً وبعداً عن الله سبحانه وتعالى، فبعضهم قريب من الله تعالى وبعضهم بعيد وبعض مقرب وبعض أقرب المقربين، فالدرجات من جهة المخلوقين تختلف ومن جهة الخالق لا تختلف بل هي متساوية الى الجميع؛ ولذا ورد في الخبر أن ملكاً جاء لموسى من السماء، فقال له عليه السلام جئت من عند الله وجاء ملك آخر من تحت الأرض قال جئت من عند الله وهكذا من جاء من الشرق والغرب، ولكن هذا المفاد بلحاظ نسبة الله الى الخلق لا نسبة الخلق الى

(١) الكافي: ج ١، كتاب التوحيد، ص ١٢٧.

(٢) الكافي: ج ١، كتاب التوحيد ص ١٢٨.

(٣) الكافي: ج ١، كتاب التوحيد باب الحركة والأشياء / ح ٤، ص ١٢٦.

الله تعالى ولا يعني قرب الله إليهم وتساوي نسبه عليهم قدرة وعلمها وهيمنة تساوي نسبهم وقربهم الى الله تعالى؛ ولذا تساوي عند الله تعالى خلق نفس و احدة مع خلق ويبعث كل الخلائق ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَّسٍ وَاحِدَةً ﴾ (١).

وَمِنَ السِّدَاجَةِ وَالْبَلَاهَةِ مَا يَتَصَوَّرُهُ الْمَجْسَمَةُ أَنَّ الْأَفْعَالَ الْعَظِيمَةَ لَا بُدَّ أَنْ يَقُومَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا بِيَدَيْهِ أَمَّا الْأُمُورُ الْحَقِيرَةُ فَيُوكَلِّهَا إِلَى غَيْرِهِ، كَيْفَ وَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا رَاجِعَةٌ إِلَيْهِ وَقُدْرَتُهُ وَاحِدَةٌ عَلَيْهَا بِلَا اخْتِلَافٍ بَيْنَ شَيْءٍ وَآخَرَ.

فهذه قاعدة مهمّة جداً وَهِيَ أَنَّ إِسْنَادَ الْأَفْعَالِ إِلَى اللَّهِ وَقُرْبَهُ تَعَالَى وَقُدْرَتَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ بِنِسْبَةِ وَاحِدَةٍ وَلَا يُوْجَدُ فِي قُرْبِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ تَفَاوُتٌ، بَلْ قُدْرَتُهُ عَلَيْهَا مُتَسَاوِيَةٌ؛ وَلِذَا لَا يَفْرُقُ حِينَئِذٍ بَيْنَ الْفِعْلِ الْحَسِّيِّ وَالْغَيْبِيِّ وَالْفِعْلِ فِي حَالِ حَيَاةٍ أَحَدٍ أَوْ مَمَاتٍ أَحَدٍ. بَلْ نِسْبَةُ اللَّهِ إِلَى الْجَمِيعِ وَاحِدَةٌ وَلَا تَوْجَدُ مَنْطِقَةً مَعزُولَةً عَنِ اللَّهِ وَعَنْ قُدْرَتِهِ وَقُرْبِهِ.

ضابطة الفعل المادي عن الفعل الإلهي:

وهذه أيضاً مِنْ الْقَوَاعِدِ وَالضُّوَابِطِ الْمُهْمَّةِ فِي بَابِ مَعْرِفَةِ أَعْمَالِ اللَّهِ تَعَالَى، فَالْأَفْعَالُ عَلَى دَرَجَاتٍ وَأَنْهَاطٍ بِلِحَازٍ قَابِلٍ ذَلِكَ الْفِعْلِ أَوْ

من ينتهي إليه ثمرة الفعل أو كماله، فَمِنْ تَقْسِيَمَاتِ الْأَفْعَالِ تَقْسِيمُهُ إِلَى فِعْلِ الْخَلْقِ وَفِعْلِ الْإِبْدَاعِ كَمَا يَشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) وَالْخَلْقُ كَمَا تَقَدَّمَ قَدْ يُطْلَقُ عَلَى مُطْلَقِ الْإِبْدَاعِ الْأَعْمِ مِنَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ وَهُوَ الْخَلْقُ بِالْمَعْنَى الْأَعْمِ، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَى الْمَادَّةِ وَهُوَ الْخَلْقُ بِالْمَعْنَى الْأَخْصِ وَالْأَفْعَالِ الْخَلْقِيَّةِ تَرْتَبُطُ بِالْمَادَّةِ وَلَا مَحَالَةَ تَحْتَاجُ حَيْثُ تَنْتَهِدُ إِلَى أَفْعَالٍ إِعْدَادِيَّةٍ.

تعريف الجسم المادي وأنواعه:

والأجسام والمواد لا تنحصر بالجسم والمادة الدنيويين ولا بالمادة الأرضية بل المادة أعم مِنْ ذَلِكَ فَكَذَلِكَ تَكُونُ شَفَافَةً وَقَدْ يَكُونُ الْجِسْمُ بَرَزْخِيًّا وَالْمَادَّةُ بَرَزْخِيَّةً، وَقَدْ يَكُونَانِ أُخْرَوِيَيْنِ، وَالْمَادَّةُ الْبَرَزْخِيَّةُ وَالْأُخْرَوِيَّةُ عَلَى طَبَقَاتٍ، فَلَا يَنْحَصِرُ الْأَمْرُ بِالْمَادَّةِ وَالْجِسْمِ الْكَثِيفِينَ الْأَرْضِيِّينَ بَلْ عَالَمِ الْأَجْسَامِ وَالْمَادَّةِ أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ. لِأَنَّ الْجِسْمَ بِالْمَصْطَلَحِ الْفَلْسَفِيِّ هُوَ كُلُّ مَا لَهُ امْتِدَادٌ فِي الْأَبْعَادِ الثَّلَاثَةِ (الطول والعرض والعمق)، سِوَاءَ كَانَتْ كَثِيفًا أَوْ شَفِيفًا، وَكَيْسَ خُصُوصَ الْجِسْمِ الْكَثِيفِ وَالْمُرْتَبِيِّ.

فَالصَّوْتُ جِسْمٌ جَوْهَرِيٌّ، وَإِنْ كَانَ عَرْضًا عِنْدَ الْعَرَفِ، وَلَكِنَّهُ جِسْمٌ ذُو مَادَّةٍ عَقْلًا لِأَنَّ الطَّاقَةَ الصَّوْتِيَّةَ طَاقَةٌ مُنْتَشِرَةٌ فِي الْأَبْعَادِ الثَّلَاثَةِ

وتشغل حيزاً ومكاناً، وهذا ما قد يغفل عنه حتى كبار الفلاسفة فمثل العلامة الطباطبائي رحمته الله - مع ما له من جهد عظيم في التحقيقات والإنجازات العلمية وَمَعَ ما عَلَيْهِ مِنْ دَقَّةِ النظر وحادقته - ذكر في نهاية الحكمة أَنَّ الطاقة الفيزيائية ليست جسماً بَلْ هي فوق الجسم وجنسٌ للجسم، وهذه غفلة واضحة؛ لِأَنَّ الطاقة وإنْ لم تكن ذاتَ مادة كثيفة ولكنها جسم بالمصطلح الفلسفي وذاتَ مادة فلسفية ما دامت ذاتَ مقدار جغرافي ومنتشرة في الطول والعرض والعمق.

فالطاقة الفيزيائية بأنواعها وأقسامها العجيبة والمختلفة كلها داخلية في نطاق الأجسام المادية وإنْ لم تكن كثيفة، فليسَ الجسم هُوَ خصوص المادة المتكثفة أو المرئية، والأجسام التي لا نراها فوق التخيل، فالطاقات برمتها مِنْ الضوئية والمغناطيسية والميكانيكية والصوتية وغيرها مما لمْ يكتشف كلها أجسام، وللإنسان جسم دنيوي هُوَ ما يسمى بالاكْتوبلازم وربما يسميه بَعْضُ العرفاء بالجسم البخاري، والحال أَنَّهُ جسم دنيوي.

بَلْ ذكر القرآن بعضَ الأجسام غير المرئية ﴿الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾^(١) فالنفي هُنَا يرجع إلى القيد وَهُوَ الرؤية والمرئي لا إلى المقيد أيَّ العمدة، فَهُنَاكَ أعمدة غير مرئية هي التي رفعت السماوات، وكذلك الضوء مِنْ الأجسام بالاصطلاح العقلي لا الفيزيائي؛ لِأَنَّ كُلَّ

ما له مقدار وانتشار في الأبعاد الثلاثة وتحيز ومكان فهو جسم بالاصطلاح العقلي، وأما الاصطلاح الفيزيائي فهو يقصد الجسم بالمادة المتكثفة وهذا الخلط بين مصطلحات العلوم المختلفة هو الذي أوجب الاشتباه والأخطاء في بحوث العقائد والمعارف، فالجسم الذي يبحث عنه في باب المعارف ليس خصوص الجسم الطبيعي الفيزيائي بل كل ما له مقدار وطول وعرض وعمق فهو جسم، ولو كان غير مرئي، ولو كان عظيماً مهولاً كأجسام الملائكة أو الطاقات العظيمة المنتشرة في الفضاء.

ومن باب المثال فإن عالم الآخرة غير مرئي بالنسبة إلى أهل البرزخ وإن عالم البرزخ غير مرئي بالنسبة لأهل الدنيا، ولكن لا يعني ذلك أن الآخرة ليست جسمانية أو البرزخ ليس جسمانياً بل هناك أجسام أكثر لطافة وشفافية، واللطافة ذات درجات والبرزخ ذات درجات وليس كل أهل البرزخ على درجة واحدة في اللطافة.

وللإنسان أدوات برزخية بل أخروية كالسمع والبصر، لا تتفعل غالباً وهو في الدنيا إلا في النوم، وقد تحصل له استعمال هذه الأدوات البرزخية وهو في اليقظة، فهي أكثر وأشدّ لطافة، ولكنها بالتالي أجسام ذوات مقدار وانتشار جغرافي وامتداد في الأبعاد الثلاثة.

فالجسم باللغة العقلية ليس خصوص الجسم الغليظ والكثيف المادي والمرئي بهذه الحواس المادية.

وَمِنْ المصطلحات العرفية أو اللغوية في علوم المعارف وَالتِّي قَدْ
تُشاهد في الروايات هُوَ (تروح الجسد)، والمراد لَيْسَ خروج الجسد مِنْ
المادية إلى التجرد التام وَإِنَّمَا المراد تشفّف الجسد وخروجه مِنْ مستوى
معين مِنْ الكثافة والغلظة إلى مستوى أعلى مِنْ التشفّف ولكنه باقٍ عَلَى
الجسمانية، وكذلك (تجسد الروح) فَلَيْسَ المراد خروج الروح مِنْ
التجرّد إلى المادية فكلاهما جسمان مادّيان، وَإِنَّمَا المراد أَنَّ المادة الروحانية
الشفيفة تتغلظ وتتكتّف، فالجسم هُوَ كُلُّ ما لَهُ طول وعرض وعمق
سواء كَانَ باتجاه الصعود إلى التشفّف، أو باتجاه النزول إلى التكتّف،
فليست الأجسام والمواد عَلَى مستوى واحد مِنْ الكثافة واللطافة، كَمَا
أَنَّ الأجسام اللطيفة والشفافة وَغَيْرَ المرئية ليست عَلَى درجة واحدة مِنْ
اللطافة والشفافية، ولا الأجسام الغليظة عَلَى درجة واحدة مِنْ الغلظة
والكثافة فالأجسام والمواد عالم وسيع وكبير جداً وَعَلَى درجات مختلفة
جداً مِنْ الكثافة والتلطف إلى مستوى يظن من يركّز النظر عَلَى مستوى
معين مِنْ الكثافة والغلظة أَنَّ الأشف والألطف مِنْهُ مجرد وَغَيْرَ مادي
ما دام لَيْسَ بتلك المستوى مِنْ الغلظة التي اعتاد عليها، والحال أَنَّ مجرد
التشفّف واللطافة لا يخرج الجسم مِنْ جسمانيته وماديته ما دام منتشرًا
في الأبعاد الثلاثة.

فالفاعل سواء تعلّق بجسم غليظ أو جسم شفيف فَهُوَ فعل مادي
فالإماتة (نزع الروح) والإحياء (نفخ الروح) فعلان مادّيان وَإِن كَانَ

متعلقهما جسماً شفيفاً لطيفاً، فالإماتة فعل مادّي وكَيْس بالضرورة أن يكون مادياً دنيوياً؛ لأنَّ المادة لا تنحصر بالدنيوية بل هناك مادة برزخية ومادة أخروية.

أحكام الأجسام والمواد:

هناك فرق وسيع بين المواد باختلاف طبقاتها فللمادة الغليظة قوانين لا تجدها في المادة الأكثر لطافة وشفافية إذ كلما ازداد الجسم كثافة وغلظة كانت أحكامه المادّية مكبلة له أكثر فأكثر؛ ولذا نجد أنَّ المادّة الغليظة لو أرادت أن تقطع مسافة من المشرق إلى المغرب لاستغرق زمناً أطول مما لو كانت المادّة أشف وألطف، فهناك أحكام مختلفة، ولكن هناك احكام مشتركة فيما بينها ومرتبة على مطلق المادة بمختلف درجاتها، فأصل حاجة الفعل المادي إلى زمان وكونه تدريجياً من القوانين العامة في المواد. فالمادة مهما تكثفت أو تلطفت تحتاج في فعلها وحركتها إلى مقدار زمني مهما كثر ذلك الزمان أو قل، فجبرائيل إذا أراد أن ينزل ويهبط من السماء السابعة إلى الأرض تنزل في مكث معين مهما كان ذلك قليلاً، ولكن لا يعني أنه ليس مقداراً زمانياً، وكذلك عروج الملائكة ذو مقدار زمني كما في الآية الشريفة ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾^(١) ولأهل الجنة ولأهل النار زمان يتمتعون فيه أو يعذبون فيه كما في قوله تعالى في

جنة البرزخ و نارها: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعِشْيًا﴾^(١) ﴿الَّذِينَ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾^(٢) فما دام الوجود جسمانياً فَإِنَّ لَهُ مقداراً ولا يمكن أن ينفك عن هذا المقدار المكاني والزماني مهما كَانَ لطيفاً أو شفيفاً وإن كانت جغرافيا الأجسام مختلفة سنخاً بحسب طبقات كثافة ولطافة الأجسام. فهذه المقادير الزمانية والمكانية تختلف باختلاف الكثافة واللطافة فالزمان الذي يحتاجه الجسم الغليظ لقطع المسافة أطول بكثير من الزمان الذي يحتاجه جسم بمادة شفيفة فبعض الطاقات تقطع ما بين شرق الأرض وغربها في أقل من ثانية، وبعض الموجودات الجسمانية أسرع من ذلك بكثير؛ ولذا قطع رسول الله ﷺ مسافة العالم الجسماني من الأرض إلى سدرة المنتهى على البراق والررفرف ذهاباً ورجوعاً في مدة ثلث الليل.

ولكن قلّة هذه الأزمنة لا يعني انعدام الزمان، وإن كَانَ قلة زمان الفعل يوهم الناظر أنه بلا زمان وأنه قد حصل إبداعاً، ولكنه مجرد توهم، إذ نجد في أجهزة الطرد المركزي أنها تدور ألف مرّة في الثانية ومنها ما يدور خمسة آلاف مرّة في الثانية. فالمرّة الواحدة في جزء من ألف أو في جزء من خمسة آلاف جزء من الثانية وهذا المقدار مهما كَانَ قليلاً ولكنه مقدار زماني وليس الفعل فيه فعلاً إبداعياً.

(١) سورة مريم: الآية ٦٢.

(٢) سورة غافر: الآية ٤٦.

خطأ الفلاسفة في بحث المادة:

وَمِنْ النِّكَاتِ الْمُهِمَّةِ أَنَّ الْفَلَّاسِفَةَ بَلَّ حَتَّى كِبَارِهِمْ وَقَعُوا فِي غَفْلَةٍ عَنْ اصطلاحات نفس الفلسفة وَكَيْسَ عَجِيباً فَالْعَصْمَةُ لِأَهْلِهَا.

فجمهور الفلاسفة على نفي المادة عن عالم البرزخ، فقبل الملا صدرا كَانَ الْبِنَاءُ عَلَى نَفْيِ عَالَمِ الْبَرزَخِ وَإِنَّهَا هُنَاكَ عَالَمُ أَرْوَاحٍ مُطْلَقَةٍ مَجْرَدٍ وَعَالَمٍ مَادِي مُطْلَقاً، وَبَعْدَهُمْ جَاءَ الْإِشْرَاقُ وَصَحَّحُوا أَكْثَرَ وَلَكِنْ بَقِيَتْ عَوَالِمٌ كَثِيرَةٌ التَّزَمُوا بِنَفْيِ الْمَادَةِ عَنْهَا، مِنْهَا عَالَمُ الْآخِرَةِ وَأَنَّهَا عَوَالِمٌ مَجْرَدَةٌ تَمَاماً عَنِ الْمَادَةِ، وَلَكِنْ أَيُّ مَادَةٍ هِيَ الْمُنْفِيَّةُ عَنْ عَالَمِ الْآخِرَةِ؟ أَمَا الْمَلَا صَدْرًا فَقَدْ بَنَى عَلَى جَسْمَانِيَّةِ عَالَمِ الْآخِرَةِ مِنْ دُونِ تَصْوِيرِ مَادَةٍ لَهَا، وَإِنْ كَانَ الصَّحِيحُ فِي طَيِّبَاتِ كَلِمَاتِ الْمَلَا صَدْرًا وَابْنِ سِينَا وَالخَوَاجَةِ نَصِيرِ الدِّينِ فِي الْأَسْفَارِ وَالشِّفَاءِ اثْبَاتُ الْمَادَةِ الْعَقْلِيَّةِ، فَضْلاً عَنِ الْمَادَةِ الْمَثَلِيَّةِ.

وَالْمُؤَسِّفُ أَنَّ هَذَا الْبَحْثَ يَعْذُّ فِي كِتَابِ الْفَلَّاسِفَةِ مِنَ الْبَحْثِ الَّذِي تَجَدُّ فِيهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْفَوْضَى، وَالَّتِي لَا يَلْتَفِتُ إِلَى نِكَاتِهِ إِلَّا أَوْحَدِي زَمَانِهِ فِي الْفَلَّاسِفَةِ، فِي طَيِّبَاتِ كَلِمَاتِ ابْنِ سِينَا فِي الشِّفَاءِ وَطَيِّبَاتِ كَلِمَاتِ الْمَلَا صَدْرًا فِي الْأَسْفَارِ، أَنَّ الْمَادَةَ الْمُنْفِيَّةَ عَنِ عَالَمِ الْمَثَالِ وَعَالَمِ الْعُقُولِ هِيَ الْمَادَةُ الْغَلِيظَةُ لَا مُطْلَقَ الْمَادَةِ، وَإِنَّهُمْ حِينَ يَنْفُونَ الْمَادَةَ إِنَّهَا يَنْفُونَ الْمَادَةَ الْغَلِيظَةَ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْمَلَا صَدْرًا يَقْرُرُ أَنَّ أَحَدَ مَوَارِدِ اِطْلَاقَاتِ الْجِسْمِ هِيَ عَلَى الْعَقْلِ، أَمَّا كَيْفِيَّةُ جَسْمَانِيَّةِ الْعَقْلِ فَهَذَا بَحْثٌ فِي مَحَلِّهِ،

فالمنفي مادة خاصة وليست مطلق المادة وإنَّ توهم جمهور الفلاسفة أو المتفلسفة نفي مطلق المادة.

وفي المقابل يأتي العلامة المجلسي رحمته الله وجملة من المحدثين والمتكلمين ويلتزمون بأن كل ما عدا الله جسماني، وهذه المقولة التي يلتزم بها حتى في عالم الأنوار ليست صحيحة بإطلاقها لعدم مساعدة الدليل عليها في تلك العوالم، ولكن الكثير من مساحات عالم المخلوقات هي أجسام وليست المراد خصوص الأجسام الغليظة ولا البرزخية ولا حتى الأخروية، ولكن بالتالي هناك أجسام لها حد ومقدار، فالأجسام والمواد ليست على درجة واحدة ولا شاكلة واحدة، فالنور الفيزياوي الدنيوي جسم والصوت جسم والالكترون جسم ولكن لا بالاصطلاح الفيزياوي - وان بدأت اليوم نظريات فيزيائية أن الطاقات لها اشكال جسمانية ترى بالأجهزة المسلحة - بل هي جسم بالاصطلاح المعارفي العقلي أو الفلسفي لأن لها امتدادا وانتشارا في الأبعاد الثلاثة، بل القرآن يكشف عن جسمانية الملائكة ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِّثْنَىٰ وَثُلُثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١) ولكن ليست أجساماً فيزيائية كثيفة وإنما أجسام بالمعنى العقلي وهذا الخلط بين مصطلحات العلوم المختلفة هو الذي أوقع من وقع في الخطأ.

ومن تعبيرات الملا صدرا في الجزء التاسع من الأسفار (المادة

العقلية) وربما يأتي البعض ويفسرها بالتعبير المجازي ولكنها غفلة عن مراد الملا صدرا، وكذلك الخواجة نصير الدين الذي يلتزم في شرح الإشارات بوجود مادة عقلية، وبوجود تكامل في عالم العقول لا في عالم الأرواح فقط فضلاً عن عالم الأجسام البرزخية والأخروية، فالتفت العقول إلى علوم لم تلتفت إليها من قبل وازدياد العقول علماً تكامل فيها.

والتكامل هو خروج من القوة إلى الفعل ولكن ليس بالضرورة خروجاً من القوة الغليظة إلى الفعل كالمادة الغليظة في عالم الدنيا، بل هناك مادة برزخية وأخروية يكون الخروج فيها كأنه كُن فيكون ولكنه بالدقة ليس كذلك وليس إبداعياً، وإن توهم الكثير أن هذا الفعل إبداعي نتيجة لعسر ضبط مقدار الأجسام ومقدار حركتها، فمعرفتنا وضبطنا لمقدار الحركة ليس هو المعيار للجسمانية والمادية.

ومن الخطأ الذي وقع فيه بعض من له باع في الفلسفة والمعارف أن نفخ الروح إبداعي دفعي ولكن هذا خطأ، نعم قد يتوهم ذلك بلحاظ هذه المادة الغليظة ولكنه بالدقة للنفخ مقدار ومادة وصورة وإعداد.

وفسر البعض قوله تعالى ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾^(١) بأنه إشارة إلى الأمر الإبداعي ولذا عبر بلمح البصر، ولكن حتى لمح

البصر يوجد ما هو أطول مِنْهُ وما هو أقصر مِنْهُ زماناً فَهُوَ مقدار، وَكَلَهُ زمان وإن كَانَ سريعاً جداً، فلمحة العين مهما كانت سريعة ليست دفعية وجوداً وبلا زمان، فالكثير من المقادير يصعب ضبطها ولكن لا يعني ذَلِكَ نفي المقدار عنها، فحركة الإلكترون لها زمان وإن لم نستطع قياسها، ولكن لا يعني ذَلِكَ كونها دفعيةً.

نفخ الروح ونزع الروح:

الإحياء والإماتة كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ الأفعال الَّتِي تنسب وتُسند إلى الله تَعَالَى وأيضاً تُسند إلى وسائط الفيض كالملائكة وعزرائيل عليه السلام، وَكَيْسَ نفخ الروح ونزع الروح - كَمَا قَدْ يتوهم البعض - مِنْ الأفعال الإبداعية المتعلقة بالمجردات، وَإِنَّهَا هِيَ أفعال مادية خلقية مرتبطة بالمادة، فلإنسان أبدان عديدة بعضها أشف وألطف مِنْ بَعْضٍ ونفخ الروح كَيْسَ عبارة عَنْ نفخ الروح المجردة وَهُوَ العقل فِي هذا البدن، فَإِنَّ مرتبة العقل المجرد لا تتعلق بالبدن الدنيوي ولا حَتَّى البرزخي الَّتِي هِيَ بنفسها عَلَى درجات، بَلْ نفخ الروح عبارة عَنْ تعلق بدن غَيْر مرئي وشفاف بالبدن المرئي الغليظ، وذلك البدن الشفاف هو الذي يحرك ويهيمن على هذا البدن الغليظ، فنفخ الأرواح عبارة عَنْ تعلق صورة بدنية لطيفة بصورة بدنية غليظة، وَقَدْ فَسَّرَ الملا صدرا قوله تَعَالَى ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ بِإفاضة الصور النوعية للأبدان وَهِيَ الأرواح، وَقَدْ قرر الفلاسفة هذا الأمر أيضاً بالقول بجسمانية الغرائز

النفسية النازلة بمعنى كونها جسمانية التعلق، وجسمانية التعلق يعني تعلقها بهذا البدن الغليظ وَإِلَّا فَهِيَ فِي نَفْسِهَا وَبِوُجُودِهَا فِي الْبَدَنِ الْبَرْزَخِيِّ لَيْسَتْ أَبْدَانٌ مَقْدَارِيَّةٌ عِنْدَهُمْ.

وهنا يأتي أيضاً بحث خلق الأرواح قبل الأبدان، والملا صدراً قد بنى على جسمانية الحدوث وروحانية البقاء، ويمكن توجيه هذا المبني بما يتلاءم مع روحانية الحدوث، فالأرواح وإن خلقت قبل الأبدان ولكن المرد من هذه الأبدان هي الأبدان الغليظة الدنيوية وَإِلَّا فَإِنَّ لِلْأَرْوَاحِ تَعَلُّقًا بِالْأَجْسَامِ الْبَرْزَخِيَّةِ أَوْ الْمَثَالِيَّةِ قَبْلَ تَعَلُّقِهَا بِهَذَا الْبَدَنِ الْغَلِيظِ الدُّنْيَوِيِّ.

والإشكال الذي بنى عليه الملا صدراً مبناه في جسمانية الحدوث من أن الأرواح مجردة ولا تعلق لها بالبدن وما له التعلق هو النفس أمّا العقل فليس متعلقاً بالبدن هذا كله مبني على فرض الروح مجردة وعدم تعلقها ببدن ما من الأبدان اللطيفة قبل هذا البدن الغليظ؛ ولذا لم يقبل روحانية الحدوث، ولكن هذا الإشكال يرتفع مع فرض تعلق الروح بالبدن البرزخي، سيما أن معنى «خلق الأرواح» إنها ليست من عالم الأمر بل هي من عالم الخلق، ويعني ذلك أنها متعلقة بالمادة وإن لم تكن مادة غليظة، ولكنها متعلقة بالمادة الشفيفة اللطيفة.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَتَفْخِ الْأَرْوَاحُ فِي الْأَجْسَادِ وَإِحْيَاءِ الْأَجْسَادِ نَوْعٍ مِنَ الْفِعْلِ الْمَادِّيِّ لَا بِمَعْنَى الْمَادِيِّ الطَّبِيعِيِّ بَلْ الْمَادِيِّ بِالْمَعْنَى الْأَعْمِ مِنْ

المادّة الغليظة أو الشفيفة اللطيفة.

وكذلك الإمامة فعل مادّي لأنها تفكيك وعزل للبدن اللطيف
عَنْ البدن الغليظ، وَمَعَ كون الإمامة والإحياء فعلين ماديين فَإِنَّ الباري
منزّه عَنْ أَنْ يكون فاعلاً مادياً بحسب البحوث العقلية والمعرفية.

والسبب فِي تنزّهه عَنْ الفِعْل المادي، أَنَّ الفاعل المادي فاعل
ناقص يحتاج فِي إيجاد الفِعْل فِي مادّة أُخرى إِلَى المحاذاة والتبأشُر أَيّ
قربه بَعْدُ بَعده وَإِلَى التمازج، والباري لَا يَتَّصِف بهذه الصفات لأنها مِنْ
صفات الفاعل الناقص.

الفاعل بالواسطة والفاعل المباشِر

(الفاعل الحقيقي والفاعل الصوري):

ولا يتوهم أَنَا حين نقول أَنَّ الله لَيْسَ فاعلاً مادياً أَنَّ الفاعل فِي
تلك الأفعال لَيْسَ هُوَ الله تَعَالَى، بَلْ الفاعل الحقيقي هُوَ الله تَعَالَى، أَمَّا
هؤلاء الفواعل مِنْ الفاعل الطبيعي والفاعل المادي فَلَيْسَ فاعلاً
حقيقة وَإِنَّمَا فعله فعل إعدادي وَلَيْسَ فعلاً حقيقياً إيجادياً، وَإِنَّمَا الفاعل
الحقيقي الإيجادي هُوَ الله تَعَالَى وحده.

وقد يتوهم البعض فيتصوّر أَنَّ الفاعل المباشِر أقوى مِنْ الفاعل
بالواسطة قياساً للبحث فِي مقامنا بالبحوث العرفية العامة كَمَا فِي
إتلاف المال، فالفاعل المباشِر فِي إتلاف المال أو القتل أقوى مِنْ الفاعل

بالسبب، ولكن هذا مختصّ بالفواعل الطبيعية المادية فالفاعل الطبيعي المباشر أقوى من الفاعل الطبيعي المسبّب.

ولكن في البحوث المعرفية لا يراد ذلك بل الأمر على العكس تماماً، فالفاعل بالواسطة أقوى من الفاعل المباشر، والفاعل المباشر أضعف من الفاعل بالواسطة، والسبب في ذلك أن الفاعل بالمباشرة فعله إعدادي ولا يفعل الفعل حقيقة، أمّا الفاعل الحقيقي فهو الفاعل بالواسطة والذي يوجد الفعل بواسطة الأداة، فالفاعل الموجد حقيقة هو الفاعل بالواسطة أمّا المباشر فليس موجداً أو إنّما هو معبر للفيض، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ؕ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ؕ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾^(١)، ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ؕ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ؕ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾^(٢) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ؕ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾^(٣) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ؕ أَنْتُمْ أَشْأَتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾^(٤) وهذه الآيات تتحدّث عن الفاعل الإلهي والفاعل الطبيعي وأنّ أيهما هو الفاعل الحقيقي، فأنتم فاعلون طبيعيون وما هو دور الفاعل الطبيعي؟ دوره التحريك والتغيير فقط، فهو يحرث فقط ولكن لا يوجد صورة الزرع، ولا يفيض الصورة النباتية، أمّا من يوجد تلك الصورة فهو فقط الله عزّ

(١) سورة الواقعة: الآية ٥٨-٥٩.

(٢) سورة الواقعة: الآية ٦٣-٦٤.

(٣) سورة الواقعة: الآية ٦٨-٦٩.

(٤) سورة الواقعة: الآية ٧٠-٧١.

وَجَلَّ، وكذلك دور الأب هُوَ الإِمْنَاءُ فَفَقَطُ، أَيَّ تحريك المني مِنْ موضع إلى موضع، ولكنه لَيْسَ هُوَ الذي خلق وأوجد الصورة المنوية، فالأب لَيْسَ خالقاً للابن وَإِنَّمَا يحرك النطفة فَفَقَطُ، ولا يخلق لا الصورة المنوية ولا الصورة المضغية ولا العقلية ولا العظامية ولا اللحمية ولا ينشئه خلقاً آخر، فالفاعل المباشر وظيفته التحريك فَفَقَطُ لا إيجاد الفِعْلِ واقِعاً، وكذلك فِي إيجاد الشعلة فعمل الإنسان أيضاً فَفَقَطُ تحريك الشعلة إلى جنب الحطب وَلَيْسَ هُوَ الذي يخلق الصورة النارية ولا هُوَ الذي يوجدها، بَلْ الخالق لها وموجدها وفاعلها هُوَ اللهُ تَعَالَى؛ ولذا قَالَ لها ﴿يَنبَأُكَ فِي بَرْدِكَ وَسَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ ولذا عبّر عنه بالفاعل الإلهي لأن الله تعالى هُوَ الفاعل الموجد.

فالفاعل المباشر لا ينفذ فعله في ثخن الجوهر ووجوده وإنما فعله فعل صوري في سطح الأعراض والصورة العرضية، بل فعل الفاعل المباشر إنما هو في أضعف الأعراض على الإطلاق وهو الحركة العرضية، فمن ثمَّ الفاعل المباشر من أضعف الفاعلين وإنما خداع الحس يوهم للناظر أن فعله إيجاد للجوهر.

نعم اذا كان الفاعل من مادة ألطف من مادة المفعول فيه نفذ فعله التحريكي إلى أعماقه بدرجة لطافته.

أمَّا ما ذكروه فِي حكمة الإِشْرَاقِ والمتعالية مِنْ التعبير عَنْ بعض الفواعل من الملائكة بالفواعل الإلهيين فَهُوَ مسامحة، لأنهم أيضاً فواعل

جسمانيون وَإِنَّمَا يَعْمَلُونَ فِي جِسْمٍ وَمَادَّةٍ أَظْرَفَ وَأَشْفَ وَلَيْسُوا فَوَاعِلَ حَقِيقِينَ وَإِنَّمَا هُوَ اللَّهُ تَعَالَى فَهُوَ مَا مِنْهُ الوجود فَقَطُّ وَالْباقِي كُلُّهُم فَوَاعِلَ مُعَدِّينَ وَلَيْسُوا مُوجِدِينَ وَلَا مِنْهُمْ الوجود.

نعم حَيْثُ أَنَّ الموادَّ مُخْتَلِفَةً كَثَافَةً وَلطَافَةً فَالفَوَاعِلُ الجِسمَانِيُونَ مُخْتَلِفُونَ بِحَسَبِ اخْتِلافِ المادَّةِ الَّتِي يَعْمَلُونَ فِيهَا فَالفاعِلُ المِثَالِي البرزخي حَيْثُ أَنَّهُ يَعْمَلُ فِي مادَّةِ أَلطَفٍ مِنْ المادَّةِ الغليظة الَّتِي يَعْمَلُ فِيهَا الفاعِلُ الطَّبِيعِي، كَأَنَّهُ يَعدُّ بِالقِياسِ إِلَيهِ فاعِلٌ إلهي وَكذلكِ الفاعِلُ الأخرُوي بِالقِياسِ إِلَى الفاعِلِ البرزخي وَكذلكِ فِي الفاعِلِ النَفْسانِي وَلَكِن هذِهِ الفَوَاعِلُ لا تَخْرُجُ عَنُ الفِعْلي المادِي ما دامت تعملُ فِي الموادِّ والصُورِ فَهِيَ لَيْسَتْ فَواعِلَ إلهية، وَإِنَّمَا فَعَلُها التَحْرِيكُ فَقَطُّ، نَعَمَ غايَتُهُ الحِركةُ أَسْرَعُ كُلِّما كَانتِ المادَّةُ أَلطَفَ، فَالحِركةُ الأخرُويةُ أَسْرَعُ مِنْ المِثَالِيَةِ وَالمِثَالِيَةِ أَسْرَعُ مِنَ الدُنْويَةِ، وَلَكِن مَهْمَا تَكنُ سَريعةً فَهِيَ حِركةٌ مَقْدارِيَةٌ لَها مَقْدارٌ وَزَمَانٌ، أَمَّا إِيجادُ الباري تَعَالَى فَهُوَ كُنُ فَيَكُونُ.

فتوهم كون الإماتة والإحياء من الأفعال الإلهية لا المادية ناتج عن حصر الفعل المادي بالطبيعة الغليظة، والحال أنه أعم من المادة الغليظة واللطيفة فأكثر الأفعال التي نستعظمها هي أفعال مادية وإن كانت ظريفة ولطيفة، فالإماتة نزع جسد عن جسد، ولكن حيث أن الجسد المنزوع هو جسد لطيف وظريف يُقال له «روح» أي له مقدار من التروح والتلطف وإلا فهو جسد وفي باطن هذا الجسد جسد

أظرف هُوَ الَّذِي يَجْرِكُهُ وَهُوَ الْجَسَدُ الْأَخْرُوي فَكُلُّ تَلَطَّفٍ تَرْوِحٍ وَكُلُّ تَكْتِفٍ يَسْمَى تَجَسُّمًا، وَكُلُّمَا زَادَ الشَّيْءُ لَطَافَةً فَهُوَ يَزِيدُ تَرْوِحًا.

إِذْنُ فِعْلِ الْإِحْيَاءِ وَكَذَا الْإِمَاتَةِ لَيْسَا فِعْلِيَيْنِ إِبْدَاعِيَيْنِ فِي الْمَجْرَدَاتِ بَلْ كَمَا وَرَدَ فِي الرَّوَايَةِ «فَأَنْزَلَ الْأَرْوَاحَ فِي الْأَجْسَادِ» وَهَذَا التَّعْبِيرُ الدَّقِيقُ يَعْنِي تَكْتِفًا وَتَعَالُقًا بَيْنَ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ وَبِالتَّالِي هُوَ فِعْلٌ مَتَعَلِّقٌ بِالمَادَّةِ، فَهُنَاكَ إِيجَادٌ أَوْ فِكٌّ لِلْعَلَقَةِ بَيْنَ الْأَبْدَانِ الْمُخْتَلِفَةِ لِلْإِنْسَانِ فِي الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ وَكَيْسًا فِعْلِيَيْنِ إِبْدَاعِيَيْنِ بَلْ مَادِيَيْنِ.

اختلاف أحكام المواد:

إِنَّ المَادَّةَ الغَلِيظَةَ لَهَا أَحْكَامٌ تَكْوِينِيَّةٌ مُنَاسِبَةٌ لِنَشْأَتِهَا وَلِلْمَادَّةِ اللطيفة أَحْكَامٌ أُخْرَى وَكَذَا الْأَلْطَفُ مِنْهَا، نَعَمْ هُنَاكَ أَحْكَامٌ عَقْلِيَّةٌ مُشْتَرَكَةٌ لِلْمَوَادِّ لَا تَخْتَلِفُ وَلَا تَفَارِقُ المَادَّةَ نَظِيرَ أَنَّ المَادَّةَ قُوَّةٌ تَحْتَاجُ إِلَى صُورَةٍ تَقْوُمُهَا أَوْ قَلَّ أَنَّ المَادَّةَ حَيْثِيَّةٌ قَابِلَةٌ وَلَا تَوْجِدُ وَلَا تَفِيضُ.

وَمِنْ بَابِ المِثَالِ فَإِنَّ التَّبَاشِرَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ غَلْظَةِ وَلَطَافَةِ المَوَادِّ فَالمَادَّةُ الكَثِيفَةُ تَحْتَاجُ فِي التَّبَاشِرِ مِنَ القُرْبِ مَا لَا تَحْتَاجُهُ المَادَّةُ اللطيفة، فَالقَمَرُ الصَّنَاعِي -مِثَالًا- الَّذِي يَبَاشِرُ أَجْهَازَةَ الإِرْسَالِ أَوْ التَّلْقِيَّ فِي الأَرْضِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى القُرْبِ أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ لِأَنَّ تِلْكَ الأَشْعَةَ الَّتِي يَرْسُلُهَا أَلْطَفٌ مِنْ غَيْرِهَا مِنَ المَوَادِّ الغَلِيظَةِ فَالتَّبَاشِرُ فِي الأَمْوَاجِ غَيْرُ التَّبَاشِرِ فِي الأَجْسَامِ الغَلِيظَةِ.

ولذا نلاحظ أنّ أحكام المادة تخفف باشتداد لطافة المادة وإن بقيت الأحكام العقلية للمواد موجودة وَالتّي يحكم بها العقل لا الحس، فكلّما تلطّفت أكثر كلّما خفّت أحكام المادة التّي يدركها الحسّ والمقدار، نعم أحكام العقل في المادة تبقى، وحينئذٍ تصل المادة إلى درجة شديدة من اللطافة بحيث يؤثر فيها المجرّد والمطلق الذي ليس له امتدادات مقدارية.

ولذا اعتقد الفلاسفة أنّ العقول تتعلّق بالأبدان فتكون نفوساً ولكن تلك العقول يعبر عنها بالعقول الساقطة أيّ النازلة أمّا العقول العظيمة فهِيَ تتعلّق بالأبدان عبر هذه العقول النازلة أيّ عبر النفوس.

فنفس التجرد والتلطّف ذو درجات ومن ثمّ تبدأ تستحيل أحكام المادة المحسوسة والمقدارية كلّما زادت اللطافة وتبقى الأحكام العقلية للمادة في كلّ الطبقات مهما تشفّفت وتلطّفت، إلى أن تصل المادة إلى درجة شديدة من اللطافة فتصير (قوة في المادة العقلية) - هذا على القول بكون العقل نورا مجردا كما ذهب إليه الفلاسفة لا على ما هو المذكور في روايات أهل البيت عليهم السلام من أن العقل أول خلق من الروحانيين - أي تصير قوة ليس لها امتداد مقداري ويحصل خروج من هذه القوة العقلية إلى فعلية الكمال مع محدودية الوجود بغض النظر عن الامتداد المقداري وهذه أطف أنواع المادة، وبعده ذلك تصل النوبة إلى مرحلة النور الذي لا توجد فيه أيّ شائبة للمادة.

فالأحكام العقلية للمادة باقية في كل طبقات ومراتب المادة، والذي يستحيل من الأحكام تدريجاً هو الأحكام الحسية الغليظة والمقدارية للمادة حتى يتوهم من شدة سرعة بعض الأفعال من الفواعل المادية الأعلى والألطف أن فعلها فعل إبداعي وليس مادياً خلقياً، والحال إنه ليس إبداعاً ما دام يعمل ويفعل في المادة، وإنما هو في سرعته ولطافته كالإبداع إذا قيس إلى المادة الحسية الغليظة.

تعاضم الأفعال في العين ليس دليلاً على تجردها عن المادة:

إن قدرة الله تعالى بالنسبة إلى الأفعال سواسية ولا يتعاضم على الله تعالى شيء صغير أو كبير، فقدرته على الصغير هي عين قدرته على الكبير ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَيْسٍ وَحِدَةٍ﴾^(١) وإنما الكبير والصغير هو بلحاظ أعين البشر، فيكبر في أعينهم بعض الأفعال فيتصورون أنها أفعال إلهية صادرة من البارئ تعالى مباشرة، والحال أن بعض الأفعال مهما تعاضمت وكبرت في أعين البشر لا تخرج عن الأفعال المادية كما في الإحياء والإماتة - وفقاً لما تقدم - والفعل المادي ليس فعلاً إلهياً لأن الفاعل المادي المباشر فاعل ناقص يحتاج إلى المحاذاة والمباشرة والتي تتحقق فيمن كان بعيداً وغير محاذياً ثم اقترب وباشر، ثم إن الفاعل المادي المباشر إنما يباشر السطح العرضي الصوري للمفعول فيه، فليس بفاعل حقيقة إلا في الحركة العرضية التي هي من أضعف الأعراض.

ضابطة أخرى في التمييز بين الفعل الإبداعي والمادي:

وَهُنَاكَ ضَابِطَةٌ أُخْرَى لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْفِعْلِ الْمَادِيِّ وَالْفِعْلِ الْإِبْدَاعِيِّ، فَقَدْ يَكُونُ الْفِعْلُ مَرْتَبِطًا بِالمَادَّةِ الْمَوْجُودَةِ قَبْلَ حُدُوثِ الْفِعْلِ فَيَجْرِي عَلَيْهَا الْفِعْلُ بَعْدَ وَجُودِ أَصْلِ المَادَّةِ، بِلِحَازِ الأَعْدَادِ لِفَيْضِ طُورِ مَنْ الأَطْوَارِ فِيهَا، فَهَذَا الْفِعْلُ فِعْلٌ مَادِي صُورِي وَيَحْتَاجُ إِلَى مَحَاذَاةٍ وَمُبَاشَرَةٍ وَيَتَنَزَّهُ عَنِ مِبَاشَرَتِهِ البَارِي تَعَالَى.

وَلَكِنْ قَدْ يَتَعَلَّقُ الْفِعْلُ بِإِجْمَادِ أَصْلِ المَادَّةِ، فَلَا مَادَّةَ قَبْلَ هَذَا الْفِعْلِ وَإِنَّمَا الْفِعْلُ هُوَ الَّذِي يَوْجَدُ المَادَّةَ، فَهَذَا الْفِعْلُ لَيْسَ فِعْلًا مَادِيًا وَإِنَّمَا هُوَ فِعْلٌ إِبْدَاعِيٌّ.

فالتفرقة دقيقة لأن الفعل تارة يوجد في المادة الموجودة فإن هذا الفعل لا محالة فعل مادي، ولو تعلق بغير المادة الغليظة من المواد اللطيفة كالمواد البرزخية وحتى الأخروية، بل حتى العقلية لو افترضنا للنشأة العقلية مادة باعتبارها يكون التكامل، فالفعل الذي يجري على مادة موجودة ويخرجها من فصل إلى فصل ومن نوع إلى نوع لا محالة يكون فعلاً مادياً وفاعله فاعل مادي، والمفعول فيه أو المفعول عليه أو المفعول له مادي؛ لأن هذه المادة إذا أردت أن توجد فيها أثراً فلا بد حيثئذ من الارتباط والتعلق المادي والمحاذاة معها، وعليه فإن الفاعل فاعل ناقص له غيبة وحضور ومحاذاة وعدم محاذاة ولا يفعل فعله إلا بحضور بعد الغيبة ومحاذاة بعد عدمها، ويحتاج إلى الإعداد حتى

يفعل، وهذه من صفات التقص في الفاعل، والباري تَعَالَى منزّه عَنْ ذَلِكَ لأنه تام الفاعلية وإذا أراد شيئاً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فيكون.

بينما الفِعْلُ لو كَانَ هُوَ موجد المادة فَإِنَّهُ لا يحتاج إلى محاذاة وَمُبَاشَرَةٍ فَإِنَّهُ فعل إبداعي ولا يكون فاعله مادياً.

الفاعل المادي يؤثر في المادة المناسبة:

الفاعل المادي الذي يفعل في المادة يكون أرقى مِنْ تلك المادة الَّتِي يتعلّق بها فعله، فالفاعل المادي الغليظ لا يؤثر في مادة أطف مِنْهُ، كالجدار الغليظ لا يستطيع أن يصدّ أو يحجب المادة الأطف مِنْهُ كالأشعاع والطاقات الَّتِي هِيَ مواد لها امتداداتها المقدارية.

فالمواد عَلَى درجات مِنْ حَيْثُ الكثافة واللطافة والفاعل لا بُدَّ أَنْ يكون عَلَى درجة تناسب المادة مِنْ حَيْثُ كثافتها ولطافتها.

وَمِنْ باب المثال لو أردت أن تؤثر في أمواج صوتية فَإِنَّكَ لا تؤثر فيها إِلَّا بمادة تناسبها بأن تقابلها بأمواج صوتية مماثلة وهكذا لو أردت أن تؤثر في أمواج ضوئية تؤثر فيها بأمواج ضوئية، ولو أردت أن تؤثر عَلَى الحرارة تؤثر فيها بطاقة مناسبة لها معاكسة، مما يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المواد ذَاتَ درجاتٍ فِي التأثيرِ فِي الانفعال والفعل، وَهَذَا التفاوت والتفارق فِي آثار المادة لا يعني كون المادة اللطيفة موجوداً مجرداً بحتاً، فهذه مِنْ الأوهام الَّتِي وقع فيها الفلاسفة فجمهور -المشاء- مثلاً زعموا أَنَّ

الموجودات إمّا مادية بحتة وإمّا مجردة مطلقة، والحال أنّ الأمر ليس كذلك، فابن سينا نفسه، يذهب إلى أنّ التجرد لا يحصل بالطفرة بأن تتحوّل المادة بطفرة واحدة إلى موجود مجرد، بل هناك درجات من التجرد تحافظ بعض الدرجات على بعض التعلّقات المادية.

درجات التجرد:

ولنأخذ مثلاً على حصول التجرد وأنّ حصوله إنّما هو على درجات، فالكتاب الخارجي مثلاً له مادة غليظة منطبع فيها طوله وعرضه وعمقه الخاص ولونه وشكله وصورته.

ولما يدرك هذا الكتاب بالحواس وتحصل له صورة حسّية، فإنّ صورة الكتاب الحسّية التي في الذهن صورة مادية منطبعة في الذهن، ولكن مع ذلك تجردت عن المادة الغليظة الخارجية، فحصل تجرد واحد عن المادة الغليظة الخارجية ولكن الطول والعرض والعمق واللون والشكل والمحاذاة والجزئية الحقيقية باقية على حالها في الصورة الحسّية، فلولا المحاذاة لما حصلت الصورة الحسّية.

وكذلك بقيت العديد من صفات المادة ولكن هذا تجرد واحد من المادة الغليظة، فلم يحصل تجرد عن بقية آثار المواد الألف كالمادة المثالية وكذلك لم تتجرد عن جملة من أحكام المادة الغليظة كالطول والعرض واللون والحيز.

أما الصورة الخيالية التي هي فوق الصورة الحسية والتي تحصل بعد قطع المحاذاة والارتباط الحسي المباشر مع الخارج، فالصورة الخيالية تحصل بالتذكر ومن دون حاجة إلى المحاذاة الحسية ولا إلى زمان خاص، وهذا هو التجرد الثاني ويسمونه بالصورة المثالية وفيها درجتان من التجرد، ومع ذلك لهذه الصورة مادة مثالية ولها طول وعرض وزمان مثالي ومحاذاة مثالية، نعم هي فاقدة للمحاذاة الحسية والطبيعية لا أنها فاقدة لمطلق المحاذاة.

فالتجرد يطلق على ما يتلطف وإن لم يكن تجرد تجرداً مطلقاً وأما التجرد المطلق ويقول مطلق فهو في الباري تعالى لأنه هو المجرد عن كل نقائص الإمكان، أما بقية المخلوقات والكائنات فهي ذات حدود ونقائص، فالمادة والجسمية عبارة عن نقائص الحدود، والتجرد عبارة عن التكامل الذي يملأ النقائص ولكن ملاً بعض النقائص لا يعني أنه ملاً كل النقائص لديه، نعم التجرد التام والمحض عن المادة والجسمانية يحصل للمراتب العالية من الوجود، كالوجودات النورية، والوجودات الأسماوي.

وعندما يقال أن الصورة الحسية تجردت يعني أنها تجردت عن المادة الغليظة لا عن المادة الحسية لأنها موجودة في المادة الحسية، أو عندما يقال الصورة المثالية تجردت عن المحاذاة الحسية وعن الزمان الحسي والزمان الخارجي لا يعني أنها تجردت عن مطلق المحاذاة

والزمان، وَإِلَّا فَإِنَّ لها زمانها ومحاذاتها المثالية فَهِيَ لَمْ تتجرّد عَنْ كُلِّ العلائق بالطبيعة بَلْ بقي لها نوع مِنْ التعلُّق بالطبيعة؛ ولذا لها طول وعرض وعمق.

أَمَّا الصورة الوهمية مثل حب زيد فَإِنَّ زيد موجود مادي أَمَّا الحب فكَم طولُه وعرضُه؟ فالحب لا طول لَهُ ولا عرض فَهُوَ متجرّد عَنْ المادة الطبيعية وَعَنْ المادّة الحسّية والمادة المثالية وَعَنْ الطول والعرض والعمق وَعَنْ الزمان وَعَنْ الأعراض فلا لون لَهُ ولا زمان، ولكن لَهُ مادّة وهمية فالصورة الوهمية مَعَ أنّها تجرّدت عَنْ كثير مِنْ الآثارِ فِي المادّة الغليظة ولكن بقي لها تعلُّق آخر بالمادّة، فالوهم كَمَا يُقال عقل مجرّد تعلُّق بالمادة ويسمى بالعقل الساقط أيّ الذي لَهُ تعلُّق بالمادّة؛ ولذا يُقال حب زيد أَمَّا حب الله فَلَيْسَ وهماً، وإنما الحبّ وَهُمْ إِذَا تعلُّق بالطبيعة.

فالمواد ذات درجات فِي التجرّد حتّى نصل إلى العقل مثل مفهوم الحب، وسائر المعاني الكلية الَّتِي هِيَ بمعانيها لا وجوداتها موجودات عقلية. وتلك الصُّور العقلية - بناء على تجرد العقل عن الروحانية^(١) - لا لون لها ولا طول ولا عرض ولا ثقل ولا تعلُّق لها بشيء ولا هيئة لها ولا شكل فَعِنْدَمَا تقول «الإنسان حيوان ناطق» أو «الجدار موجود

(١) ولتجرد العقل أو جسمانيته بحث مبسوط مستفاد من بيانات الوحي في المجلد الرابع من كتاب الرجعة .

مادي» ربما لا تتصوّر أيّ مثال فلَمْ يأتِ إلى ذهنك أيّ صورة مثالية، أو حينها تتصوّر الصفات الإلهية فهذه المعاني كَيْسَ لها طول وعرض وعمق وما شابه ذلك.

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْعَقْلَ أَيْضاً لَهُ مَادَّةٌ عَقْلِيَّةٌ كَمَا يَصْرِّحُ الْمَلَا صَدْرًا وَقَبْلَهُ ابْنُ سِينَا وَالْخَوَاجَةُ نَصِيرُ الدِّينِ الطُّوسِي .

وهذه الدرجات المختلفة من التجرد وباختلاف طبقات التجرد ما دامت متعلّقة بالمادة بأي وجه كانت فَهِيَ تحتاج إلى فاعل مادّي، فالفاعل في المادّة مهما تلطّفت لأبَدً أن يكون مادّيّاً، وليست هذه القاعدة مقتصرة ومنحصرة على المادّة الغليظة الطبيعية، بل تجري في كلّ المواد غاية الأمر أنّ الفاعل الذي يفعل في المادّة لأبَدً أن يكون متناسباً مع تلك المادّة، فالمادّة الغليظة لا تؤثر في المادّة اللطيفة والمادّة غير المرئية لأبَدً أن يكون المؤثر فيها مادّة غير مرئية والمؤثر في المادّة البرزخية لأبَدً أن يكون له جسم برزخي، وفي المادّة الأخروية لأبَدً أن يكون له جسم أخروي، فهذه الأفعال أفعال مادّية تحتاج إلى إعداد ومباشرة ومحاذاة، ويتنزّه عنه الباري تعالى لأنّ الفاعل المادي فاعل ناقص.

إذْ نَ جَمَلَةٌ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي نَظَنُّ أَنَّهَا مِمَّا يَبَاشِرُهَا الْبَارِي وَتَسْنَدُ إِلَيْهِ مُبَاشَرَةً يَجِبُ أَنْ نَنْزَهُ الْبَارِي تَعَالَى عَنْ مُبَاشَرَتِهَا وَصُدُورِهَا عَنْهُ مُبَاشَرَةً؛ لِأَنَّ الْفَاعِلَ الْمُبَاشِرَ لَهَا فَاعِلٌ نَاقِصٌ، وَالْفَاعِلَ الْمُبَاشِرَ لَا يَصْدُرُ

منه شيء من الوجود وإنما يصدر تحريك في سطح الشيء.

نعم، الإيجاد الأوّل للجسم وللمادة فعل إبداعي وكَيْسَ فعلاً مادياً؛ لأنه إيجاد للمادة وكَيْسَ فعلاً في المادة، أمّا المادة الموجودة مسبقاً فإنّ إيجاد الأثر فيها لا يكون إلا بفاعل مادي ومحاذاة ومباشرة لتلك المادة سواء كان ذلك الأثر أثراً جوهرياً أو أثراً عرضياً، فالمادة حتّى لو أريد التأثير فيها تأثيراً جوهرياً لأبدياً لها من فاعل مادي يهيؤها ويعدها لقبول ذلك الكمال الجوهري المفاض ابداعاً من الفاعل الإلهي، فتحول النطفة إلى علقة ثمّ إلى مضغة ثمّ إلى عظام ثمّ إلى الاكتساء باللحم كلها تغيرات وتبدلات جوهريّة، ولكنها ما دامت متعلقة بالمادة الموجودة تحتاج إلى فاعل مادي يعدها بالمحاذاة والمباشرة بينه وبينه حتى يتم استعدادها لقبول فيض الفاعل الإلهي أي الذي يوجد به الصورة الجوهريّة، أمّا الإيجاد الأوّل للمادة فهو إيجاد إبداعي، فأصل المادة كَيْسَ مادة بلّ إيجادها ابتداءً وإبداعاً، وتسلسل المخلوقات وفقاً للنصوص إنّها هُوَ مِنَ الأعظم والألطف ثمّ يتنزّل إلى الأغلظ فالأغلظ فالمادّة الألفظ قدّ صدرت إبداعاً، أما مثل الأرض الدُّنيا فلمْ توجد إبداعاً بلّ وجدت منّ المادة الألفظ منها.

وهذا النسق العظيم نجده في سورة الحشر ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ وهذه هي المرتبة الثالثة من الأسماء يذكر فيها الخالق أولاً ثمّ البارئ ثمّ المصور والمصور أي المشكل

والذي يشكل الصور التفصيلية في المواد، والباري أي ينحت المادة نحتا اجماليا، أمّا الخالق فالخلق خلق مادة من مادة، بخلاف الإبداع في المرحلة السابقة من الأسماء ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ بخلاف ما فوق الإبداع في الصفات الذاتية ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُهُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ فأولاً ذكرت صفات الذات والتي هي أعلى من صفات الأفعال الإبداعية في المرحلة الثانية وبعده ذلك ذكرت صفات الأفعال المادية في المرحلة الثالثة، وذلك أيضاً على مراتب (الخالق ثم البارئ ثم المصور).

تهمة الغلو في إسناد بعض الأفعال إلى المخلوقين:

إنّ جملة من الأفعال أو الصفات التي قد يظن أو يتوهم أنها مدرجة في الأفعال والصفات الإلهية أو الأفعال والصفات النبوية إذا نسبت إلى غير الله أو إلى غير النبي ﷺ يبنى على أنّ هذا غلو أو تأليه أو اعتقاد بنبوة غير النبي ﷺ، والحال أنّ هذا الزعم الخاطيء نشأ من عدم معرفة الميزان الحق في الفعل والصفة الإلهيين أو النبويين.

وإنّ من الأمور الملتبسة عند المسلمين بكثرة أنّ أيّ ارتباط بالغيب بقناة مسددة ومصونة فهو نبوة، وإنّ من يعتنق هذا الأمر يسمى غالباً أو أنّه ادّعى النبوة في أهل البيت عليهم السلام، لا سيما في الصدر

الأوّل مِنْ القرن الثَّانِي قَدْ اتَّهَمَ جَمَلَةٌ مِنْ الشَّيْعة بِالغُلُوِّ مِنْ قَبْلِ العَامَةِ
 وَأَسَدُوا إِلَيْهِمُ القَوْلَ بِنبُوَةِ الأئمَّةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ سَرَتْ هَذِهِ التَّهْمَةُ مِنْ العَامَةِ
 إِلَى الخَاصَّةِ والسَّبَبُ أَنَّ العَامَةَ كَانَتْ تَبْنِي عَلى أَنَّ مِنْ أَدْعَى فِي أَحَدِ
 ارْتِبَاطًا خَاصًّا بِالغَيْبِ فَهُوَ يَدْعِي فِيهِ النُّبُوَةَ، وَالحَالُ أَنَّ مَطْلُقَ الارتِبَاطِ
 بِالغَيْبِ لَيْسَ نُبُوَةٌ كَمَا هُوَ الحَالُ فِي مَرِيَمَ بِنْتِ عَمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأُمِّ مَوْسَى
 وَطَالُوتَ وَغَيْرِهِمُ الَّذِينَ صَرَّحَ القُرْآنُ بِارتِبَاطِهِمُ بِالغَيْبِ مَعَ عَدَمِ
 كَوْنِهِمُ أنبياء.

فَالغُلُوُّ لَيْسَ هُوَ تَجَاوُزُ مَا يَعتَقِدُهُ الآخَرُ وَلَيْسَ هُوَ الخُرُوجُ عَنِ
 حُدُودِ مَعْتَقَدَاتِ الطَّرَفِ الآخَرِ وَعَنْ مَا يَدْرِكُهُ الآخَرُونَ، بَلْ الغُلُوُّ هُوَ
 البِنَاءُ وَالاِلتِزَامُ بِالتَّجَاوُزِ عَنِ مَا هُوَ الحَقُّ وَمَا هُوَ الوَاقِعُ.

وَمِنْ هَذَا القَبِيلِ قَضِيَّةٌ جَمَلَةٌ مِنَ الأَفْعَالِ الإلهِيَةِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا
 أفعال مادّية في المادّة، وَبَعْدَ وَجُودِ المادّةِ، وَإِذَا كَانَتْ كَذَلِكَ فَهِيَ لَيْسَتْ
 أفعالاً إلهية وليست أفعالاً إبداعية بَلْ فاعلها المباشِر لها مادي يباشِر
 المادّةَ وَيَتِمَّازَجُ مَعَهَا، أَمَّا الفِعْلُ الإلهي فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً فَإِنَّمَا
 يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، وَهَذَا هُوَ الفِعْلُ الإِبْداعي، أَمَّا الفِعْلُ المادّي فَهُوَ
 الفِعْلُ الَّذِي فِي المادّةِ غَلِيظَةٌ كَانَتْ أَوْ كَثيفَةٌ أَوْ شَفِيفَةٌ أَوْ لَطِيفَةٌ حَتَّى لَوْ
 كَانَتْ مادّةً أُخْرِيَةً فَضلاً عَنِ البرزخيةِ، وَسِوَاءِ كَانَتْ مادّةً مرئيةً أَوْ
 غَيْرَ مرئيةً، وَلَيْسَ الأَمْرُ كَمَا يَتَوَهَّمُ بَعْضُ أَصْحَابِ المَدارسِ الإِسْلامِيَّةِ
 الكَلَامِيَّةِ الأُخْرَى أَنَّ الفاعلَ غَيْرَ المرئيِّ فِي المَفْعُولِ غَيْرَ المرئيِّ فاعل

إلهي، فَلأُبَدِّ مِنْ تحديد موازين ومقاييس الفاعل الإلهي والفعل الإلهي، وَبَعْدَ ذَلِكَ نسند الأفعال مُبَاشَرَةً أو بشكل غَيْر مباشر إليه تَعَالَى.

نعم المحيي والمميت الحقيقي هُوَ الله تعالى، ولكن لا بمعنى أَنَّهُ يتبأشر أو يتمازج مَعَ الأنفس كَمَا يفعلُه عزرائيل أو رسل عزرائيل، فالله تَعَالَى يفعل الإحياء والإماتة بنحو الإبداع، وما يقوم به عزرائيل تهيئة وإعداد لتقبل المحل لفعل الله وللفيض الإلهي فإذا تَمَّ استعداد القابل أفاض الله عَلَيْهِ الحياة أو الموت، فملك الموت قناة وواسطة وممر يجري فيه الفيض الإلهي، لا أَنَّ الفيض هُوَ مِنْ عزرائيل أو إسرافيل بَلْ الفيض الإلهي فعل إبداعي لله تَعَالَى يفعلُه الله بعدما تقوم الفواعل المادية بإتمام قابلية واستعداد المحل لتقبل الفيض.

فالفاعل المباشري والذي لَهُ تعلق بالمادة، أَيّ مادة كانت غليظة أو شفيفة يحتاج إلى فاعل مادي ولا يصدر مِنْ الله تَعَالَى مُبَاشَرَةً، نعم قَدْ يسمى الفاعل فِي المادة الشفافة بالمجرّد ولكن هذه مسامحة واضحة؛ لِأَنَّ التجرّد التام لمْ يحصل بَلْ حصل درجة مِنْ التجرّد بلحاظ المادة الغليظة فيسمى مجرّداً بِهذا القياس واللحاظ، وَإِلَّا فَإِنَّ الفاعل إِذَا طَوَّر المادة الغليظة إلى مادة لطيفة شفيفة غَيْر مرئية وجرّدها عَنْ بَعْض خواص المادة الغليظة أو كثفها وأنزل المادة مِنْ تلك اللطافة إلى درجة مِنْ الغلظة فَهُوَ فاعل فِي المادة وَبَعْدَ وجودها فَهُوَ فاعل مادي، فإعطاء طور المادة بتكثيف أو تلطيف أي سواء بإنزال الأرواح فِي الأجسام أو

نزع الأرواح من الأجسام يتوقف على الفعل المادي ويحتاج إلى فاعل مادي يتباشر ويحاذي المادة، وإن كان افاضة الصورة أمرا ابداعيا وبفعل إلهي.

فمن يقوم بهذا التكثيف والتلطيف أو الإصعاد والإنزال من الفواعل المادية إنما يقوم بالتحريك وبالعمل الإعدادي، أما الذي يفيض الصورة الجوهرية للموت أو الحياة فهو الله تعالى لما تقدم في بيان آيات سورة الواقعة من أن دور الفاعل المادي هو التحريك والإعداد أما افاضة الصورة فهو فعل إبداعي إلهي، أما فعل الله تعالى والفعل الإلهي فلا يمكن أن يباشر أو يتمازج أو يحاذي المادة؛ لأن المباشرة والممازجة والمحاذاة من صفات الفاعل الناقص لما فيه من احتكاك مع سطح وبشرة الشيء، ومن صفات من يغيب ثم يحضر وليس الله كذلك بل قد استوت نسبته إلى الأشياء وهو مهيم على كل شيء بدرجة واحدة، أما الفاعل المادي فلا بد فيه من محاذاة خاصة ومواجهة خاصة كي يستطيع أن يهيمن ويتسلط؛ ولذا إذا أردت أن تفتح الباب فلا بد أن تذهب وتضع يدك على الباب لأنك فاعل طبيعي تحتاج إلى المباشرة والاقتراب حتى تحصل الهيمنة، أما الفاعل الإلهي فلم يتعد عن الأشياء ولم تتفاوت سلطته وهيمنته على شيء منها على شيء آخر.

نعم كلما زادت لطافة الفاعل المادي كلما كانت حركته أسرع ومحاذاته ومباشرته أكثر هيمنة وبشكل أقوى من محاذاة ومباشرة

الفاعل المادي الأغلظ؛ ولذا كَانَ عزرائيل يحضر في كُلِّ بيت خمس مرات في اليوم فَهُوَ يقترب منهم بَعْدَ الابتعاد، ولكن باعتباره فاعلاً مادياً لطيفاً كَانَ حضوره كومضة وكلمح بالبصر، ولمح البصر مهما كَانَ سريعاً وخاطفاً فَهُوَ زمان ومقدار، وَهَذَا غَيْرُ الفِعْلِ الإلهي الذي لا يحتاج إلى أيِّ زمان ومقدار لِأَنَّ فعله آني دفعي إبداعي وَلَيْسَ تدريجياً خلقياً.

وَمِنْ هُنَا نَعْرِفُ أَنَّ الكثير من الأفعال الخارقة للعادة أفعال مادية يباشرها فواعل مادية، ومجرد خرق الفِعْلِ للعادة لا يعني أَنَّهُ إلهي ﴿قَالَ عَفْرَيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴿١﴾ وارتداد الطرف مهما كَانَ خاطفاً وسريعاً ولكنه امتداد زماني فَهُوَ فعل مادي تدريجي يحتاج إلى زمان فَلَيْسَ فعلاً إلهياً.

نعم، بَعْضُ الأزمنة وَبَعْضُ الامتدادات الزمانية لسرعتها قَدْ تخرج عَنْ إمكان الحساب، ولكن لا يعني ذَلِكَ أنها آنية الوقوع وَإِنَّ الزمان قَدْ انعدم، فالزمان لَمْ ينعدم وَإِنَّمَا قَدْ لا يمكن حسابه.

فكون الفِعْلِ خارقاً للعادة في المادة الغليظة شيء وكونه إبداعاً ودفعياً وكن فيكون شيء آخر، والذي لا يدقق في موازين الطبائع

والأشياء بعبارة سلسلة عقلية يقع في هذه الأخطاء.

وَقَدْ وَقَعَ فِي الْخَطَأِ الْكَثِيرِ مِنَ الْفَلَّاسِفَةِ حِينَمَا تَوَهَّمُوا مِنْ شِدَّةِ سُرْعَةِ الْفِعْلِ أَنَّ الْفِعْلَ إِبْدَاعِيٌّ وَدَفْعِيٌّ وَكَيْسَ تَدْرِيجِيًّا، وَإِلَّا فَإِنَّ لِمَحِّ الْبَصْرِ كَيْسَ إِبْدَاعِيًّا وَالْآخِرَةَ لَيْسَتْ عَالَمَ الْإِبْدَاعِ، بَلْ هِيَ عَالَمُ مَادِي وَلَكِنْ بِمَادَّةٍ أَشَدَّ لَطَافَةً بِمَرَاتِبٍ مِنَ الْمَادَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ الْغَلِيظَةِ.

وَلَيْسَ كُلُّ فِعْلٍ غَيْرٍ مَرْتَبِيٍّ فِعْلًا إِلَهِيًّا - كَمَا يَتَوَهَّمُ السُّلْفِيَّةُ وَبَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ التَّقْلِيدِيِّينَ مِنَ الْمَذَاهِبِ الْآخَرَى - وَإِلَّا فَإِنَّ هَذِهِ الْمَادَّةَ الْغَلِيظَةَ تَتَعَلَّقُ بِهَا الْعَدِيدُ مِنَ الْإِشْعَاعَاتِ وَالطَّاقَاتِ غَيْرِ الْمَرْتَبِيَّةِ وَلَكِنَّهَا مَادِيَّةٌ دُنْيَوِيَّةٌ، وَالَّتِي لَهَا آثَارٌ مُخْتَلِفَةٌ مَعَ تَعَلُّقِهَا بِالْمَادَّةِ الْغَلِيظَةِ حَتَّى أَنْ بَعْضُ الْعِلَاجِ الرُّوحِيِّ عِلَاجٌ غَيْرٌ مَرْتَبِيٍّ يَتِمُّ عِبْرَ هَذِهِ الْإِشْعَاعَاتِ اللَّطِيفَةِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالْمَادَّةِ الْغَلِيظَةِ، وَأَيْنَ هَذَا وَأَيْنَ الْفِعْلُ الْإِلَهِيُّ الْإِبْدَاعِيُّ. وَخَطَأٌ الْبَشَرِيَّةُ فِي السَّابِقِ حَيْثُ عُدَّتْ الْإِلَهَةُ وَكَثَرْتُمْ هُوَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ غَيْرٍ مَرْتَبِيٍّ فِعْلٌ إِلَهِيٌّ وَفَاعِلُهُ إِلَهٌ، وَالْحَالُ أَنَّهَا أَفْعَالٌ مَادِيَّةٌ لَطِيفَةٌ، وَعَلَى نَفْسِ النَّهْجِ وَالْعَقْلِيَّةِ بَنَى السُّلْفِيَّةُ وَبَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ تِلْكَ الْأَوْهَامَ فَهَمَّ يَعِيشُونَ فِي جَاهِلِيَّةٍ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ.

أَمَّا الْفِعْلُ الْإِلَهِيُّ فَهُوَ فِعْلٌ مَجْرَدٌ إِبْدَاعِيٌّ وَأَيٌّ وَدَفْعِيٌّ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى زَمَانٍ وَهُوَ الَّذِي مِنْهُ الْوُجُودُ فَهُوَ الْفَاعِلُ الْحَقِيقِيُّ، أَمَّا الْفَاعِلُ الْمَادِّيُّ فَهُوَ فَاعِلٌ مُحَرَّكٌ وَهُوَ كَيْسٌ مَفِضٌ لِلْوُجُودِ.

وإنَّ مِنْ الأسبابِ المُهمَّةِ الَّتِي تَوقَعُ البَعضُ فِي الوَهمِ والحُطَأُ فيَعتَقدُ أنَّ بَعضَ الأفعالِ هِيَ أفعالُ إلهيةِ إبداعيةِ، والحالُ أنَّها أفعالُ مادِّيةِ هُوَ عَدمُ إطلاعِهِم عَلى قَوانينِ المادَّةِ واقتِصارِهِم عَلى بَعضِ المَعلُومَاتِ القَديمةِ فِي عَلمِ الفِيزياءِ وَإِلَّا فَإِنَّ ما أَكتَشفَ اليَومُ مِنْ خِصائِصَ عَديدةٍ للمادَّةِ غَيرَ مرئيةٍ والتي لا تَدرِكُ بِهذهِ الحَواسِ لَيسَ بِالشِئِ القَليلِ وَكُلِّ ذَلكَ لا يَخرِجُ تلكَ الأجسامِ والموادِ عَنَ العَوالِمِ المادِّيةِ.

ولَكن يَخطَأُ فيلسُوفٌ أو متَكلِمٌ أو باحثٌ لَم يَدرِكُ العَديدَ مِنْ المَعلُومَاتِ فيَنسَبُ بَعضَ الأفعالِ الخارِجةِ عَنَ المألُوفِ والمَعتادِ إلى المَلَكُوتِ الأعلى أو إلى عَالمِ التَجرُّدِ، والحالُ أنَّها أفعالُ مادِّيةِ غَيرَ مرئيةٍ وفي موادٍ لطيفةٍ.

ولِذا كانَ الفِعلُ الخارقُ للعَادةِ الذي يَجرِي كِرامةً عَلى يدِ وليِ اللهِ فعَلاً مادِّياً وَلَكن بِأسبابِ خَفيَّةٍ مَكنَ اللهُ وَلِيهِ مِنها؛ ولِذا قَدَ يَأتِي زَمانٌ يَقومُ أحَدُ النَاسِ بِجَلبِ عَرشِ بَلقيسَ مِنْ اليَمنِ إلى فِلسطَينِ فِي مَدَّةِ زَمانيةِ خاطِفةٍ، وَلَكن بِأسبابِ مَكتُوبةٍ فَإِنَّ ذَلكَ لا يَعتَبرُ كِرامةً لَه وإِنَّ جاءَ بِنَفسِ الفِعلِ الذي كانَ كِرامةً؛ لِأَنَّ هذا الفِعلُ كِرامةٌ فِي ذَلكَ الزَمانِ مَعَ عَدمِ تَوفُّرِ الآلياتِ والأدواتِ فَتَسَلَّطَ وليُ اللهُ وَتَمكَّنَ مِنْ تلكَ الأسبابِ بِكرامةٍ مِنْ اللهُ تَعَالَى، نَعمِ الفِعلُ المَعجِزُ يَبقَى مَعجِزاً إلى القِيامَةِ.

شبهة كون العصمة من الصفات الإلهية..... ٣٠٣

أَمَّا الْعِصْمَةُ فَهِيَ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَلَكِنَّ الْعِصْمَةَ فِي اللَّهِ تَعَالَى عِصْمَةً ذَاتِيَّةً مِنْهُ وَبِهِ تَعَالَى غَيْرَ مُفْتَقِرٍ فِيهَا إِلَى غَيْرِهِ، أَمَّا الْعِصْمَةُ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ فَهِيَ عِصْمَةٌ بِالْغَيْرِ وَليست بالذات، بِاللَّهِ وَكَيْسَتْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَالَّذِي يَعِصِمُهُمْ وَيَسُدُّهُمْ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَا يَعْتَصِمُونَ وَلَا يَسُدُّونَ بِأَنْفُسِهِمْ؛ وَلِذَا نَلَاظِحُ أَنَّ الْعِصْمَةَ عَلَى دَرَجَاتٍ، فَالْعِصْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي هِيَ بِالذَّاتِ غَيْرُ الْعِصْمَةِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ وَالَّتِي هِيَ بِالْغَيْرِ، فَالْعِصْمَةُ لَيْسَتْ عَلَى دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَا يَزَالُ الْمَعْصُومُ يَتَكَامَلُ وَيَسْتَفِيضُ الْكَمَالَ مِنْهُ تَعَالَى.

القاعدة الحادية عشرة

عصمة التراث الوحياني

إن من الشبهات التي تطرح لبند التراث الوحياني الوارد الينا عن طريق الروايات وترك العمل به هو زعم أن هذا التراث وهذه النصوص لم يسلم من الدس والتزوير والغش وقد كثرت في النصوص الروايات المحرفة الاسرائيلية وغيرها ، وأصبح وجود هذا التحريف ذريعة لترك الروايات والنصوص الواردة عن المعصومين عليهم السلام من رأس.

وأن الكثير من الأخبار والروايات وردتنا بطرق ضعيفة وأسانيد مجهولة وهذا ما يعزز ضعف التراث الوحياني الموجود عندنا ويبرر تركه وإهماله .

هذه خلاصة الشبهة وأما الجواب ففي عدة نقاط متسلسلة و مترابطة :

النقطة الأولى: معاني الصحة والضعف:

إن الكثير من الناقدين الذين تمسكوا بهذه الذرائع والمبررات لتضعيف التراث الوحياني والمجموعات الروائية الواصلة إلينا لم يدققوا في المصطلحات العلمية في علم الدراية وعلم الحديث ، والتي تؤثر أثراً كبيراً وأساسياً في إدراك مدى اعتبار الأخبار والروايات الواصلة إلينا، وكذلك لهم قصور في بحث حجية خبر الواحد والذي يبين أساس حجية الأخبار الظنية :

فظنوا أن الطريق الوحيد لحجية خبر الواحد هو التطلع إلى سنده وتقييمه فإن كان صحيحاً أخذ به وإلا أهمل ذلك الحديث ولم يعتن به أساساً.

والحال أن الركن الركين لحجية الخبر ليس هو سنده، وإن كان للسند دوراً مهماً في الحجية ولكن الركن الركين شيء آخر وهو العرض على مجموعة المحكمات في الدين أي العرض على محكمات الكتاب ومحكمات السنة ومحكمات العقل ومحكمات الوجدان، فالمدار كما هو سيرة الإمامية من الرجاليين والفقهاء هو محورية المتن، وأما السند فله دور بعد أصل المتن .

كما أن للصحة معان متعددة، فهناك صحة السند وهناك صحة الكتاب والمراد منها معنى آخر غير صحة الأسانيد الموجودة في الكتاب، ولصحة الكتاب دور أساسي ورئيسي قبل صحة السند، وهناك صحة

المتن ، وهناك صحة بمعنى عدم إعراض الطائفة عن الرواية، وهناك معان أخرى للصحة، وبالتالي فإن المؤثر في الحجية ليس نمطاً واحداً من الصحة، بل مجموعة من العناصر الدخيلة التي لا بد من ملاحظتها جميعها في تقييم الحديث .

كما أن للضعف اصطلاحات ومعان متعددة وهي غير الوضع وغير الكذب ، فإن الحديث الضعيف هو الحديث التي لم يستوف شروط الحجية الاستقلالية، لا أنه حديث موضوع أو مكذوب أو مدسوس. ومجرد عدم استيفائه لشروط الحجية الاستقلالية لا يعني عدم صدوره عن الإمام عليه السلام ، كما ان مجرد جهالة الراوي وعدم جرحه لا يعني كونه كاذباً، فكم من راوٍ مجهول لم يرد فيه توثيق ولا تضعيف كان في الواقع صدوقاً وثقة، ومن هنا ذهبنا - تبعاً للعديد من الأعلام - إلى ضرورة فتح باب الإجتهد في علم الرجال وأن هناك قرائن كثيرة يمكن من خلالها الاعتماد على الرواة وليس الطريق المنحصر لذلك نصوص الرجاليين.

والخلاصة إن الغفلة عن البحوث الأصولية والدراية والحديثية سبب للكثير من هذه الشبهات والتمسك بهذه المبررات الزائفة لترك التراث الحديثي الوارد عن المعصومين عليهم السلام .

وما ذكر هنا في هذه النقطة الأولى خلاصة مركزة وللتفصيل تراجع البحوث الأصولية وسائر مظانها .

النقطة الثانية: وجود العلم الإجمالي بصدور الأخبار:

من البراهين التي يتمسك بها في علم الأصول لحجية خبر الواحد هو وجود علم إجمالي بصدور معظم الروايات الواصلة إلينا عن المعصومين عليهم السلام:

بيان ذلك: قرر في علم الأصول - في مسألة الانسداد ومسألة حجية خبر الواحد - عدة علوم إجمالية كبيرة بالأحكام الشرعية:

منها العلم الإجمالي الكبير الأوسع دائرة والتي تشكل كل الشبهات الحكمية أطرافه، ويبحث عنه في مسألة الانسداد، ومنشأ هذا العلم هو ضرورة الدين لما يقتضيه الدين من احكام وتشريعات إلزامية، فكل إنسان متدين يعلم بأن هناك أحكام إلزامية وجوبية أو تحريمية تجاهه في الدين لا يسعه إنكارها.

ومنها: علم إجمالي آخر كبير الدائرة ولكنه أصغر بالنسبة إلى العلم السابق، لأنه مختص بدائرة الأخبار لا مطلق الأدلة والأمارات ولا سائر الظنون الأخرى، وهو يوجب انحلال العلم الإجمالي الكبير السابق.

وبيانه أننا نعلم بأن قسماً كبيراً بل معظم النصوص والروايات الواردة إلينا هي نصوص صادرة عن المعصومين عليهم السلام واقعاً وذلك بشكل إجمالي ومن دون معرفة تفصيلية به. فأى كتاب حديثي معتبر

تمسك به فإنك تعلم أن قسماً كبيراً أو أكثر أو جل هذا الكتاب - باختلاف درجات الصحة في الكتب - هو صادر عنهم عليهم السلام.

ومنشأ هذا العلم هو سيرة العلماء في جمع وتدوين الأحاديث، فإن المطلع على تاريخ علم الحديث والدراية والرجال يرى أن علماء الإمامية قد كابدوا الأمرين وقاسوا شديد المتاعب جيلاً بعد جيل من زمن الأئمة عليهم السلام إلى عصرنا في نقل التراث الحديثي وإن المنصف لو طالع هذه السيرة لحصل لديه علم أجمالي بصدور كثير من هذه الأخبار.

وهذا العلم الإجمالي منجز، وبالتالي يوجب حجية تلك الأخبار حجية إجمالية بمعنى عدم جواز تركها وإهمالها بحجة عدم التعرف على الحجج التفصيلية، فإن العلم الإجمالي كالعلم التفصيلي حجة، فالمتدين بإمامة أهل البيت عليهم السلام لا يمكنه رفع اليد عن هذا التراث الحديثي بأية ذريعة بعد وجود هذا العلم الإجمالي بصدور هذه الأخبار عن أئمة أهل البيت عليهم السلام فلا يستطيع أي متدين أن يرد كل روايات أهل البيت بل لا يستطيع أن يرد جله أو نصفه وحتى أقل من ذلك، لأن هذا العلم الإجمالي منجز وملزم للتعبد بهذه الأحاديث.

أما ما هي الصياغة التي نتعامل بها مع هذه الأحاديث فهذا بحث آخر في محله .

والشيخ الأنصاري والآخوند الخراساني (قدس سرهما) وإن

ناقشا في هذا الدليل في مسألة حجية خبر الواحد ولكن لا بد إلى الالتفات إلى نقطة صناعية أن خدشة العلمين ليست في أصل منجزية هذا العلم الإجمالي بصدور الأخبار والروايات ولا في أن هذ العلم يوجب الاحتياط، وإنما نقاشهما في استفادة نمط خاص من الحجية من هذا العلم الإجمالي، فخدشتها هي في أن هذا العلم الإجمالي لا يوجب الحجية الاجتهادية لخبر الواحد بحيث يعامل معه كمعاملة دليل اجتهادي خاص بأن يكون مخصصا ومقيدا أو حاكما أو محكوما أو وارداً أو مفسراً لسائر الأدلة الاجتهادية من عمومات الكتاب والسنة أو اطلاقاتها، فحاصل الخدشة ليس في أصل منجزية العلم الإجمالي ، بل العلم إذا حصل كان منجزا وموجباً للاحتياط ولا يمكن رفع اليد عنه ، غايته يفيد هذا العلم الاحتياط والاحتياط أصل عملي^(١) ، ولا يوجب التنجيز من نمط وسنخ الادلة الاجتهادية فلا يتعامل مع الخبر معاملة الأدلة الاجتهادية.

فخلاصة الخدشة منهما - بغض النظر عن تماميتها - ليس في أصل الاحتياط والتنجيز لهذا العلم الإجمالي وإنما في إمكان استفادة حجية خاصة اجتهادية منه.

(١) الاحتياط هنا احتياط في المسألة الأصولية أي في الحجج لا في الحكم الفقهي، والاحتياط في المسألة الأصولية نتيجته دليل اجتهادي نظير التخيير بين الأدلة المتعارضة. نعم هذا النمط من الادلة الاجتهادية ثبت بدليل عام متاخر عن الحجج التي قام عليها الدليل الخاص.

ومع وجود هذا العلم الإجمالي لا يمكن رفع اليد عن هذا التراث الوحياني والروائي الذي نعلم بصدور جله عن المعصومين عليهم السلام بحجة وجود روايات مدسوسة أو موضوعة أو مكذوبة، فإن هذه الدعوى إن تنزلنا وسلمنا بها فهي غير قابلة لإسقاط هذا العلم الإجمالي بصدور الروايات، وهذا العلم هو علم بوجود الوحي في ما بين الاخبار، ولا مفر من الأخذ والعمل به اجمالاً للمتدين الذي تمت لديّه أدلة الدين وضرورة التشريعات فيه، وليس التعبد بالدين وتشريعاته وأحكامه أمراً باختيار المكلف، وهذا الالتزام الاجمالي بالنصوص أمر مسلم بين اعلام الطائفة بل سلموا ان ترك هذا التراث الوحياني يوجب الخروج والمروق عن الدين.

إذن العلم الإجمالي بصدور الأحاديث والأخبار التي بين أيدينا منجز، ولا يتلكأ أحد في أصل هذه المنجزية بهذا العلم وإنما البحث في نمط وسنخ الحجية التي يتحصل بهذا الدليل، هل هذه الحجية من نمط الأدلة الاجتهادية - كما هو الصحيح - أم هو من نمط الأصول العملية، ولا بد من الالتفات إلى أن حجية التراث الروائي الموجود لدينا ليس مجرد تعبد بالظن، بل الأمر أعلى وأرفع من ذلك شأنًا لأن هذه الظنون التفصيلية لا تبقى على هذا المستوى من الكشف الناقص إذا لوحظت بنظرة مجموعية بل ترقى إلى مستوى العلم ولو كان إجمالياً، فصدور مجموع هذه الأحاديث في الجملة ليس مظنوناً بل

معلوم ومقطوع به ومتيقن، فلا يمكن رفع اليد عن هذا العلم بحجة عدم تمامية الأسانيد وضعفها، ولا بحجة وجود اسرائيليات ولا مدسوسات. اما الصيغة الصناعية العلمية التي نتعاطى بها مع هذا العلم للاستنتاج العلمي فهذا بحث آخر في محله .

مثلاً: لو فرض كتاب حديثي لا يعرف أنه لمن كبعض الكتب التي نقل عنها المرحوم المجلسي رحمته الله في البحار، وإن كانت تلك الكتب معروفة لدى بعض معاصري المجلسي ولكنه لكثرة انشغالاته العلمية والسياسية لم يتعرف على أصحابها، كالكتاب الذي يكثر النقل عنه بعنوان (الكتاب العتيق) ولم يكن المجلسي مطلعاً على صاحبه وإن كان معلوماً عند بعض معاصريه وحقق الكتاب بعد ذلك وعرفت نسبته إلى أحد علماء الإمامية^(١)، فقد يقول قائل كيف يسوغ للمجلسي أن ينقل عن هذا الكتاب وهو لم يتحقق من نسبته؟

والجواب : أن المجلسي لم يدلس بل صرح بمصدر الرواية وأنه الكتاب العتيق، وثانياً إن المجلسي اعتمد على هذه النكته الصناعية التي بينها وهي أني لو عثرت على كتاب حديثي مشكوك وقد حصل لدي نتيجة بعض القرائن العلم بأن جملة من أحاديثه صادرة واقعا من المعصوم عليه السلام فلا يسوغ ترك هذا الكتاب وإهماله لأن هذا المقدار المعلوم اجمالاً لا يسوغ تركه ولا إهماله، ومجرد عدم توفر شروط

(١) وَهُوَ السَّيِّدُ الشَّرِيفُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ الْعُلُوِي مِنْ أَعْلَامِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ .

الصحة في الباقي من الكتاب لا يعني التفريط بالمقدار المعلوم، وتجنب سائر الروايات غير الصحيحة لا يبرر تجنب الصحيح من الكتاب، كما أن العمل بالمقدار المعلوم لا يبرر خلط وخبط الباقي به، وأما كيفية العمل بالمقدار المعلوم وتوقي الباقي فله منهاج وصياغة صناعية تبحث في محلها، وأما حذف كل الكتاب وتركه بحجة عدم معلومية صحة بعضه فهذا ترك لحجة منجزة لا يجوز إهمالها.

الموقف من تراث العامة ودرجة اعتباره:

وهناك ظاهرة صناعية عند علماء الامامية في موقفهم العلمي من تراث الحديث لدى بقية المذاهب، فإن المشاهد في سيرتهم أنهم لا يفتأون ولا يفترون عن رعاية التراث الحديثي عند العامة ورصد محاولات اللعب به كأنهم رعاة ذلك التراث الحديثي، ولولا مراقبة علماء الشيعة عبر قرون للتراث الحديثي عند العامة لتلاعب علماء العامة بتراثهم الروائي شر تلاعب ولحذفوا ولبدلوا من الكلمات ما يشاؤون ولذا اختلفت نسخ البخاري التي طبعت في السعودية أو التي في لبنان تحت اشراف الوهابية عن نسخ البخاري المطبوعة في عهد الدولة العثمانية، وقد حذفت من الطبعات الجديدة العديد من الاحاديث التي تخالف عقيدة الوهابية كحديث توسل المسلمين بفضل وضوء رسول الله ﷺ والذي حذف من الطبعات الجديدة، وقد أنشأت المؤسسات في عدة بلدان من أجل حذف الكثير من الأحاديث

الموجودة في تراث العامة والتي تدعم منهج ومدرسة أهل البيت عليهم السلام وأمثلة ذلك كثيرة .

وقد يسأل سائل عن سبب هذا الاهتمام من علماء الشيعة بتراث العامة الحديثي مع العلم بوجود الأخبار المدسوسة والموضوعة والمكذوبة عندهم؟

والجواب أن سبب هذا الاهتمام هو العلم الإجمالي بوجود أحاديث نبوية صادرة منه صلى الله عليه وآله قطعاً ضمن تراثهم ولو بنسبة غير غالبية، ووجود تراث نبوي وحياني منجز علينا ، وموجب للمسئولية في رعايته وصيانتته عن أيدي العبث والفساد والتحريف زيادة عما فيه، وتمييز الصحيح من السقيم فيه من خلال القرآن وثوابت مدرسة أهل البيت عليهم السلام .

ومن هنا روي في كتب العامة كما هائلاً من معارف أهل البيت عليهم السلام من حيث لا يشعرون وبالسنة مختلفة.

ولذا فإن مجرد العلم بوجود المدسوس والموضوع في تراث العامة ليس مبرراً بالتفريط بالأحاديث النبوية الصحيحة والمطابقة للقرآن ولثوابت مذهب أهل البيت عليهم السلام مع وجود هذا العلم الإجمالي بصدورها. نعم لابد من تمحيصها وتنقيحها بضبط الموازين لتمييز الصحيح من الخاطيء وفق منظومة مهيمنة من التراث الوحياني المروي عن طريق أئمة أهل البيت عليهم السلام .

النقطة الثالثة: هيمنة محكمات الوحي

في التراث المنقول على التحريف:

ولتوضيح هذه الجواب لا بد من الالتفات إلى أن القرآن أمر أهل الكتب السماوية السابقة بالتعبد بها رغم وجود التحريف فيها .

فالقرآن رغم ذم أهل الكتاب على الدس والتزوير والتحريف في الكتب السماوية السابقة حيث قال : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا مَتَّعْتُمَا يَكْسِبُونَ ﴾ (٧٦) مع ذلك ذمهم على متاركة العمل بالتوراة والانجيل الموجودة عندهم في عصر رسول الله ﷺ . ﴿ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ تَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى ﴿ ... وقال بعد ذلك ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ... وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٤٤) ثم خاطب أهل الإنجيل : ﴿ ... وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴾ (٤٧) (٢).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا

(١) سورة البقرة: الآية ٧٩.

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٣ - ٤٥ وآية ٤٧.

التَّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴿١﴾ .

وهذه الآيات نزلت في سورة المائدة وهي آخر السور نزولاً
وحاكمة تفسيراً على ما قبلها، وهذه الآيات تين :

١ - ان التوراة والانجيل حتى بنسخهما الموجودة في هذا الزمان
ورغم التحريفات التي فيها لا يوازيها ولا يساويها كتاب من كتب
البشر مهما بلغ أوجه، فافتراض كتابا لا يستند إلى القرآن ككتاب عقلي
من عالم من علماء الامامية فإنه لا يمكن أن يقترب أو يضاهي التوراة
والانجيل بنسخهما الموجودة.

فالقرآن يعطي صفة الكتاب السماوي والإلهي للتوراة والانجيل
حتى في نسخهما الموجودة ورغم التحريفات والتزويرات الواقعة فيها
والتي يؤكد القرآن نفسه على وجودها.

٢ - بل أعظم من ذلك حيث يقول ﴿ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ
التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ ومفاده ان الانجيل والتوراة ليس بأقل من
كلام النبي ﷺ بل صلاحية التشريع الموجودة فيهما أعظم من صلاحية
التشريع الموجودة في سنة النبي ﷺ لأن الأولى صلاحية تشريع الله
تعالى وهي اعظم ومقدمة على صلاحية تشريع النبي ﷺ، وإن صلاحية
التشريع الثابت وغير المنسوخ في التوراة والانجيل أعظم من صلاحية

تشریح النبی ﷺ، وما كان لرسول الله ﷺ أن يخالف تشریح الله تعالى.

٣- ان سر انحراف اليهود والنصارى وسبب تهودهم وتنصرهم وسبب وجود التيارات المنحرفة عندهم حتى الجديدة منها كالصهيونية والصليبية والماسونية ليس هو بسبب العمل بالتوراة والانجيل بل هو بسبب متاركة العمل بالتوراة والانجيل، فالكتاب السماوي رغم ما اوقعوا فيه من دس وتزوير يلزم العمل به بما فيه من محكمات، ومن هنا ندد القرآن باليهود والنصارى بسبب تركهم العمل بالكتاب وأن سبب انحرافهم هو ذلك وأنهم كلما زادوا متاركة للعمل به زادوا انحرافا وزيعاً، ومن هنا صرح القرآن ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وقال في شأن التوراة : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا الْكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَسْتَرُوا بِعَآيَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ورتب على ذلك ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ... وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ... وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٤٧).

وقال تعالى ذاماً لأهل الكتاب في تركهم العمل به: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ وَرِيْقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَبَدُّوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مُمَنَّا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتُرُونَ﴾ (١٨٧) (٢).

فسبب انحراف اليهود والنصارى ليس اتباع التوراة والانجيل وإنما إذا تبعوهما بما فيهما من ضمانة الهداية والتي يأتي بيانها فإنهم سوف يهتدون إلى نبد ما تم دسه وتزويره وتحريفه وإلى اتباع الحق واتباع القرآن، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ (٣).

٤ - ومن هنا كانت سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام في حوارهم مع اليهود والنصارى هو الاحتجاج عليهم بنصوص من التوراة والانجيل على نبوة رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى الكثير من المعتقدات الحقة، وسار على ذلك العديد من علماء الامامية منهم المرحوم البلاغي، والذين احتجوا على اليهود والنصارى بل على المسلمين بحجج التوراة والانجيل التي فيها حجية النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وجملة من الأحكام كتحرим الربا والزنا وشرب الخمر ، بل قام بعض المستبصرين باستخراج الكثير من

(١) سورة البقرة: الآية ١٠١ .

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨٧ .

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٧ .

الأحكام المطابقة لمذهب أهل البيت عليهم السلام وللإسلام من نسخة الانجيل الموجودة .

٥ - والسؤال الرئيسي: ما هو السر في بقاء قدسية هذه الكتب رغم التحريف والدس فيها؟ وما هو الضمان للهداية بالتمسك بها رغم ما وقع فيها من التزوير؟ وكذلك الكلام في التراث الحديثي الذي ورد عن طريق العامة أو أي تراث وحياني أو حديثي يدعى وقوع التزوير فيه؟

والجواب يتبين من خلال ملاحظة منظومة الوحي فإن التراث الوحياني من الآيات والروايات من حيث مضمون المتن ليس على درجة واحدة، بل إن بينها ترتيباً طويلاً ومنظومياً وتوالداً وترتباً وأمومة وتفرعاً، فبعض الآيات تشكل الأركان والمحاور والأسس للمنظومة الوحيانية وبعضها تشكل تفرعات تلك الأركان ومواليدها وبعضها يشكل الهوامش.

ويظهر ذلك جلياً في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(١) فهذه الآية واضحة في أن آيات القرآن ليست على مستوى

واحد بل لبضعها الأمومة ﴿تُحْكَمْتُ هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ﴾ وبعضها ليس لها أمومة بل يؤدي التمسك بها منفصلاً عن المحكمات الى الزيغ والفتنة رغم أنها قطعية الصدور، كما أن المحكمات لها مرجع ترجع إليه وهي أمومة الراسخين في العلم، وهم الحجج وأهل العصمة عليهم السلام.

فترك أم الكتاب أم القرآن وترك أم أم الكتاب وهي ولاية أهل البيت الراسخين في العلم عليهم السلام تؤدي إلى الزيغ والانحراف، فالمدار في الهداية والرشد ليس مجرد قطعية الصدور وإنما المدار على أم الكتاب أي الاسس الأصيلة والأركان الهيكلية في القرآن والتي تضمن عدم الوقوع في الزيغ والفتنة عند التمسك بالمتشابهات، ولا استقلال في الهداية بالمحكات وإنما الضمانة في هيمنة ولاية الراسخين في العلم على رجوع البشر الى تلك المحكمات واستفادتهم منها، كما هو مستفاد من الآية المباركة وفي الحديث عن مسعدة بن صدقة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «ان الله جعل ولايتنا أهل البيت قطب القرآن، وقطب جميع الكتب، عليها يستدير محكم القرآن، وبها نوهت الكتب ويستين الايمان، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقتدى بالقرآن وآل محمد، وذلك حيث قال في آخر خطبة خطبها: انى تارك فيكم الثقلين: الثقل الأكبر، والثقل الأصغر، فاما الأكبر فكتاب ربي، واما الأصغر فعتري أهل بيتي فاحفظوني فيها فلن تضلوا ما تمسكنم بهما».

والضمان في الهداية والحفاظ لوحانية التراث هو هذه البنى الهيكلية

والأسس الأصيلة والتي تعد أمماً وأصلاً وأساساً لسائر التفرعات والتفصيلات والهوامش في نصوص الوحي، والعصمة في هذا النظام أن يد اللاعبين والمزورين لا تستطيع أن تنال من البنى والأسس، فإن عقل البشر القاصر لا يستطيع أن يكشف تفاصيل هذا النظام وطبقاته وبالتالي يعجز عن تشخيص المحاور الرئيسية والبنى الهيكلية في الوحي، فيبقى تحريفه ودسه في أمور فرعية وهامشية وتفصيلية. فعظمة الوحي وعلوه ييمن على كل التحريفات والألغاب، فمهما دسوا وزوروا فهم لا ينالون الأصل والأم في منظومة الكتاب، ومن هنا أمكن تجاوز التحريفات والمدسوسات من خلال التمسك بالمحكمات، وارجاعها وعرضها عليها، كما أن أصل التمسك بالمتشابهات في القرآن والتي هي قطعة السند لا يصح ولا يكون على سبيل هدى ورشد إلا بالإرجاع إلى أم الكتاب وهن المحكمات وأم أم الكتاب وهي ولاية الراسخين في العلم ﷺ.

طبعا هذا اذا لم يطمس أصل الكتاب كما يروى في كتاب زرادشت، أما إن كان أصل الكتاب موجوداً فإن البنى الهيكلية والأسس الفوقية مصنونة من اللعب والتزوير والدس، وكانت هي الحافظة والضامنة للهداية في التمسك بالتراث الوحياني.

فلهيكل الام في التوراة والهيكل الام في الانجيل مصون ولا يستطيع البشر بقدرته العقلية أن يعث به لعدم اهتدائه إلى الأعمدة الأساسية

والهيكلية، فحتى لو عبث فهو يعبث بالجدران والنوافذ والهوامش .

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في أجوبته على مسائل الزنديق حيث يسأله عن أمور عديدة في علوم القرآن أن البشر لا يستطيع أن يهتدي إلى مفاصل القرآن وبعبارة أخرى إلى مفاصل الكتب السماوية فما دام الكتاب السماوي موجوداً فإن البشر مهما فعل فإنه لا يخرج منه الهدى والرشد وهذه إحدى المعجز العلمية المنظومية في الكتب السماوية، فمهما فعل البشر من تحريف فإنه لا يجري على الهيكل الأم والمنظومي في الكتاب السماوي ويبقى على حجيته إجمالاً ومن ثم تعرض التحريفات على محكمات التوراة والانجيل فلا تتبع، ومن هنا وقف العديد من الباحثين على وجود العديد من الأحكام الصحيحة في التوراة والانجيل كتحرير الخمر والزنا والفواحش والظلم وحتى في العقائد كنبوة سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله بل إمامة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام بل وحجية الزهراء عليها السلام.

فكما أن القرآن الكريم بالتمسك بمحكماته بهداية الراسخين في العلم عليهم السلام ينبذ الزيغ والفتنة من خلال التمسك بالمتشابهات منفصلاً عن المحكمات، مع أن القرآن لا دس فيه ولا تحريف ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ﴿٤٢﴾ فكذلك التمسك بسائر التراث الوحياني الذي وقع فيه دس وتزوير وتحريف يكون بالعرض على محكمات الوحي من الكتاب والسنة ومحكمات العقل

ومحكّمات الوجدان، وينبذ من خلال ذلك التحريفات ، لا أن ينبذ التراث بمحكمه ومتشابهه وصحيحه وضعيفه بمجرد شبهة التحريف والدس.

فالتراث الذي يعلم الدس والتزوير فيه لا يجوز اهماله بل لا بد من عرض الموارد المشتبهة فيه على المحكمات، فكيف بما لا يعلم وجود الدس والتزوير فيه وهل يجوز تركه واهماله بمجرد احتمال طرو الدس والتغيير، لا يجوز ذلك بل اهماله موجب للخروج عن ربة الدين كما اجمع على ذلك علماء الإمامية في مبحث الانسداد في علم الأصول.

وهذه الضابطة والقاعدة الصناعية هي السر وراء أمر القرآن لأهل الكتاب باتباع الإنجيل والتوراة وأنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل، وهو السر في عناية علماء الإمامية بتراث الحديث لدى العامة، وإن علمنا أن فيه مدسوسا ومكذوبا على رسول الله ﷺ، فكيف يكون الحال في التمسك بتراثنا الحديثي الوارد عن طريق الخاصة.

٦ - وهنا قد يطرح اشكال على ما تقدم من أن البشر ان لم يهتدوا الى المحكمات والمفاصل الهيكلية في منظومة تراث الوحي حتى لا تناله يد التحريف والتزوير، فكيف يمكن أن نميز التحريف الواقع في التراث من خلال التمسك بالمحكّمات، وهل يمكن ذلك من دون التعرف على تلك المحكمات والمفاصل الهيكلية؟

والجواب : ان التعرف على المحكمات في الكتب السماوية إنما يتم عبر الضابطة المبدهة في القرآن وهو العرض على محكمات القرآن ومحكمات سنة المعصومين عليهم السلام، ما وافق الكتاب والسنة فخذه وما خالف الكتاب والسنة فاطرحه.

ويستعلم هذا بالتطابق بين ما في القرآن وما في الانجيل وما في الكتب السماوية، وهذا التطابق منبه وعلامة على ان الجانب الموحد والمشارك هو المحكمات بينها.

وتفصيل البحث في محله وقد بحثنا بعضه في بعض كتبنا^(١).

(١) راجع كتابي (أمومة الولاية والمُحكّمات) و (ملاحم المُحكّمات).

فهرس الموضوعات

- ٥ هوية الكتاب
- ٧ المقدمة
- ٧ في معنى العصمة لغهً واصطلاحاً:
- ١١ الشواهد التي توهم نفي العصمة
- ١٥ القاعدة الأولى: شدة عصمتهم ومناعتها قلباً ومقللاً
- ١٧ تفسير أهل البيت لأمنية النبي:
- ١٨ عجز الشياطين عن الوصول إلى قناة النبوة:
- ٢٠ عدم حجية المكاشفات لدى غير المعصوم:
- ٢١ قناة الوحي فوق قدرة الأبالسة:
- ٢٤ الجواب عن شبهة تأثير السحر عليهم عليهم السلام:
- ٢٦ عصمة بدن المعصوم وقواه النازلة:
- ٣١ كيفية عمل غرائز المعصوم وحدودها
- ٣٢ المعصوم لا يلقي نفسه في معرض الإثارة:
- ٣٤ ملخص القاعدة الأولى
- ٣٧ القاعدة الثانية: أنهم عليهم السلام ذوو أرواح عديدة متنوعة:
- ٣٩ تساؤلات حول مراتب وجود المعصوم عليه السلام:
- ٤١ لا جبر في العصمة ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين:
- ٤١ كيفية الجمع بين الجهة الملوكوتية والبشرية في المعصوم:
- ٤٤ الجواب عن ما يوهم منفاة العصمة:
- ٤٦ تتمم القاعدة الأولى:
- ٤٧ أمّا الفرق بين نفس المعصوم وغير المعصوم:
- ٤٨ الطهارة الذاتية والطهارة العرضية في المراتب النازلة:
- ٥١ العصمة في القوى الصاعدة عن مشاغبة القوى النازلة:
- ٥٣ الوحي وأقسامه ووحانية كل مراتب وجود المعصوم
- ٥٩ الشفافية النورية في أفعال المعصوم:
- ٦٢ ملخص القاعدة الثانية:
- ٦٥ القاعدة الثالثة: شدة لطافة أفعال المعصوم البشرية قياساً إلى أفعال غيره
- ٦٥ ١- نوم المعصوم:
- ٦٦ ٢- قلوب غير قلوبكم:
- ٦٨ ٣- فصل المعصوم الأخير:

٢٢٦..... الإمامة الإلهية - قواعد في العصمة

- ٧٣..... القاعدة الرابعة: إنَّ المعصومين عليهم السَّلامُ صفوة البشر طينةً وروحاً.....
- ٧٣..... مثال على اختلاف الأجسام:.....
- ٧٥..... الأبدان المختلفة:.....
- ٧٧..... تفسير طي الأرض:.....
- ٨٠..... تنبيه استطرادي:.....
- ٨١..... علم المعصوم بما يكون وفضيلة الاختيار:.....
- ٨٢..... ليس البيان كالعيان:.....
- ٨٢..... سكوت الغضب أم سكونه:.....
- ٨٧..... القاعدة الخامسة: الفرق بين العصمة الإلهية والعصمة الخلقية.....
- ٨٧..... العصمة الإلهية:.....
- ٨٨..... عصمة النبي:.....
- ٩١..... توجيه ترك الأولى:.....
- ٩٣..... الفرق بين عصمة المعصوم وعدالة غيره:.....
- ٩٥..... القاعدة السادسة: تكامل العصوم.....
- ٩٥..... تكامل المعصوم في أي مرتبة:.....
- ٩٦..... الجهة الأولى للتكامل: تعدد مراتب وجود المعصوم وتكامل المراتب النازلة.....
- ٩٧..... الارتباط بين المراتب الصاعدة والنازلة في الإنسان:.....
- ٩٨..... صلاة الليل عبادة لتوسيع القابليات:.....
- ٩٩..... اختلاف القابليات في الاسترفاد من العوالم العلوية:.....
- ١٠١..... فأوغل فيه برفق.....
- ١٠٤..... تخليص ونتيجة:.....
- ١٠٥..... الجهة الثانية للتكامل: تكامل العقل والنور في المعصومين عليهم السَّلام.....
- ١٠٧..... النصوص الدالة على نظرية التذكر:.....
- ١٠٩..... التذكر والتكامل في المعصوم:.....
- ١١٠..... مراتب علم المعصوم:.....
- ١١٥..... الوجه الثاني للجمع:.....
- ١١٩..... موازنة وجهي الجمع:.....
- ١٢١..... الجمع بين نظريتي التذكر والاستزادة:.....
- ١٢١..... تلخيص القاعدة السادسة:.....
- ١٢٣..... تكامل المعصومين عليهم السَّلام برسول الله | ونقلهم السنة عنه:.....
- ١٢٧..... مراتب الوحي وحفظ السنة:.....
- ١٢٧..... مراتب الوحي:.....
- ١٣١..... وراثه السنة:.....

فهرس الموضوعات ٣٢٧

- ١٣٢ الحقائق العلوية للسنة النبوية:
- ١٣٩ تلخيص للقواعد الست المتقدمة
- ١٤٥ القاعدة السابعة: الاختيار في أصل العصمة
- ١٤٦ الجهة الأولى: الاختيار في العوالم ومراتب الاصطفاء السابقة
- ١٤٦ إعدادا لما في هَذَا العام:
- ١٤٧ الجهة الثانية: دور الطاعة اللاحقة في الاصطفاء السابق
- ١٤٨ الفوارق بين الصفة الاصطفائية والاكتمالية:
- ١٤٩ الجهة الثالثة: الاختيار في أصل حدوث العصمة بعدَ تَمَامِ الاستعداد
- ١٥٣ الجهة الرابعة: الاختيار في بقاء واستمرار العصمة
- ١٥٦ المقام الثاني: الاختيار في الأفعال الصادرة عن العصمة
- ١٦١ ملخص القاعدة الثامنة
- ١٦٣ عتاب الزهراء عليها السلام لأمر المؤمنين عليه السلام
- ١٦٤ العتاب المشترك لأمر المؤمنين والأنصار:
- ١٦٦ تحليل مجريات الأحداث:
- ١٦٦ غربة ووحدة الزهراء عَلَيْهَا السلام:
- ١٦٨ مبررات عدم قيام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بالمواجهة العسكرية:
- ١٦٨ تخاذل الأمة في النصر:
- ١٧١ إحقاق الدين أعظم من إمارة الناس
- ١٧٧ الخطوط الحمراء:
- ١٧٨ تشابك الأوراق وطبيعة التحزبات:
- ١٨٢ الموقف المطلوب من أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ والزهراء عَلَيْهِ السَّلَامُ:
- ١٨٣ حقيقة التقية:
- ١٨٦ التكامل بين أدوار المعصومين (دور علي وفاطمة):
- ١٩٢ أهمية خطاب الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ لأمر المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ:
- ١٩٥ المشهد الأول: محاسبة الله تَعَالَى لعيسى بن مريم:
- ١٩٨ المشهد الثاني: بين موسى وهارون:
- ١٩٩ المشهد الثالث: بين موسى والخضر:
- ٢٠١ حقيقة الآداب:
- ٢٠٤ القاعدة التاسعة: محاسبة المعصوم بذنب الأمة غير مخل بالعصمة
- ٢٠٦ المسئولية المشتركة بين الراعي والرعية:
- ٢١٣ المصير المشترك بين فعل الخالق والمخلوق:
- ٢١٧ الجزع على المعصوم عَلَيْهِ السَّلَامُ قمة التسليم لأمر الله تَعَالَى:
- ٢٢٩ أعرف الناس بسنة المعصوم هو المعصوم الآخر:

- ٢٣٤ عدم الفرقة عن الدين وحكمة موقف أمير المؤمنين:
- ٢٤٢ تحليل ما جرى بين موسى والخضر:
- ٢٥١ القاعدة العاشرة: شبهة كون العصمة من الصفات الإلهية
- ٢٥٢ نسبة الصفات الإلهية إلى وسائط الفيض في القرآن
- ٢٥٢ ١ و ٢ - الخلق ونفخ الروح:
- ٢٥٥ ٣ - الإمامة:
- ٢٥٧ ٤ - الرزق:
- ٢٥٧ ٥ - الجبروت:
- ٢٥٧ ٦ - تقدير الأمور:
- ٢٥٨ ٧ - قول كلام الله والوحي:
- ٢٥٩ الفرق بين إسناد الأفعال الإلهية إلى الله وبين إسنادها إلى وسائط الفيض
- ٢٦٣ هلّ التوحيد في نفي الوساطة:
- ٢٦٨ استواء هيمنة الله على كل الأشياء:
- ٢٧١ ضابطة الفعل المادي عن الفعل الإلهي:
- ٢٧١ تعريف الجسم المادي وأنواعه:
- ٢٧٥ أحكام الأجسام والمواد:
- ٢٧٧ خطأ الفلاسفة في بحث المادة:
- ٢٨٠ نفخ الروح ونزع الروح:
- ٢٨٢ الفاعل بالوساطة والفاعل المباشر (الفاعل الحقيقي والفاعل الصوري)
- ٢٨٦ اختلاف أحكام المواد:
- ٢٨٨ تعاضم الأفعال في العين ليس دليلاً على تجردها عن المادة:
- ٢٨٩ ضابطة أخرى في التمييز بين الفعل الإبداعي والمادي:
- ٢٩٠ الفاعل المادي يؤثر في المادة المناسبة:
- ٢٩١ درجات التجرد:
- ٢٩٦ تهمة الغلو في إسناد بعض الأفعال إلى المخلوقين:
- ٣٠٥ القاعدة الحادية عشرة: عصمة التراث الوحياني
- ٣٠٦ النقطة الأولى: معاني الصحة والضعف:
- ٣٠٨ النقطة الثانية: وجود العلم الإجمالي بصدور الأخبار:
- ٣١٣ الموقف من تراث العامة ودرجة اعتباره:
- ٣١٥ النقطة الثالثة: هيمنة محكمات الوحي في التراث المنقول على التحريف
- ٣١٥ في التراث المنقول على التحريف:
- ٣٢٥ فهرس الموضوعات